من أدب الرحلات

الحياة في القرن الثامن الهجري
كما تصورها رحلة ابن بطوطة

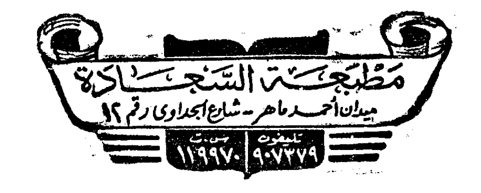
دكتور

أحمد أمين مصطفى

كلية الألسن - جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون
٩٠٧٣٧٩
١١٩٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أدب الرحلات العربية يمثل جوانب مهمة من جوانب الحياة العربية والإسلامية فى مختلف نواحيها سواء فى ذلك الجانب السياسى والاجتماعى والدينى والفكرى وأيضا الأدبى ، وقد برز كثير من الرحالة العرب وقاموا برحلات طويلة وألفوا كثيراً من الكتب صوروا فيها ماشاهدوه فى هذه الرحلات وصوروا مشاعرهم وآراءهم ، وكانت هذه الكتب وثائق هامة تصور الحياة فى تلك الأزمان .

ومن أبرز هذه الرحلات رحلة ابن بطوطة وهى تحتل مكانا مرموقا بين الرحلات العربية ، وكثيراً مايتردد اسم « ابن بطوطة » على ألسنة المتعلمين غير أن القليلين منهم يحيطون بمضمون هذه الرحلة ، والحقيقة أن مناهج التعليم فى المدارس والجامعات لاتولى أدب الرحلات اهتماما كبيراً .

وترجع أهمية رحلة ابن بطوطة إلى عوامل متعددة :

أولها : طول الفترة التى استغرقتها الرحلة فقد بدأ ابن بطوطة رحلته سنة ٧٢٥ وانتهت الرحلة سنة ٧٥٤هـ ، أى أنها استغرقت تسعة وعشرين عاما .

ثانيها : تفتح عقلية ابن بطوطة وشخصيته الواعية ، فقد كان يقظ الحس نافذ البصيرة يهتم بوصف مايراه وتسجيل مايسمعه ، وكانت نظرته شاملة تحيط بجميع نواحى الحياة وترسم صورة واضحة لكثير من بلدان العالم العربى والإسلامى .

ثالثها : صدق ابن بطوطة فقد كان رجلا متدينا ، وكان العامل الديني أحد الأهداف التي دفعته إلى القيام بهذه الرحلة ، وقد يبنى حديثه أحيانا على السماع ولا عيب في ذلك فأدب الرحلات يبنى على المشاهدة وعلى السماع ، وقد توحى له مشاعره الدينية بأشياء لا نستريح إلى تصديقها كما نرى في حديثه عن الكرامات ، وسنناقش ذلك في أحاديثنا القادمة إن شاء الله .

وقد حقق رحلة ابن بطوطة د. على المنتصر الكتاني ، وطبعت طبعة أنيقة في جزأين ، وأورد المحقق تعليقات ابن جزى التي أضافها من عنده في آخر الرحلة ، كما أن د. حسين مؤنس أهتم بتحقيق الأحداث التاريخية والمعالم الجغرافية(١) .

ونهدف من دراستنا هذه إلى إبراز معالم الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في القرن الثامن الهجرى وهو القرن الذى عاش فيه ابن بطوطة ، كما أننا سندرس الأسلوب الذى كتبت به الرحلة ونتبين سماته ، ولن تتحول هذه الدراسة إلى دراسة تاريخية وجغرافية ، ولن نهتم بتسجيل المعارك ونتائجها وما ماثل ذلك ، وسنركز اهتمامنا على توضيح معالم الحياة كما ترسمها هذه الرحلة ، كما سنهتم بدراسة الأسلوب .

وسأعقب هذه المقدمة بتمهيد أشير فيه إلى أبرز الرحلات التي سبقت رحلة ابن بطوطة ، وسأجعل هذه الدراسة ثلاثة أبواب أتحدث في الباب الأول عن حياة ابن بطوطة وعن أبرز صفاته وعن آرائه ومعتقداته وعن خطوات الرحلة والمصاعب التي واجهها وعن مدى صدقه فيما أورده ، وسأخصص الباب الثاني للحديث عن الحياة في القرن الثامن الهجرى ، وسأجعل هذا الباب ثلاثة فصول ، أتحدث في الفصل الأول عن الحياة السياسية في العالم العربي والإسلامي ، وأتحدث في الفصل الثاني عن الحياة الاجتماعية ، وأتحدث

---

(١) ابن بطوطة ورحلاته . د/ حسين مؤنس . دار المعارف .

فى الفصل الثالث عن الحياة الدينية ، أما الباب الثالث فسأخصصه للحديث عن سمات الأسلوب وأوضح نصيب ابن بطوطة من هذا الأسلوب ، ونصيب ابن جزى وما أضافه من عنـــده أو اقتبسه من ابن جبير أو من الشعراء السابقين ، ثم أعقب بخاتمة أبرز فيها أهم النقاط التى أوضحها البحث .

وآمل أن يسهم هذا البحث فى إبراز صفحات من الماضى العربى والإسلامى ، والله أسأل التوفيق والسداد ؟

د . أحمد أمين مصطفى

تمهيد

الرحلات قبل ابن بطوطة

عاش ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى وكتب رحلته الشهيرة التى نحن بصدد الحديث عنها، وقد سبق ابن بطوطة كثير من الرحالة ودونوا رحلاتهم.

ونحب أن نقول: إن العرب نشطوا منذ مجىء الإسلام فقد خرجوا إلى العراق والشام ثم إلى مصر ثم إلى بلاد عديدة فى أفريقية وآسيا بل وإلى أوربا حيث فتحوا الأندلس وصبغوها بالصبغة العربية الإسلامية.

كما أن الحج كان باعثا مهما على الرحلة حيث رحل المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها إلى الأرضى المقدسة.

ثم جاءت الرحلات فى طلب العلم وكان بعض الطلاب يقيمون فى الأراضى المقدسة أعواما عديدة، ونشط جامعو الحديث ورحلوا إلى عديد من البلاد، ومع مرور الزمن والتقدم العلمى والحضارى دون بعض الرحالة رحلاتهم وظهر أدب الرحلات.

والذى يهمنا هنا أدب الرحلات وماوسمه الرحالة من صور واضحة للعالم العربى والإسلامى، ونحن لانهتم هنا بالدراسة الجغرافية الدقيقة لهذه الرحلات، ولانهتم بالدراسة التاريخية الصرفة، وقد كتب د. عبد الرحمن حميدة كتابه (أعلام الجغرافيين العرب)(١) تحدث فيه عن الرحالة العرب

---

(١) أعلام الجغرافيين العرب. د/ عبد الرحمن حميدة، دار الفكر.

ويقول : « وإبتداء من القرن الرابع الهجرى تعددت هذه الأسفار الاستكشافية »(١) .

وسنقصر الحديث هنا على ثلاثة من الرحالة الذين رحلوا وكتبوا تسجيلا لرحلاتهم وقد اخترنا هؤلاء الثلاثة لوجود علاقة تربط بينهم وبين ابن بطوطة بشكل ما ، أو لنوازن موازنة موجزة نحتاج إليها للكشف عن جانب من جوانب شخصية ابن بطوطة .

أما أول هؤلاء الرحالة فهو الإدريسى أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودى الشهير بالإدريسى ولد سنة ٤٩٤ ، وتوفى سنة ٥٦٠ وقد قضى معظم حياته مرتحلا ، ووصف رحلاته وصفا دقيقا ، ويشبه ابن بطوطة الإدريسى فى أن كلا منهما خرج من بلده وهو فى أول الشباب ، فالإدريسى خرج مرتحلا وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ثم عاد إلى مسقط رأسه (سبتة) بعد خمسين عاما وإن لم يقضها جميعها فى الترحال ، وابن بطوطة خرج للرحلة وقد تجاوز العشرين بقليل واستغرقت رحلته تسعة وعشرين عاما ، ثم إن كلا الرجلين زار مناطق مشتركة كالسودان والنيجر والأندلس . وكلا الرجلين دقيق صادق فى وصفه .

أما الشخصية الثانية فهو ابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ولد سنة ٥٤٠ هـ ، وتوفى سنة ٦١٤ ، وكان مولده فى بلنسية بالأندلس وكانت رحلته كبيرة الشبه برحلة ابن بطوطة فقد خرج قاصدا الأراضى الحجازية سنة ٥٨٠ هـ ، ووصل ميناء الإسكندرية ثم القاهرة ثم صعيد مصر إلى البحر الأحمر ليستقل سفينة من ميناء عيذاب إلى جدة ، وهكذا سلك ابن بطوطة فى رحلته ، ثم إنه زار كثيرا من المدن التى زارها ابن بطوطة من بعده ، فزار مكة والمدينة وبغداد ودمشق ثم عاد إلى القاهرة والاسكندرية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٣ .

وامتاز ابن جبير بأنه بدأ تقييد رحلته منذ اليوم التالى لركوبه البحر من سبتة ، وهو يحدد التواريخ تحديدا دقيقا ، وهو يمتاز فى هذا على ابن بطوطة الذى قيل إنه لم يسجل رحلته إلا بعد عودته إلى المغرب ، وقيل إنه سجلها بإيجاز ثم أملاها بعد انتهاء رحلته ، ولذلك نجد قليلا من الأخطاء فى تسجيله للأحداث ، وسنناقش كل ذلك عندما نتحدث عن رحلة ابن بطوطة .

ويصف ابن جبير المدن ويصف الأخطار والمصاعب التى عاناها ويقدم عن السكان معلومات مفيدة وهو فى هذا شبيه بما فعله ابن بطوطة ، غير أن أسلوب ابن جبير أجمل وأسلس وأكثر تأنقا وأكثر اهتماما بالسجع .

ويبدو أن ابن جزى مدون رحلة ابن بطوطة كان معجبا بأسلوب ابن جبير وبدقة وصفه فحذف صفحات من وصف ابن بطوطة ووضع بدلا منها صفحات من وصف ابن جبير ، وهذا من أسباب اهتمامنا بالحديث عن ابن جبير ومن حسن الحظ أن ابن جزى نص على هذه الصفحات التى أضافها كأن يقول . « ولا أبدع مما قاله أبو الحسن ابن جبير رحمه الله قال »(١):

وقد سمى ابن جبير رحلته : (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) ثم اشتهر الكتاب باسم (رحلة ابن جبير) . وسمى ابن بطوطة رحلته : (تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

وننقل هنا فقرة تصور لنا دقة التأريخ عند ابن جبير واهتمامه بالوصف واهتمامه بالأسلوب وذلك فى حديثه عن أهوال بحر فرعون حيث يقول : « وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور وهو الثامن عشر من يوليو ركبنا الجلبة(٢) للعبور إلى جدة فأقمنا يومنا ذلك بالمرسى لركود

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ١٠٢ مؤسسة الرسالة بيروت.

(٢) الجلبة مركب ، والقاموس المحيط يقول . الجلب الرجل بما فيه والجلبان قراب الغمد ، فهناك صلة بين المركب والرجل والجراب فالثلاثة ظروف وأوعية .

الريح ومغيب النواتية ، فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء أقلعنا على بركة الله - عز وجل - وحسن عونه المأمول ، فكانت مدة المقام بعيذاب - حاشا يوم الاثنين المذكور - ثلاثة وعشرين يوما محتسبة عند الله - عز وجل - لشظف العيش وسوء الحال واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة ، وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه ، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله :

« ماء زعاق وجو كله لهب »(١)

ومن حديثه عن العمرة الرجبية قوله : « عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الأربعاء وهى العشية التى ارتقب فيها الهلال قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة ، فأخذوا فى الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج فى أباطح مكة وشعابها ، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين وأشعرت بغير هدى بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره ، وربما فاضت الأستار التى على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض »(٢).

أما الشخصية الثالثة التى نتحدث عنها هنا فهو العبدرى محمد بن محمد بن على العبدرى نسبة إلى عبد الدار بن قصى القرشى ، وقد عاش فى القرنين السابع والثامن أى إنه عاش فترة من حياته فى الفترة التى عاش فيها ابن بطوطة .

وإنما نقصد من وراء الحديث عنه إلى الموازنة بينه وبين ابن بطوطة فى موقفهما من الناس ليتبين لنا طيب سريرة ابن بطوطة وحسن ظنه بالناس فهو دائم المدح لهم يكشف عن الجوانب الكريمة فيهم ويشكر لهم حسن صنيعهم وربما بالغ فى إحسانهم إليه .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٤ دار ومكتبة الهلال بيروت.

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٢٨ .

أما العبدري فكان سيء الظن بالناس مولعا بذكر مساوئهم والطعن عليهم والكشف عن بخلهم وإساءتهم إلى الغريب والضيف حتى حجاج بيت الله الحرام، وهذا يكشف عن طبيعة غير مستقيمة تبحث عن العيوب ولا تشكر المحسنين.

وقد ولد العبدري وعاش فى المغرب ثم خرج من بلده ليؤدى فريضة الحج سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، وكان يخاف ركوب البحر فسافر عن طريق البر فى الذهاب وفى الإياب، ومر بمصر، وبعد الحج زار فلسطين والإسكندرية ثم عاد إلى وطنه المغرب؛ وكتب رحلته المسماة بالرحلة المغربية.

ويقدم العبدري وصفا دقيقا للمواقع والمواضع الأثرية وأخلاق السكان ولكنه مولع بذكر العيوب كما أسلفنا، ومن ذلك قوله فى حديثه عن أهل الإسكندرية: ـ

« ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح عن قلة دينهم أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطريق والفجاج، ويبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش الرجال والنساء »(١).

ويقول عن حاكم تلمسان: « ثم وصلنا إلى مدينة تلمسان فوجدناها بلدة حلت بها زمانة الزمان، وأحلت بها حوادث الحدثان، فلم يبق بها علالة، ولا تبصر فى أرجائها للظمآن بلالة، وقد شاهدت جمعا من الحجاج ينيفون على الألف وردوها فوقفوا إلى ملكها فأعطاهم دينارا واحدا »(٢) ولا أظن إلا أنه يبالغ فى ذلك، وفرق كبير بين موقفه هذا وموقف ابن بطوطة كما أسلفنا وكما سنرى فى حديثنا القادم.

(١) الرحلة المغربية ص ٤٩٩ محمد بن على العبدري.
(٢) المرجع نفسه ص ٥٠٠.

الباب الأول

حيـــاة ابن بطوطـــة

نسبه وثقافته

حقق د. على المنتصر الكتانى رحلة ابن بطوطة، وكتب مقدمة موجزة ترجم فيها لابن بطوطة. وذكرت أنه لم تأت ترجمة لابن بطوطة فى كتب معاصريه إلا ما كان فى كتاب (الدرر الكامنة) للحافظ العسقلانى، وما جاء فى مقدمة ابن خلدون.

وقد رجعت إلى ما كتبه كل من ابن خلدون والحافظ العسقلانى فوجدت أن ما كتبه كل منهما لا يتجاوز صفحة واحدة مع أن الكاتبين الكبيرين كانا معاصرين لابن بطوطة، فقد ولد ابن بطوطة سنة ٧٠٣ هـ، وولد ابن خلدون سنة ٧٣٢ هـ، وولد الحافظ العسقلانى سنة ٧٧٣ هـ.

وربما كان السبب فى ذلك أن ابن بطوطة لم يكن أديبا يلفت الأنظار فليس له أى نتاج أدبى غير هذه الرحلة، ولم يكن صاحب أسلوب بديع يحتذى بدليل أن ابن جزى سمع منه ودون الرحلة وتصرف فى الأسلوب وغير صفحات من مقال ابن بطوطة واستبدل بها صفحات من رحلة ابن جبير كما سنبين عند حديثنا عن أسلوب الرحلة، ولذلك اهتم الناس بالحديث عن الرحلة وما حوته من أخبار، ولم يهتموا بالحديث عن حياته وأدبه، ثم إنه غاب فى الرحلة تسعة وعشرين عاما وعاد وقد تجاوز الخمسين، ولم يتول مناصب مهمة تجعله محط الأنظار وتبعث المؤرخين على الحديث عنه.

« هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتى الطنجى أبو عبد الله ابن بطوطة »(١) وكان مولده فى مدينة طنجة بشمال المغرب، ويقول ابن جزى مدون الرحلة: « أخبرنى أبو عبد الله أن

(١) الدرر الكامنة ٤/١٠٠، أحمد بن على العسقلانى، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

مولده بطنجة يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنـــة ثلاث وسبعمائة »(١) وهو يوافق عام ١٣٠٤ م . وهو من قبيلة لواتة البربرية ولذلك ورد فى نسبه (اللواتى الطنجى) .

درس ابن بطوطة بطنجة ، وذكر محقق الرحلة فى مقدمته أنه كان يعد نفسه لتولى القضاء مثل كثير من أفراد عائلته ، ويؤيد ذلك قوله فى حديثه عن نفسه بعد وصوله إلى تونس : « وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخة ويعرف بأبى يعقوب السوسى فقد مونى قاضيا بينهم »(٢) .

وهذا دليل علمه بالفقه ، ثم تولى القضاء فى جزائر ذيبة المهل(٣) « وفى دهلى ولاه السلطان القضاء مع أنه مالكى المذهب والناس على مذهب أبى حنيفة ، وعين له شخصين ينوبان عنه ويشاورانه »(٤) ثم إنه واظب على دراسة العلوم الدينية وأجازه أساتذته، وتولى القضاء فى بعض مدن المغرب بعد أن عاد إليها .

خروجه للرحلة

ولما بلغ الثانية والعشرين تاقت نفسه إلى الرحلة ، ويقول ابن خلدون : « كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ ، وانتهاؤها سنة ٧٥٤ هـ»(٥) ، وحدد الحافظ العسقلانى خروجه للرحلة بأنه خرج فى رجب سنة ٧٢٥(٦) وبهذا تكون الرحلة استغرقت تسعا وعشرين سنة .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٨٠٣ مؤسسة الرسالة بيروت .
(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٣٣ .
(٣) المرجع نفسه ص ٦٦٩ .
(٤) المرجع نفسه ص ٥٨٥ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٢ دار نهضة مصر ط ٣ .
(٦) الدرر الكامنة ٤/١٠٠ .

وإذا رجعنا إلى الرحلة التى أملاها ابن بطوطة نراه يتحدث فى «مطلعها عن نفسه وعن تاريخ خروجه للرحلة وعن بعض الظروف التى أحاطت به فى ذلك الوقت ويقول : «وكان خروجى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمرا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ، ولقيت لما لقيا من الفراق نصيبا ، وسنى يومئـــذ ثنتان وعشرون سنة»(١) .

والحقيقة أن هذه الرحلة تعد سيرة ذاتية لابن بطوطه تصور حياته على مدى تسعة وعشرين عاما هى الفترة التى استغرقتها رحلته الطويلة وكان خروجه للرحلة فى عهد أبى سعيد عثمان أحد ملوك بنى مرين .

الهدف من الرحلة

وهنا نتحدث عن الهدف من الرحلة أو عن الباعث له على السفر ومفارقة الأهل والوطن ، ونحدد هذه الأهداف فيما يلى :

١ — «حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام»(٢) كما ينص هو على ذلك ، وكان هذا هو الهدف الأول الذى خرج من أجله وكان ابن بطوطة يحمل بين جوانحه شعورا دينيا جارفا عبر عنه فى مطلع الرحلة حيث يقول فى الصفحة نفسها: «منفردا عن رفيق آنس بصحبته لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم»(٣) .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٠ (٢) رحلة ابن بطوطة ص ٣٠ .

(٣) الصفحة نفسها والحيازم جمع حيزوم وهو الصدر .

وهذا يصور مدى شوقه إلى زيارة تلك الأماكن حتى إنه لم يبحث عن رفيق يأنس بصحبته، ولم يأبه بألم الفراق حيث فارق وطنه وفارق والديه اللذين تألما لفراقه كما تألم لفراقهما ، يقول : « وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقيا من الفراق نصيبا »(١) .

٢ — زيارة أولياء الله والتبرك بهم ، وكان ابن بطوطة - كما سنرى - يؤمن بالأولياء والكرامات كما يؤمن عامة الناس ، وكان يصدق أن هؤلاء الأولياء يخبرون بالمغيبات ويأتون بأفعال خارقة لنواميس الكون وحديثه ملىء بكثير من هذه المواقف .

ومن حديثه عن إخبار هؤلاء بالمغيبات قوله : « ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثا ، دخلت عليه يوما فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد ، فقلت له : نعم ، إنى أحب ذلك ، ولم يكن حينئذ بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : لابد لك - إن شاء الله - من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام ، فعجبت من قوله ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه »(٢) . ويحكى تفاصيل لقائه بهؤلاء الثلاثة ولسنا نؤمن بهذه الحكايات ولكننا نورد ما حكاه ابن بطوطة .

٣ — زيارة العلماء المشهورين والنهل من علمهم ، ونراه يتحدث عن هؤلاء العلماء فى كل بلد زارها ، ومن ذلك قوله : « وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء منهم قاضى الجماعة أبو عبد الله محمد ابن قاضى الجماعة أبى العباس أحمد ، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن على بن عبد الرفيع

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٣٠ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٤٠ .

ومنهم الفقيه عمر بن علي بن قداح الهواري ، ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاته إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل »(١) .

٤ — إشباع ميوله من حب الترحال وحب الاستطلاع فلم يكن ليقضى نصف حياته فى الترحال لولم يكن حب الترحال يجرى فى دمائه ، وقد لاقى فى هذه الرحلات مخاطر مهولة وتعرض للموت أكثر من مرة ، ولم يثنه كل ذلك عن مواصلة التنقل والترحال ، ولانظن أن ابن بطوطة خرج من بلده قاصدا أداء فريضة الحج فقط ثم اندفع فى رحلة استغرقت تسعة وعشرين عاما.

صفاته وملامح شخصيته

أبرز صفات ابن بطوطة قوة المشاعر الدينية ، وقد ظهر تدينه فى حديثه عن الرحلة من أولها إلى آخرها ، فقد كان الباعث الأول له على السفر حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، يقول فى مطلع حديثه :

« كان خروجى من طنجة مسقط رأسى معتمرا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام »(٢) .

ولا يذكر ابن بطوطة رسول الله إلا ويقرن ذكره بالصلاة عليه والتسليم ، وكثيرا ما يقول : « وسلم تسليما » ويبدو هذا الشعور الدينى العميق فى أحاديثه عن المسجد الحرام والطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة وما ماثل ذلك ، ويقول فى حديثه عن الرحلة وهو متوجه إلى مكة : « ثم أدلجنا من هذا الوادى المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها ومآلها »(٣) .

(١) الرحلة ص ٣٣ (٢) الرحلة ص ٣٠ (٣) الرحلة ص ١٤٩ .

وتبدو هذه المشاعر الدينية فى أحاديثه عن الصحابة فهو يثنى عليهم جميعا ولا يزج بنفسه فى الخلافات التى ثارت حول بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا يذكر عثمان بن عفان إلا ويقول: « رضى الله عنه » ، كما فى قوله: « ثم رحلنا إلى عسفان وهى فى بسيط من الأرض بين جبال بها آبار ماء معين تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه »(١) ويذكر مآثره فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وهو يحب عليا رضى الله عنه حبا معتدلا ولكنه يصدق كل ما يقال عن الكرامات التى يرددها الشيعة ، وفى حديثه عن مدينة النجف وعن الروضة التى يقولون إن عليا مدفون بها يقول : « وهذه الروضة ظهرت لها كرامات لأن بها قبر على رضى الله عنه ، فمنها أن فى ليلة السابع والعشرين من رجب ، وتسمى عندهم (ليلة المحيا) يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم ، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك ، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس ، والناس ينتظرون قيامهم وهو مابين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء وهم يقولون : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله، على ولى الله)وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة »(٢) .

وكان ابن بطوطة مثقفا ثقافة دينية ودرس فى المغرب قبل خروجه إلى الرحلة ، ثم درس على مشهورى العلماء فى البلاد التى زارها وأجازه كثير من العلماء ، ومعنى ذلك أنه وصل إلى درجة يحق له فيها أن يلقى دروسا على الطلبة وأن يتولى القضاء ، ومن قوله : « سمعت بجامع بنى أمية جميع صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى رضى الله عنه على

---

(١) الرحلة ص ١٤٩ (٢) الرحلة ص ١٩٩

الشيخ المعمر شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن ابن على ابن بيان الدين المعروف بابن الشحنة الحجار »(١) .

ثم يتحدث عن العلماء الذين أجازوه ومن قوله : « وممن أجازنى من أهل دمشق الشيخ أبو العباس الحجار المذكور ، سبق إلى ذلك وتلفظ لى به »(٢) ويعدد أسماء العلماء الذين أجازوه . وهم كثيرون .

وقد تولى ابن بطوطة القضاء بتونس، وتولاه فى بعض البلاد التى زارها فى رحلته ، ويقول : إنه تولى القضاء فى دهـلى(٣) وتولاه فى جزائر ذيبة المهل أيضا(٤) ، وذكر الحافظ العسقلانى أن ابن بطوطة مات وهو فى منصب القضاء(٥) .

وتبدو فى أحاديثه قوة المشاعر الدينية ، وكان يلجأ إلى الله إذا حزبه أمر وفى حديثه عن غضب السلطان عليه يقول : « فألهمنى الله تعالى إلى تلاوة قوله : (حسبنا الله ونعم الوكيل) فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة ، وواصلت إلى خمسة أيام فى كل يوم منها أختم القرآن »(٦) .

وكثيرا ما كان يلجأ إلى فتح المصحف الشريف ويقرأ أول آية تظهر له ويتفاءل بها ، ومن قوله فى ذلك : « فخطر لى السفر إلى الجزائر ، وتذكرت العداوة التى بينى وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لى : (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا) فاستخرت الله وسافرت »(٧) .

وكان إيمان ابن بطوطة إيمان العوام يصدق كل ما يقال عن الأولياء وكراماتهم فهو يؤمن بأنهم يخبرون بالمغيبات ، ويؤمن بأنهم يأتون بخوارق

---

(١) الرحلة ص ١٢٢ بتصرف
(٢) الرحلة ص ١٢٣
(٣) الرحلة ص ٥٨٥ بتصرف
(٤) الرحلة ص ٦٦٩
(٥) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٠٠
(٦) الرحلة ص ٣ ٦
(٧) الرحلة ص ٦٩٦

الأعمال ، وهو يتبرك بهم ويود البقاء إلى جوارهم ، وقد أورد حكاية تقول : إن أحد الأولياء رأى النبي فى المنام ودعاه إلى زيارته فسافر من الإسكندرية وزار القبر الشريف ووضع رأسه على ركبته فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيها تمر فأكل هو وأصحابه »(١) .

وكان يعتقد أن بعض الأولياء ينفقون من الكون أى إنهم ينفقون بدون أن يكتسبوا وإنما يأتيهم الرزق من السماء ؛ ويقول عن أحدهم : « وتأتيه الوفود وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما طعاما أو فاكهة أو حلوى فيأتى لكل واحد بما نواه »(٢) ، ويتحدث عن ولى أتاه رجل يريد أن يزوج بنته فطلب منه الولى أن يأتيه بآنية نحاس ففعل وأوقد الولى النار وصب الإكسير على النحاس فعاد كله ذهبا »(٣) وحكاية الإكسير حكاية قديمة لا أساس لها من الصحة .

ولإيمان ابن بطوطة بالأولياء والكرامات آمن بالتصوف وأكبر المتصوفين ، ولم يشر أحد إلى أنه كان من المتصوفة قبل خروجه للرحلة ولكن مشاعره الدينية القوية الكامنة فى نفسه جعلته يعجب بالعابدين وبالمتصوفين ، وهو يعبر عن هذا الإعجاب فى أحاديثه عن الفقراء المنقطعين للعبادة ويود لو أنه أقام معهم بقية عمره ، يقول : « وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ إلى صلاة المغرب ، وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنفل فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة ، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا » ويعودون فى أول الثلث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق فينصرفون بعد صلاتها ، ومنهم من يقيم إلى أن

---

(١) الرحلة ص ٤٠ .
(٢) الرحلة ص ٤٢ .
(٣) الرحلة ص ٨٣ .

يصلى صلاة الضحى بالمسجد ، وهذا دأبهم أبدا ، ولقد أردت الإقامة معهم باقى عمرى ولم أوفق لذلك »(١) .

ويدل حديث ابن بطوطة على أنه انخرط فى جماعة المتصوفة وصار منهم وقد عبر أكثر من مرة عن أنه لبس خرقة التصوف ، يقول : « ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبدالرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف »(٢) .

ويقول : « ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى ، وألبسنى الخرقة ، ولم يزل الثوب الذى ألبسنيه معى إلى أن سلبنى كفار الهنود فى البحر »(٣) . ويردد المصطلحات المتعارفة لدى الصوفية مثل قوله : « ووضع رأسه على ركبتيه ، وذلك يسمى عند المتصوفة التزييق »(٤) .

ويردد ابن بطوطة الحكايات التى يرددها المتصوفة وهى حكايات مكررة ومنها قوله وهو يتحدث عن أحد زعمائهم : « شاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ فقرأ القارىء بين يديه : (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا »(٥) .

بل إنه يردد حكاية خيالية أبطالها من الإنس والطير تقول : « يحكى أن الشيخ الولى أحمد الرفاعى رضى الله عنه كانت بين ولى الله تعالى أبى مدين وبينه مؤاخاة ومراسلة ، وكانت للشيخ أحمد نخيلات جذها على عادته وترك

(١) الرحلة ص ٢٧١ .
(٢) الرحلة ص ٧٨ .
(٣) الرحلة ص ٤٥٩ .
(٤) الرحلة ص ٤٠ .
(٥) الرحلة ص ٤٨٤ .

عذقا منها وقال : هذا برسم أخي شعيب ، فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ، ومع الشيخ أحمد خديمه أرسلان ، وحكى الشيخ حكاية العذق ، فقال له أرسلان : عن أمرك ياسيدي آتيه به ، فأذن له فذهب من حينه وأتاه ووضعه بين أيديهما فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء »(١) .

وكان ابن بطوطة يتفاءل ويتشاءم ، وقد أسلفنا أنه كان يفتح المصحف ويقرأ أول آية ويتفاءل بها ، وعن تشاؤمه يحكي أن أحد الوزراء عرض عليه أن يزوجه ابنته إذا انقضت عدتها ، ويقول : « وأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها »(٢) .

وكان يؤمن بالتنجيم مع أن تعاليم الإسلام تنهى عن ذلك ، وكان المنجمون يدخلون قصور الحكام ويعلنون نبوءاتهم ، وكانوا يجدون آذانا صاغية يقول ابن بطوطة متحدثا عن أحد القضاة : « فبعث إليه السلطان بالتقليد وأتاه البريد بذلك ، فاجتمع الفقهاء وسواهم إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه ، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بأن الناس لا يرضونه ، وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم : لا تفعلوا ذلك فإني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي أنه يحكم أربعين سنة ، فأضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه ، وكان أمره على ما ظهر للمنجم »(٣) .

وكان ابن بطوطة سخيا وكان كثير الإنفاق يستدين بلا حدود وينفق كما يشتهي ، وكان يعطي الفقراء ويعطي الأصدقاء ويهدي إلى الرؤساء . ومن

(١) الرحلة ص ١١٣ . (٢) الرحلة ص ٦٦٦ .
(٣) الرحلة ص ٣٩ .

قوله : « وكنت قد استدنت من التجار مالا أنفقته فى طريق وما صنعت به الهدية للسلطان وما أنفقته فى إقامتى »(١) ثم ذكر أن الدين كان خمسة وخمسين ألف دينار تحمله السلطان عنه(٢) .

ويقول فى موضع آخر : « وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ ، ووهبت ماعندى للفقراء والمساكين ، وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى فخرجت عن جميع ماعندى من قليل وكثير »(٣) .

ومع أن ابن بطوطة كان يعطى بسخاء فإنه كان يحب الحصول على عطاء السلاطين والكبراء ، ويحب الحياة الرغدة ، ووصل الأمر إلى أنه طلب العطاء من السلطان صراحة ، وفى ذلك يقول : « وأقمت شهرين لم يصل إلى فيهما شىء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان ، وقمت بين يديه وقلت له : « إنى سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئا ، فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟ . فأمر لى عند ذلك بدار أنزل بها وبنفقة تجرى على »(٤) .

وكان ابن بطوطة طاهر السريرة طيب القلب حسن الظن بالناس ، يمدح الناس ويشيد بشرف النساء ويحب الصالحين ويلازم المرضى حتى يمن الله عليهم بالشفاء ويشكر الله ويشكر للناس أياديهم ، ومن قوله : « فقال لى : بع دابتك وثقل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا ، فقلت هذا وأعارنى ماوعد به جزاه الله خيرا ، وكان ذلك أول ما ظهر لى من الألطاف الإلهية(٥) فهو يذكر فضل الله عليه وعطاء الناس له ، وتكررت هذه الظاهرة فى مواقف عديدة .

(١) الرحلة ص ٥٨٧ .
(٢) الرحلة ص ٥٨٩ .
(٣) الرحلة ص ٩٠٤
(٤) الرحلة ص ٧٨٢
(٥) الرحلة ص ٣٢

ويقول : «وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساءها ، ولهن الصدقات والإيثار ، ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن لسماع الواعظ فى كل يوم إثنين وخميس وجمعه بالجامع الأعظم »(١) .

وكان رقيق الجوانح شديد الحساسية سريع التأثر سابق العبرة يقول : « فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتى بهم ، فوجدت من ذلك فى النفس مالم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج فأقبل على بالسلام والإيناس ، ومازال يؤنسنى بحديثه حتى دخلت المدينة »(٢) .

وكان ابن بطوطة يحب الأسفار، وكان شديدالتطلع لاكتشاف المجهول ، لايدع فرصة تمر إلا انتهزها ، ولم يكن يركن إلى الراحة إذاوجدفرصة للسفر ، يقول بعد وصوله إلى بغداد فى طريقه إلى الأراضى المقدسة : « وكان قد بقى لأوان سفر الركب أزيد من شهرين ، فظهر لى أن أسافر إلى الموصل وأديار بكر لأشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد فى حين سفر الركب فأتوجه إلى الحجاز الشريف »(٣) وراح يحكى عن الأماكن التى زارها .

وسمع أن شخصا حفر غارا بالجبل فسافر لرؤيته، يقول : « وكان سبب ماهم به السلطان من عقابى أنى ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين بالغار الذى احتفره خارج دهلى ، وكان قصدى رؤية ذلك الغار »(٤) .

وكان ابن بطوطة فارسا يقاتل ، وقد حكى مواقف عديدة تدل على شجاعته ، ومن قوله : « ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا فخرج علينا فى تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان ، وكان أصحابى ذوى نجدة وعتو فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا

---

(١) الرحلة ص ٢٢٣ (٢) الرحلة ص ٣٢
(٣) الرحلة ص ٢٥٣ (٤) الرحلة ص ٦٠٣

من رجالهم نحو أثنى عشر رجلا ، وأصابتنى نشابة وأصابت فرسى نشابة ثانية ومن الله بالسلامة منها »(١) .

وفى موقف آخر يحكى أنه خرج للجهاد فى سبيل الله وأنه حضر المعركة ورمى بنفسه فى الماء مع الجنود ، وفى ذلك يقول : (فلما تجهزت المراكب ظهر لى أن أتوجه فيها إلى الجهاد ففتحت المصحف أنظر فيه فكان فى أول الصفح : « يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره » فاستبشرت بذلك ، وأتى السلطان إلى صلاة العصر فأخبرته فأعجبه ذلك ، فركب مركبا منها وأنا معه ، وزحفت المراكب ورموا بالمجانيق ، ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبأيديهم الترسة والسيوف ، ورميت بنفسى فى الماء فى جملة الناس وأذن الله فى فتحها)(٢) .

وابن بطوطة يقدس الحاكم ويكيل له المدح جزافا ولايدع صفة حسنة إلا أضفاها عليه ، ويضفى القدسية عليه وعلى آبائه السالفين ويكفى أن نقرأ ما يقوله فى مطلع الرحلة حيث يقول : « وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده وصولة الإسناد بالإسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله ، الإمام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه ، وأطفأت نار الكفر جداول صارمه ، وكرمت فى إخلاص الجهاد مذاهبه ، الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق ، جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهتانه ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين »(٣) .

وكان ابن بطوطة شاعرا ولكن شعره لم يكن على مستوى عال ، لامن

---

(١) الرحلة ص ٤٦٨ (٢) الرحلة ص ٦٥١

(٣) الرحلة ص ٣٠

حيث الصياغة ولا من حيث المعنى ، فمعانيه مطروقة لاجديد فيها وألفاظه مألوفة لاتحمل شحنات عاطفية دافقة ، ثم إنه كان مقلا ، وقد أورد سبعة أبيات فى مدح سلطان دهلى ، وقال : إنه مدح السلطان بقصيدة طويلة أولها ، وأورد هذه الأبيات السبعة ، ولا نعرف بقية القصيدة ، ثم إنه ذكر أنه مدح السلطان بعد أن إستدان خمسة وخمسين ألف دينار ، فهى من شعر المناسبات ، وفيها يطلب المال صراحة ويطلب تعجيل العطاء ، وقد حقق السلطان رجاءه ، ونورد هنا الأبيات السبعة لنعرف قيمتها الفنية . يقول :

إليك أمير المؤمنين المبجلا أتينا نجد السير نحوك فى الفلا

فجئت محلا من علائك زائراً ومغناك كهف للزيارة أهلا

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة لكنت لأعلاها إماما مؤهلا

فأنت الإمام الماجد الأوحد الذى سجاياه حتما أن يقول ويفعلا

ولى حاجة من فيض جودك أرتجى تضاها وقصدى عند مجدك سهلا

أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم فإن حياكم ذكره كان أجملا ؟

فعجل لمن وافى محلك زائراً قضى دينه إن الغريم تعجلا(١)

وواضح أن المعانى مطروقة ، والصفات التى وصف بها السلطان مطروقة لاتجديد فيها ، وقوله :

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة لكنت لأعلاها إماما مؤهلا

مأخوذ من قول أبى دلامة .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا ياآل عباس(٢)

(١) الرحلة ص ٥٨٧

(٢) البيت لأبى دلامة . الأغانى جـ ١ ص ٢٥١ الدار التونسية للنشر .

وقوله : أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم ؟

مأخوذ من قول الشاعر :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء

ولم يكن السلطان يعرف العربية ، وكأن هناك شخص يترجم له ، وكما هو المتوقع حقق السلطان رجاء الشاعر وقضى دينه .

وقد خرج ابن بطوطة من طنجة ولم يكن قد تزوج ، وعندما وصل إلى تونس تزوج أول زوجة ، وهذا وضع طبيعى لا غبار عليه ، ولكنا نراه بعد ذلك رجلا مزواجا يكثر من الزوجات ويجمع أربع زوجات فى عصمته إلى جانب الجوارى اللاتى يشتريهن أو ينالهن بالهبات ، ثم إننا نراه يكثر من الطلاق ويترك إحدى زوجاته حاملا ويسافر عنها ، أو يتركها بعد أن تنجب له ويترك الولد معها ولا يعرف مصير زوجته وولده .

وقد تزوج الزوجة الأولى ثم الثانية وهو بتونس ، يقول : « وكنت قد عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء(١) تونس فبنيت بها بطرابلس ، وتجاوزنا مسلاتة ومسراتة وقصور سرت ، ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها ، ووقع بينى وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته ، وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس(٢) وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم »(٣) .

وأثرى ابن بطوطة أثناء رحلته ثراء عظيما ، ومن قوله : « وكنت قد اشتريت فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا ركبته فى ذهابى إلى المسجد

---

(١) الأمين رئيس الحرفة .

(٢) الطلبة طلاب العلم الذين يتقاضون رواتب من الدولة .

(٣) الرحلة ص ٣٤ بتصرف .

وتكاثرت عندى الخيل بعد ذلك حتى انتهى إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ، ولم تزل حالى فى الزيادة حتى دخلت أرض الهند »(١) .

وهذا الثراء دفعه إلى طلب المتعة والإكثار من الزوجات والجوارى ، وفى حديثه بعد خروجه من بخارى يذكر أنه كان يملك عددا من الجوارى وقد ولدت إحداهن بنتا(٢) ، ويقول : إنه تزوج بالهند أخت أحد الولاة وإنها أنجبت له بنتا ولا يدرى ما فعل الله بهما ومن قوله : « وكانت صالحة تتهجد بالليل ولها أوراد من ذكر الله عز وجل ، وولدت منى بنتا ولا أدرى ما فعل الله فيهما »(٣) .

ويقول واصفا حياته فى جزائر ذيبة المهل : « ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن »(٤) ، ثم يقول : إنه تزوج بربيبة السلطان ويشيد بها فيقول : « ورفعت إلى بعد أيام فكانت من خيار النساء ، وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير »(٥) ثم يقول فى الصفحة نفسها : « وكنت قد تزوجت ربيبة بنت زوجة الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى » ، ويقول : « وتزوجت أيضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم ، ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وكانت الرابعة ربيبة الوزير عبد الله »(٦) ، ثم يقول : « ثم وصلت إلى جزيرة ملوك وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين »(٧) .

وكان يطلق زوجاته ويهمل أولاده ، ومن قوله : « وتعرفت بأن زوجتى التى تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا فخطر لى السفر إلى الجزائر فاستخرت الله

---

(١) الرحلة ص ٤٠٤ بتصرف . (٢) الرحلة ص ٤١١
(٣) الرحلة ص ٥٥٧ (٤) الرحلة ص ٦٥٥
(٥) الرحلة ص ٦٦٩ (٦) الرحلة ص ٦٧٠
(٧) الرحلة ص ٦٧٤

وسافرت وكانت سنة نحو عامين ، وأتى إلى بولدى فظهر لى أن إقامته معهم خير له فرددته إليهم »[١] وذكر أنه غاب عن إحدى زوجاته عشرين سنة كاملة ، يقول : « ثم سافرنا إلى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لى حاملا ، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولدا ذكرا ، فحين وصولى إلى دمشق لم يكن لى هم إلا السؤال عنه فقيل : مات منذ ثنتى عشرة سنة »[٢] .

وبلغ به حب المتعة والترف أنه صحب المغنين يغنون له فى الطريق ، يقول فى حديثه عن خروجه من دهلى : « فخرجت فى نحو ثلاثين من أصحابى واستصحبت معى أخوين من المغنين المحسنين يغنيان لى فى الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بجنود فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نوبة ، والأخوان نوبة »[٣] .

وهذا يدلنا على أن ابن بطوطة قد تحول عن البساطة إلى حب المتعة ، أما تنازله عن أمواله للفقراء فإنما هو نتيجة حالة روحانية اعترته عندما عايش الصوفية وامتزج بهم ، وكان ابن بطوطة قوى المشاعر الدينية مؤمنا بالأولياء والكرامات ، ولكنه كان يعود إلى حب التمتع حينما يفارق أولئك المتصوفين ، ونستطيع أن نقول : إن ابن بطوطة كان موزعا بين حب المتعة الروحية والمتعة المادية .

* * *

(١) الرحلة ص ٦٩٦ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٧٤٦ بتصرف .
(٣) الرحلة ص ٦٠٠ .

الثراء والمتاعب

حصل ابن بطوطة فى رحلته على أموال طائلة ، ونال مكانة عالية عند سلاطين البلاد التى زارها وعند وزرائها وكبرائها ، ولكنه لقى كثيراً من المتاعب وخرج عليه قطاع الطرق ونهبوا أمواله أكثر من مرة ، وأسره اللصوص وتعرض للقتل أكثر من مرة ، ولكنه كان فى كل مرة يلجأ إلى الله ويعمل الحيلة فينجو من الموت ، ولايلبث أن يعود إلى حياة الرحال والمغامرات فقد كان حب الرحلة وحب الاستطلاع يجريان فى دمه .

ومما يصور مبلغ ثرائه قوله بعد وصوله إلى خوارزم : « وتكاثرت عندى الخيل حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به »(١) ويقول بعد وصوله إلى السند : « واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك »(٢) ويقول بعد وصوله إلى دهلى : « وفى أثناء مقامى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما يكون عائده خمسة آلاف دينار فى السنة فعينها لى الوزير وأهل الديوان ، وكان قد وصل ذلك الوقت سبى من الكفار فبعث الوزير إلى عشر جوار منه ... وأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك »(٣) ويقول أيضا . « بعث إلى السلطان خيلا مسرجة وجوارى وغلمانا وثيابا ونفقة »(٤) .

ويبدو أن ابن بطوطة كان محببا إلى الناس ، وقد لقى ترحيبا وإكراما فى كل مكان حل به ، وكان ينزل فى الزوايا وفى المدارس وعند القضاة ضيفا مكرما . وكانت العطاءات تنهال عليه ، وفى حديثه عن مدينة واسط

---

(١) الرحلة ص ٤٠٤ — (٢) الرحلة ص ٤٥٠
(٣) الرحلة ص ٥٧٩ بتصرف — (٤) الرحلة ص ٦٠٤

يقول : « وبها مدرسة عظيمة حافلة عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطى ، وقد لقيته وأضافنى وزودنى تمرا ودراهم »(١) ، ويتكرر حديثه عن الضيافة والهبات .

أما المتاعب التى تعرض لها فى الطريق فتتراوح بين المرض والأسر ونهب أمواله وتعرضه للقتل وغضب السلطان عليه ، وقد بدأت المتاعب منذ وصوله إلى الجزائر ، ففى مدينة بجاية أصابته الحمى ، وفى مدينة بونة(٢) أصابته الحمى أيضا ، وعاودته الحمى فى مدينة دهلى ، وعاودته فى مدينة تستر ثم فى بلاد المعبر .

وفى خلال رحلته إلى الهند سلبه الكفار كل ما معه ، ويتحدث عما لقيه بعد خروجه من دهلى فيقول : « ثم خرجت إلى واد فى وسط شجراء ملتفة فى وسط طريق ، فبينما أنا فى ذلك خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسى فأحدقوا بى فألقيت بنفسى إلى الأرض واستأسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك ، فأخذونى وسلبونى جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ، ودخلوا بى إلى تلك الغابة ، وكان معهم مسلمان كلمانى بالفارسية وسألانى عن شأنى فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما أنى من جهة السلطان ، فقالا لى : لابد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ، ولكن هذا مقدمهم وأشار إلى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بى ثلاثة منهم أحدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث ، وفهمت منهم أنهم أمروا بقتلى ، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذونى وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه ، فقال لى : أتريد أن أسرحك ؟ فقلت : نعم ، فقال : اذهب ، فأخذت الجبة التى كانت على فأعطيته إياها ، وأعطانى منــيرة (يعنى منيلة أى زرقاء) بالية عنده ، وأرانى الطريق ، فذهبت ، وخفت أن يبدو لهم فيدركونى ،

---

(١) الرحلة ص ٢٠٥ بتصرف (٢) تسمى اليوم عنابة .

فدخلت غيضــة قصب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس »(١) .

وفى أثناء محاولته الذهاب إلى الصين ـ وكان فى بلاد المليبار ـ ركب البحر ووضع أمتعته وجواريه وعبيده فى ككم (مركب) وكان بجواره جنك (مركب) وعصفت الريح والأمواج بالجنك فغرق ، ويقول ابن بطوطة : ولما رأى أهل الككم ماحدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعى وغلمانى وجوارى ، وبقيت منفردا على الساحل ليس معى إلا فتى كنت أعتقته فلما رأى ماحــل بى ذهب عنى ، ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير والبساط الذى كنت أفترشه» (٢) .

وفى طريقه إلى بلاد البنغال خرج عليهم قطاع الطرق فى البحر وأخذوا كل ما عندهم ، يقول : «خرج علينا الكفار فى أثنى عشر مركبا حربية ، وقاتلونا قتالا شديداً وتغلبوا علينا ، وأخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها الصالحون والأولياء ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل ، وأخذوا ماكان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل »(٣) .

وفى أثناء عودته عرف أن والده توفى ، يقول : «ثم سافرنا إلى مدينة دمشق الشام فدخلت المسجد فوفق لى نور الدين السخاوى إمام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفنى ، فعرفته بنفسى وسألته عن الوالد فقال : مات منذ ثنتى عشرة سنة ، وأخبرنى أن فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية ، فسرت إليه لأسأله عن والدى وأهلى فسلمت عليه وانتسبت له فأخبرنى أن والدى توفى منذ خمس عشرة سنة ، وأن الوالدة بقيــد الحياة »(٤) .

---

(١) الرحلة ص ٦١٢ بتصرف
(٢) الرحلة ص ٦٤٧
(٣) الرحلة ص ٦٩٦
(٤) الرحلة ص ٧٤٦ بتصرف

وعندما عاد إلى مدينة تونس عرفه أن والدته توفيت ، ولم يكن قد بقى على لقائها إلا القليل حيث يتوجه من تونس إلى المغرب ، يقول ابن بطوطة : « ووصلت إلى مدينة تازى وبها تعرفت خبر موت والدتى بالوباء ، رحمها الله تعالى »(١) .

مسار الرحلة

ونحب هنا أن نورد بإيجاز أهم البلاد التى زارها ابن بطوطة فى رحلته حتى نتبين الطريق التى سلكها ونتصور المتاعب التى تحملها ، ولن نعدد كل مدينة زارها ولكننا سنذكر العواصم وأهم المدن التى رحل إليها .

خرج ابن بطوطة من طنجة ووصل إلى مدينة الجزائر ، ثم ذهب إلى تونس وقصد إلى مدينة الإسكندرية، ثم زار بعض مدن الوجه البحرى واتجه إلى القاهرة وبعدها إلى الصعيد ، ونحب أن نلفت النظر إلى أن أسماء بعض البلاد تغيرت ، وابن بطوطة يقول : « ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصاحب تاج الدين ابن حناء بدير الطين »(٢) ويقول د. حسين مؤنس : « ودير الطين غير اسمها اليوم إلى دار السلام »(٣) .

وسافر إلى أسيوط ثم إلى البحر الأحمر ، واتجه إلى ميناء عيذاب وهناك لاقى صعوبات اضطر معها إلى العودة إلى صعيد مصر ، وعاد إلى بلبيس والصالحية متوجها إلى غزة فالقدس فحلب فدمشق ، ومنها خرج الركب قاصدا المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول عليه السلام ، وبعد أن زار معالم المدينة المنورة اتجه إلى مكة المكرمة وأدى مناسك الحج ، ثم قصد إلى العراق وزار

(١) الرحلة ص ٧٥٧ (٢) الرحلة ص ٦٣

(٣) ابن بطوطة ورحلاته ص ٤٣ د/ حسين مؤنس .

مدينة النجف حيث زار قبر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقصد إلى البصرة ، ثم زار بعض المدن الفارسية مثـــل أصفهان وشيراز ، ثم سافر إلى العراق .

ومن الكوفة عاد إلى مكة حيث حج للمرة الثانية وأقام بمكة عدة سنين وكان يحج فى كل سنة ، ثم خرج إلى جدة وبعدها إلى اليمن ، ثم ركب البحر متوجها إلى السودان ، ثم ركب البحر إلى عمان فالبحرين ، ثم عاد إلى مكة سنة ثنتين وثلاثين حيث أدى مناسك الحج ، ثم سافر إلى جدة وركب البحر قاصدا عيذاب فوصل إليها بعد متاعب كثيرة ، وزار كثيرا من مدن الصعيد ، ثم سافر إلى القاهرة وأقام بها أياما ، ثم سافر عن طريق بلبيس إلى الشام حيث زار غزة وبيت المقدس وطرابلس واللاذقية .

ومن اللاذقية ركب البحر إلى تركيا وزار مدينة القسطنطينية ، ثم ذهب إلى آسيا الوسطى وزار خوارزم وسمرقند وهراة ونيسابور ، وخرج متجها إلى الهند وزار بلاد الأفغان ووادى السند واتجه إلى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند كما يطلق عليها ، وأقام بالهند مدة طويلة ونال فيها مكانة عالية ، ثم استدعاه السلطان وكلفه بأن يذهب رسولا عنه إلى ملك الصين سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فخرج ومر فى طريقه بدولة أباد ثم بلاد المليبار ، وخرج متجها إلى الصين فواجه متاعب شديدة ، وتوجه إلى جزائر ذيبة المهل وأقام بها حوالى سنة ، ثم سافر إلى جزيرة سيلان ثم ذهب إلى بلاد بنجالة (البنغال) ومنها إلى جاوة ، ثم توجه بحرا إلى بلاد الصين .

ثم بدأت رحلة العودة سنة ست وأربعين وسبعمائة فعاد إلى جاوة ومنها إلى ظفار فمسقط ، ثم إلى مدينة شيراز ، ثم إلى البصرة والكوفة فبغداد فدمشق وخرج منها إلى حمص وحلب وعاد إلى دمشق ، ثم زار بيت المقدس واتجه إلى غزة ، ومنها سافر برا إلى دمياط ومنها إلى الإسكندرية ثم القاهرة .

ولم يتوجه ابن بطوطة إلى المغرب موطنه الأصلى ، وإنما سافر من القاهرة إلى صعيد مصر ، إلى عيذاب ، وركب البحر إلى جدة ومنها إلى مكة فوصلها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين وسبعمائة كما يحدد ابن بطوطة ، وحج المرة السادسة ، وزار المدينة المنورة ، ثم خرج إلى بيت المقدس وعاد إلى القاهرة ثم ركب البحر متوجها إلى تونس وذلك فى صفر سنة خمسين وسبعمائة ، وسافر منها إلى برشلونة ، واتجه بعدها إلى مدينة فاس ببلاد المغرب موطنه الأصلى .

وفى المغرب قابل السلطان أبا عنان ، وزار قبر والدته ، وأصابه مرض لازمه ثلاثة أشهر ، وعندما أبل من مرضه عاد إلى مواصلة الرحلة فركب البحر إلى الأندلس ، ثم عاد إلى مدينة مراكش ، ثم سافر إلى الجنوب حيث زار مالى وما حولها ، وكان دخوله إلى مالى فى الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وتجول فى تلك البلاد ، وفى مدينة تكدا وصل رسول السلطان أبى عنان المرينى يأمره بالحضور إلى حضرة السلطان ، فسافر متوجها إلى بلاد المغرب ووصل إلى فاس حيث السلطان أبو عنان عام أربعة وخمسين وسبعمائة ، وقد رحب به السلطان وأمره بأن يملى رحلته على ابن جزى فأملاها ، وانتهى ابن جزى من تدوينها فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة .

بين التصديق والتكذيب

منذ أملى ابن بطوطة رحلته على ابن جزى اختلف الناس عليه بين مصدق ومكذب ، وقد نص معاصراه اللذان كتبا عنه على أن بعض الناس رموا ابن بطوطة بالكذب ، فأحد هذين المؤرخين وهو ابن خلدون يقول : « فتناجى الناس بتكذيبه ، ولقيت أيامئذ وزير السلطان

فارس بن وزدان البعيد الصيت ففاوضته فى هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس من تكذيبه ، فقال لى الوزير فارس : إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره »(١) .

ويقول الحافظ العسقلانى : « وقرأت بخط ابن مرزوق أن البلفيقى رماه بالكذب فبرأه ابن مرزوق »(٢) .

أما الأسباب التى دعت بعض الناس إلى تكذيبه فتتلخص فيما يأتى :

١ — ادعاؤه أنه زار بلاداً عديدة فى وقت لم يكن من الممكن قطع هذه المسافات الطويلة فى هذا الوقت القصير ، وارتبط بهذا أن ترتيبه للبلاد التى زارها لا يتفق أحيانا مع الخريطة الجغرافية .

٢ — المبالغة فى وصف بعض الملوك بالكرم ووفرة العطاء مثل ملك الهند مما يتنافى وواقع الحياة ، والمبالغة فى الحديث عن أعمال السحرة .

٣ — إثبات وقائع يبدو أنها من نسج الخيال ، ولكن ابن بطوطة يثبتها على أنها حقائق شاهدها بعينيه ، فهو يقول فى حديثه عن رحلته من الصين إلى جاوة « ولما كان فى اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تحملنا إلى صوبه ، فعجب البحرية وقالوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يعهـــد فى البحر جبل ، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا ، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا إلى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم فى زمام بخطى ، وسكنت الريح بعض سكون ، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء وظهر

---

(١) مقدمة ابن خلدون الجزء الأول المجلد الأول ص ٣٢٣ — دار نهضة مصر ط ٣ .

(٢) الدرر الكامنة ٤/١٠٠ .

الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ، ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا ، فقلت : ما شأنكم ؟ ، فقالوا : إلى الذى تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا أهلكنا ، وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال ، ثم إن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته »(١) .

٤ ــ حديثه عن الكرامات والأولياء الذين يخبرون بالغيب ، والذين ينفقون من الكون ، والذين يأتون ضيوفهم بكل مايشتهون فى غير موسمه من غير يعلموا عما يشتهون ، وهذه أشياء بعيدة عن التصديق .

وأحسب أن بعض هذه الاتهامات موضع مؤاخذة توجه إلى ابن بطوطة ، وبعضها الآخر يمكن الرد عليه ويمكن تبرئة ساحة ابن بطوطة منها ، وأقول مبدئيا : إن ابن بطوطة ليس معصوما من الكذب ، وحقا أنه كان قوى المشاعر الدينية وكان طيب السريرة ، ولكنه لم يكن على درجة من الورع تجعلنا نقطع بنفى الكذب عنه ، ولابد لنا عند إصدار الأحكام أن نكون موضوعين وأن نحكم على الرجل بناء على ما نقرؤه من كلامه بعد عرضه على العقل وعلى الحقائق العلمية المقررة .

ومسألة أخرى نحب أن نوضح رأينا فيها قبل أن نصدر حكمنا على ابن بطوطة وهذه المسألة هى : هل كتب ابن بطوطة مذكرات أثناء رحلته ؟ . أم أنه اعتمد على الذاكرة اعتمادا كليا وهو يملى رحلته على ابن جزى ؟ والذى نراه أن ابن بطوطة كتب مذكرات موجزة دون فيها بعض مشاهداته وبعض ماسمعه فى رحلته ، وعندما أملى رحلته على ابن جزى اعتمد على هذه المذكرات وأضاف إليها من ذاكرته تفصيلات أخرى حتى يأتى إملاؤه وافيا حاملا كل طريف ، لافتا للنظر جذابا للنفوس .

---

(١) الرحلة ص ٧٤٠

والذى يدعونا إلى هذا القول أننا نرى ابن بطوطة لايسير على مستوى واحد من حيث الدقة والتفصيل فى سرد الأحداث ، فهو تارة يحدد التاريخ بدقة متناهية ، فيقول مثلا : « وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام »(١) .

وليس من المتوقع بعد تسعة وعشرين عاما أن يتذكر هذه المعلومات الدقيقة ويحدد يوم الخميس وأنه من شهر رمضان وأنه التاسع من هذا الشهر ولابد من مذكرات اعتمد عليها ، وفى مواقف أخرى يسرد الأحداث ولا يحدد لها تاريخا .

ثم إنه يسرد أحداثا دقيقة مرتبة لا يمكن أن تعيها الذاكرة بهذه الدقة بعد هذه المدة الطويلة ويورد الأسماء بترتيب ورودها على الألسنة كقوله متحدثا عن خطيب مكة : « ثم يدعو للملك الناصر ، ثم للسلطان المجاهد نور الدين على ابن الملك المؤيد داود ، ابن الملك المظفر يوسف بن على ابن رسول ، ثم للسيدين الشريفين الحسنين أميرى مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الأخوين ويقدم اسمه لعدله ، وأسد الدين رميثة ابنى أبى نمى ابن أبى سعيد بن على بن قتادة »(٢) . وهذا يدل على أنه اعتمد على مذكراته فى الإملاء .

وإتماما لهذا الأمر نناقش التهم التى وجهت إلى ابن بطوطة ، والمآخذ التى تؤخذ عليه ولها صلة بالسؤال الذى سألناه : هل كتب ابن بطوطة مذكرات أثناء رحلته ؟ .

١ — أما إدعاؤه أنه زار بلاد عديدة فى وقت لم يكن من الممكن قطع هذه المسافات الطويلة فى هذا الوقت القصير فإننا نرجع هذا إلى أنه لم يكتب مذكرات وافية وإنما دون بعض الملحوظات وأهمل بعضها وكان

(١) الرحلة ص ١٠٢ (٢) الرحلة ص ١٨٠

يعتمد على ذاكرته أحيانا وهنا يأتى الاضطراب فى السرد ، وقد تكون الرحلة قد استغرقت وقتا أطول ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الرحلة صحيحة فى مجموعها وأن حديثه عن البلاد التى زارها صحيح فى مجموعة ، والسهو محتمل ويرتبط بهذا الأمر ترتيبه للبلاد التى زارها ، ونرد الخطأ هنا إلى السهو أيضا ولا نرده إلى الكذب ، ومن الأخطاء التى وقع فيها :

وقع فى خطأ تاريخى حينما ذكر أن بغداد سقطت فى يد التتار سنة ٦٥٤(١) والتاريخ الصحيح سنة ٦٥٦ ، وذكر أنه زار مدينة سنجار ثم سافر إلى مدينة دارا ثم ماردين(٢) ويقول محقق الرحلة : « بدون شك أن ابن بطوطة زار مدينة دارا بعد ماردين » ويقول ابن بطوطة : « ثم سافرنا إلى مدينة قيس وتسمى أيضا بسيراف »(٣) ، ويقول محقق الرحلة : « هذا غلط ، مدينة قيس غير سيراف » .

وهذه الملحوظات لا تدل على تعمد الكذب وإنما تدل على النسيان ، وتدل على أن ابن بطوطة لم يدون رحلته تدوينا مفصلا ، ويؤكد ذلك أنه ينص على نسيانه لبعض الأشياء فهو يقول : « وسافرت إلى مدينة أرمنت وهى صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافنى قاضيها ونسيت اسمه »(٤) ويقول : « ثم سافرت إلى حصن الأكراد وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمى ، ونزلت عند قاضيها ولا أحفظ الآن اسمه »(٥) .

٢ — أما المبالغة فى وصف بعض الملوك بالكرم ووفرة العطاء كما نرى فى وصفه لملك الهند ، فنحن نعتقد أنه قصد إلى ذلك قصدا ، وابن بطوطة رجل طيب السريرة يشكر للناس أياديهم وقد قصد إلى المبالغة ليبرز الصورة

---

(١) الرحلة ص ٢٤٥
(٢) الرحلة ص ٢٥٧
(٣) الرحلة ص ٣٠٤
(٤) الرحلة ص ٦٨
(٥) الرحلة ص ٨٤ .

فى موقف معجب يلفت الأنظار ويثير النفوس ، ولم يشأ أن يقف به عند حقيقته المتعارفة .

أما حديثه عن أعمال السحرة فربما بالغ فى هذا الحديث ولكننا نقول : إن للسحرة أعمالا مذهلة لا يصدقها إلا من رآها ، وقد كتبت السيدة أمينة السعيد كتابا بعنوان (مشاهدات فى الهند) وأوردت فيه أعمالا عجيبة للسحرة الذين شاهدتهم فى الهنـــد وكثير من هذه المواقف شبيه بما أورده ابن بطوطة .

٣ — أما حديثه عن الرخ الذى يزعم أنه رآه فى البحر أثناء رحلته من الصين إلى جاوة ، والذى يزعم أنهم ظنوه جبلا فهذه حكاية مخترعة يبدو عليها الكذب ، وقد يقول قائل : إنه من المحتمل أن يكونوا قد رأوا طائرا من الطيور المنقرضة ولكنه احتمال مستبعد ، والواضح أنها حكاية مستمدة من الحكايات الخرافية المتوارثة عن الرخ والعنقاء .

والذى نرجحه أن ابن بطوطة لم ير هذا الرخ الذى يحكى عنه ، وإنما سمع الحكاية من بعض الرحالة فصدقهم ، ثم نسبها إلى رؤيته ومعاينته ليصور مدى العجائب التى رآها والمخاطر التى تعرض لها ، وابن بطوطة هنا قد اعتمد على السماع ، والسماع مصدر معتمد فى أدب الرحلات وليس من الضرورى أن يكون الرحالة قد رأى عيانا كل ما يثبته ، غير أنه يجب عليه أن يحكم عقله فيما سمعه وأن يثبت ما يراه مقبولا فى العقل .

وقد اعتمد ابن بطوطة على السماع فى أكثر من موقف ، وأخطأ فى حديثه عن استخراج اللؤلؤ حينما ذكر أن اللؤلؤ يوجد فى الصدف على شكل قطع لحم تتجمد حينما تباشر الهواء ، يقول : « ويفتح الصدف فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر »(١) .

---

(١) الرحلة ص ٣٠٤

وننسب كل هذا إلى الخطأ المبنى على السماع .

٤ — أما حديثه عن الكرامات والإخبار بالمغيبات والإنفاق من الكون وما ماثل ذلك فهو غير صادق فيما حدث به ، وهو يبنى هذه الأخبار على السماع وعلى المشاهدة والغريب أن كتب التصوف مليئة بمثل هذه الحكايات وصدقها عامة الناس .

وقد يسمع حكاية ثم يدفعه شعوره الداخلى إلى تحوير الحكاية وإيردها على الشكل الذى أورده فى رحلته .

وفاته

لم يحدد أحد سنة الوفاة لابن بطوطة إلا الحافظ العسقلانى فى كتابه (الدرر الكامنة) حيث يقول : « إنه بقى إلى سنة سبعين ، ومات وهو متولى القضاء »(١) .

ومعنى هذا أنه عاش سبعا وستين سنة . (رحمه الله) .

---

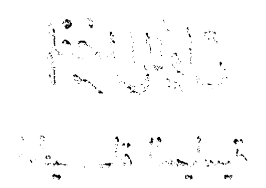
(١) الدرر الكامنة ج ٤ ص ١٠٠ .

الباب الثانى

الحيـــاة فى القرن الثامن الهجرى

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية



تفكك العالم الإسلامى

تصور رحلة ابن بطوطة العالم الإسلامى دولا مفككة متناحرة ولم يقتصر الأمر على أن يستقل كل قطر بكيانه فقد تفككت بعض الأقطار إلى دويلات متعددة ، وننظر أول ما ننظر إلى المغرب العربى فنرى دويلات متعددة فى المغرب الأقصى وتونس والجزائر ، فقد انهارت دولة الموحدين وقامت دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ، ودولة بنى عبد الواد الزناتيين بالمغرب الأوسط ، ودولة الحفصيين بالمغرب الأدنى .

ولد ابن بطوطة سنة ٧٠٣ هـ فى ظل دولة بنى مرين ، « وقد قامت هذه الدولة سنة ٦٦٨ على يد أبى يوسف يعقوب مؤسس هذه الدولة بعد أن تمكن من دخول مدينة مراكش عاصمة الموحدين »(١) .

وكثير من الحكام أضفوا على أنفسهم لقب أمير المؤمنين ، وفى أبى سعيد عثمان ابن يعقوب سلطان بنى مرين يقول ابن بطوطة : « وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده وصولة الإسناد بالإسناد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله »(٢) .

ونحن لا نستدل بكلام ابن بطوطة على عدل السلطان فقد تعود أن يكيل المدح لسلاطين المغرب وغيرهم ، وإنصافا للحقيقة نقول : إن السلطان أبا سعيد عثمان بذل جهودا فى خدمة أسرته بنى مرين ، كما بذل جهودا فى خدمة الإسلام والمسلمين ، فقد استطاع أن يستولى على المغرب الأوسط

---

(١) تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٧٨١ بتصرف د/ السيد عبد العزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .

(٢) رحلة ابن بطوطة ص ٣ .

(تونس) من سلطان بنى عبـــد الواد الزناتى ، كما جاز إلى الأندلس حين استصرخه سلطان غرناطة »(١) .

وكان الحكام يغيرون على جيرانهم ويسلبونهم سلطانهم ويستولون على مدنهم ويكون مصير المهزوم القتل أو اللجوء السياسى إذا قدرت له النجاة ، وعندما وصل ابن بطوطة إلى الإسكندرية وجد بها حاكم تونس لاجئا سياسيا وكان معه أولاده وحاجبه ووزيره ، يقول ابن بطوطة : « وكان أمير الإسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين ، وكان فيها أيضا فى ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكريا أبو يحيى بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية وأجرى له مائة درهم كل يوم ، وكان معه أولاده وحاجبه ووزيره »(٢) .

وكانت مصر من أحسن البلاد أحوالا حينما زارها ابن بطوطة ، وكان بها كثير من مظاهر النهضة والعدالة ، ولكنها لم تخل من المظالم والاضطرابات وكان يحكم مصر إذ ذاك الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون أحد سلاطين دولة المماليك البحرية ، ومن أعظم سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، ويتحدث ابن بطوطة عن كثير من مظاهر الإصلاح فى عهده ويقول : « وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة ، وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، ومن الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين المصرى والشامى ، وبنى زاوية بسرياقوص خارج القاهرة »(٣) .

ويتحدث ابن بطوطة عن عدل الملك الناصر وعن عدل القضاة ، وعلى

---

(١) تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص ٧٨٥ .

(٢) الرحلة ص ٣٨ بتصرف يسير (٣) الرحلة ص ٥٩

الرغم من ذلك فإن الحياة السياسية لم تخل من المظالم والمؤامرات ، وكان الملك الناصر نفسه يدبر المؤامرات لمعارضيه ولمن لا يثق بهم ، ويتحدث ابن بطوطة عن بعض هذه المؤامرات فيقول: «ومن أمراء مصر ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتمور وهو الذى قتله الناصر بالسم ، ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر وكان من خيار المماليك وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، والإحسان العظيم للحرافيش ، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد : يا أعرج النحس - يعنون الملك الناصر - أخرجه ، فأخرجه من محبسه ، وسجنه مرة أخرى ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه »(١) .

بل إن الملك الناصرى كان يصغى أحيانا إلى دسائس غير المسلمين حينما تتعلق المخاطر بسلطانه ، وذكر ابن بطوطة أنه أصغى لدسائس الأرمن ضد حسام الدين الذى يحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن ، وقد زوروا عليه أمورا ، فنفذ أمره لأمير الأمراء بحلب أن يخنقه ، فدخل أحد الأمراء على الملك الناصر وقال له : ياخوند ، إن الأمير حسام الدين من خيار الأمراء ، والأرمن يريدون الفساد فى بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا بإطلاق سراحه والخلع عليه ورده لموضعه »(٢) .

ويحدثنا ابن بطوطة عن قوة البجاة وسيطرتهم على مدينة عيذاب(٣) وأنهم كانوا يشاركون الحكومة المصرية فى حكم المدينة ويتقاسمون إيراداتها مع الحكومة ومما يصور قوتهم أنهم حاربوا الحكومة وخرقوا المراكب ،

---

(١) الرحلة ص ٥٩ (٢) الرحلة ص ٩٢ .

(٣) يقول محقق الرحلة : عيذاب مرسى على البحر الأحمر خرب فى القرن التاسع الهجرى .

وفر جنود الحكومة أمامهم ، وتعذر السفر من عيذاب فعاد ابن بطوطة من حيث أتى .

وكانت بلاد الشام تابعة لمصر أيام دولة المماليك البحرية وكان المماليك معروفين بالتآمر والانقلابات ، وذكر ابن بطوطة أن الملك الناصر فر إلى حصن الكرك وتحصن به بعد أن استولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه ، واستطاع الناصر أن يجمع حوله المماليك وفر أمامه بيبرس وقبض عليه وأمر الناصر بقتله ، ثم قبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا »(١) .

وكان الملك الناصر يعين أمراء الشام ، ويقول ابن بطوطة : « وكان أمير طرابلس واسمه سنديور معروفا بالشدة على أهل الجنايات وشكت امرأة إليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة فأمر به فوسط(٢) فخرج اللبن من مصرانه »(٣) .

ويذكر ابن بطوطة أنهم كانوا يبنون القلاع الحصينة لتأمين البلاد ضد المغيرين ، وقد تحدث عن كثير من القلاع منها قلعة حلب الشهباء ، ويذكر الخندق الذى يحيط بها وسورها وأبراجها ، ومن قوله : « قلعة حلب تسمى الشهباء ، وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظمأ ، ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متدانى الأبراج وقد انتظمت بها العلالى العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون »(٤) .

كما تحدث عن حصن بغراس بالقرب من أنطاكية وتحدث عن أثره فى حفظ الطريق إلى بلاد الأرمن(٥) ، وتحدث عن حصن المرقب بالقرب من

---

(١) الرحلة ص ١٢٩ .
(٢) وسط قطع وسطه .
(٣) الرحلة ص ٨٤ .
(٤) الرحلة ص ٨٧ .
(٥) الرحلة ص ٩١ .

اللاذقية وهو مبنى على جبـــل شامخ(١)، ومن قوله : « فمررت بحصن القدموس ثم بحصن المينقة ثم بحصن العليقة ثم بحصن مصياف ثم بحصن الكهف »(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن بعض الفرق القوية التى كان الحكام يحسبون حسابها وقد تحدث عن فرقة الحرافيش فى مصر ، وتحدث عن البجاة الذين كانوا يتحكمون فى عيذاب وما حولها ، وتحدث عن طائفة الإسماعيلية الفداوية فى الشام ووصفهم بأنهم سهام الملك الناصر وكانوا ينفذون مؤامراته ضد أعدائه وسنتحدث عن جماعة الفداوية عند حديثنا عن الجماعات السياسية .

وقد امتدت سياسة الاغتيال إلى كل مكان فى العالم الإسلامى حتى فى الأرض المقدسة ، وذكر ابن بطوطة : « أن أمير المدينة كبيش بن منصور قتل عمه مقبلا وتوضأ بدمه ، ثم إن كبيشا خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة فما راعهم إلا وأبناء مقبل فى جماعة من عبيدهم ينادون بالثأر لمقبل فقتلوا كبيش بن منصور ولعقوا دمه ، وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذى بعث من اغتال أبا العباس الفاسى مدرس المالكية بالمدينة(٣) .

ولم تنج مكة المكرمة من ظلم الحكام لقاطنيها ، يقول ابن بطوطة : « ومنهم الشيخ سعيد الهندى شيخ رباط كلالة ، كان الشيخ سعيد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الأمير عطيفة وطلبه بأداء المال ، فامتنع فعذبه بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم وعاد إلى بلاد الهند »(٤) .

وكان الصراع على الحكم والاقتتال فى كل مكان ، وتحدث ابن بطوطة

---

(١) الرحلة ص ٩٩
(٢) الرحلة ص ٩٣ .
(٣) الرحلة ص ١٤٢ بتصرف
(٤) الرحلة ص ١٧٤

عن الصراع بين أمراء الهند ، ومن قوله : « وكان الأمير كشلى خان – والخان عندهم أعظم الأمراء وهو الساكن بملتان كرسى بلاد الهند ، وهو عظيم القدر عند ملك الهند – يدعوه بالعم لأنه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه »(١) .

وظهرت هذه الأطماع فى خراسان ، وذكر ابن بطوطة أن السلطان أبا إسحق تغلب على شيراز وعلى أصفهان ، وبلاد فارس ، ثم حاصر مدينة يزد وتغلب عليها ، وتحصن الأمير مظفر شاه بقلعة على ستة أميال منها فحاصره بها »(٢) .

وامتدت يد الخيانة والاغتيال إلى العراق وخراسان وشاركت النساء فى دس السم لأزواجهن ، ويحكى ابن بطوطة عن ذلك فيقول : « ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمى بغداد خاتون وهى من أجمل النساء ، وكانت تحت الشيخ حسن الذى تغلب بعد موت أبى سعيد على الملك وهو ابن عمته ، فأمره فنزل عنها ، وتزوجها أبو سعيد وكانت أحظى النساء لديه ، ثم تزوج امرأة تسمى بد لشاد فأحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته فمات ، ولما عرف الأمراء أجمعوا على قتلها ودبر لذلك الفتى الرومى خوجه لؤلؤ فأتاها وهى فى الحمام فضربها بدبوسه وقتلها ، واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبى سعيد كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته ، وتغلب الشيخ حسن على عراق العرب جميعا ، وتغلب إبراهيم شاه على الموصل وديار بكر ، وتغلب الأمير أرتنا على بلاد التركمان ، وتغلب حسن خواجه على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى ورامين وفرغان والكرج ، وتغلب الأمير طغيتمور على بعض بلاد خراسان ، وتغلب الأمير حسن بن غياث الدين على هراة ومعظم بلاد خراسان ، وتغلب ملك

---

(١) الرحلة ص ٢٠١ (٢) الرحلة ص ٢٢٨

دينار على بلاد مكران ... الخ »(١) وهذا يصور مدى التفكك الذى أصاب العالم الإسلامى .

وكانت هذه الحركات الإنفصالية فى اليمن أيضا وحاول أمير ظفار الانفصال عن ملك اليمن(٢) . وزار ابن بطوطة عمان وذكر أن الحرب قائمة بين أهلها أبدا ، وكانت عمان تحت حكم البنهانيين الذين اتخذوا مدينة نزوة عاصمة لهم وهم أباضية المذهب(٣)، وفى مدينة دهلى بالهند نرى أربعة إخوة ثلاثة أشقاء وشقيقة يتعاقبون على الحكم ويدبر كل واحد لقتل شقيقه حتى قتلوا جميعا(٤) .

وكان للتتار بقايا نفوذ فى الهند والصين ، وبسبب الرغبة فى التخلص من هذا النفوذ نشب القتال فقد أبطل السلطان طرمشيرين بعض أحكام سنها تنكيز خان فتمرد ابن عمه وقامت الحرب بينهما ، يقول ابن بطوطة : « وبعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند بلغ الخبر بأن الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى ، وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيز اللعين ، وكان تنكيز ألف كتابا فى أحكامه يسمى عندهم (اليساق) فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهى من عمالته ، فلما عبر نهر جيجون رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه ، وكان السلطان طرمشيرين قتل أخاه كبك وبقى ابنه ينقى ، فركب ينقى فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ، ووصل

---

(١) الرحلة ص ٢٤٨ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٢٩٠
(٣) الرحلة ص ٢٩٧
(٤) الرحلة ص ٤٨٦ بتصرف .

بوزن إلى سمرقند وبخارى فبايعه الناس ، وجاء يتقى بطرمشيرين وقتل خارج سمرقند »(١) .

وهكذا نرى سائر البلاد الإسلامية تسودها الخلافات والحروب مما أضعف العالم الإسلامي واستنفد قواه .

ظلم الحكام

وكان الحكم في العالم الإسلامي حكما ظالما تسوده مطامع الحكام وقسوتهم وقد نرى بعض الحكام يحرصون على العدل وإنصاف المظلوم ولكننا نراهم في موقف آخر يصبون غضبهم وقسوتهم على من يغضبون عليه ولا يتورعون عن الاغتيال ودس السم وإلقاء خصومهم في أعماق السجون .

ويحدثنا ابن بطوطة في أول الرحلة عن أول مظلمة رآها في مدينة بجاية إذ يقول : « وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم محمد بن الحجر وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس (أمير بجاية) فانتزعها من يده »(٢) .

ومع ما عرف عن الملك الناصر محمد بن قلاوون من حب للعدل فإننا نراه يدس السم للأمير بكتمور ، ويسجن الأمير طشط المعروف بحمص أخضر(٣) .

ومن مظاهر الظلم ما أوقعه الملك الناصر ورجاله بالعالم الجليل تقي الدين ابن تيمية ونود أن نلفت النظر إلى تحامل ابن بطوطة على ابن تيمية إذ يقول في أول حديثه عنه : « يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئا »(٤) ومن مظاهر

---

(١) الرحلة ص ٤١٤
(٢) الرحلة ص ٣١
(٣) الرحلة ص ٥٩
(٤) الرحلة ص ١٠٩ .

تعصبه ضد ابن تيمية أنه نسب إليه أقوالا وزعم أنه حضر هذا الموقف بدمشق وحضره يوم الجمعة ورأى ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع ، ونبه محقق الرحلة إلى أن ابن تيمية سجن بقلعة دمشق قبل مجيء ابن بطوطة إليها بأكثر من شهر كما يفيد كلام ابن بطوطة(١) .

ويذكر ابن بطوطة أن حكام مكة لجئوا إلى مصادرة الأموال وتعذيب الناس حتى يستخرجوا ما لديهم من أموال ، وفي حديثه عن أحد علماء مكة يقول : « ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة ، كان الشيخ سعيد قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الأمير عطيفة وطلبه بأداء المال فامتنع ، فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم »(٢) .

وكان بعض الولاة يقبضون على أبناء الولاة السابقين ويطالبونهم بأموال آبائهم ، وقبض أحد الولاة على زوجة الوالي السابق وثارت نخوة الشعب وخلص المرأة وأطلق سراحها ، يقول ابن بطوطة : « وكان محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا إلى أهلها ، فلما توفي ولى السلطان أو سعيد مكانه الشيخ حسينا ، ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبي إسحاق بن محمد ينجو وعلى أخويه وعلى والدته طاش خاتون وأراد حملهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم ، فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها واستغاثت فقام رجل من النجارين فقال : لا نتركها تخرج من بلدنا ولا نرضى بذلك ، فبايعه الناس على ذلك وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها ، وفر الأمير حسن ومن معه »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ١١٠ (٢) الرحلة ص ١٧٤
(٣) الرحلة ص ٢٢٧ بتصرف .

ويتحدث ابن بطوطة عن كرم السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ماوراء النهر ولكنه يتحدث عن قسوته وتعطشه إلى سفك الدماء حيث يقول: « وكان على تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على إراقة الدماء لايخلو بابه عن مقتول إلا فى النادر ، وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ، وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف ، وكان له أخ اسمه مسعود خان فاتهمه بالقيام عليه وسأله عن ذلك فأقر خوفا من العذاب ، فإنه من أنكر مايدعيه عليه السلطان يعذب ، فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب ، فأمر به فضربت عنقه فى وسط السوق وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم »(١) .

ويتحدث ابن بطوطة عن بعض العلماء الذين رفضوا العمل للسلطان ، أمر بنتف لحاهم ونفوا (٢) . واتهم أحد العلماء السلطان بالظلم فأمر السلطان أن يطعم الشيخ خمسة أستار من العذرة ، وهى رطلان ونصف من أرطال المغرب ، فمدوه على ظهره وفتحوا فمه بالكلبتين وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك ، ثم ضربت عنقه »(٣) .

وأمر السلطان تغلق بابن أخته فسلخ وهو بقيد الحياة وطبخ لحمه مع الأرز وبعث لأولاده وأهليه ، وجعل باقيه على صحفة وطرح للفيلة لتأكله وأمر بجلده فحشى بالتبن »(٤) وأحيانا يغضب السلطان على بعض الناس فيأمر بطرحهم للفيلة المعلمة لقتل الناس(٥) . وكانوا يسجنون نساء المخالفين(٦) . وكانوا يطرحون القتلى فى خندق خارج المدينة ويسكن الحراس حول الخندق

---

(١) الرحلة ص ٥٤٠
(٢) الرحلة ص ٥٤١
(٣) الرحلة ص ٥٤٢
(٤) الرحلة ص ٥٥١
(٥) الرحلة ص ٥٥٥
(٦) الرحلة ص ٥٥٦

لئلا يأتى أهـــل المقتول فيرفعونه ، وربما أعطى بعضهم لهؤلاء الحراس مال فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه(١) .

وهكذا كان الحاكم مطلق اليد يترك عفوا أو يقتل فلا ملامة ، وكانت الشعوب مغلوبة على أمرها .

اللصوص وقطاع الطرق

يشعر قارىء الرحلة أن الطرق البرية والبحرية كانت مخوفة غير مأمونة على وجه العموم ، وكان قطاع الطرق وقراصنة البحر يقطعون الطرق البحرية والبرية ويستولون على الأموال وقد يقتلون إذا لاقوا مقاومة ، وكان بعض السلاطين يرسلون قوات لتأمين القوافل إذا كان فيها مايهمهم وما يحرصون على سلامته وكانت بعض القبائل والجماعات تتولى مهمة تأمين القوافل ، ولا تستطيع القوافل قطع الطريق إلا بإذنها وفى حمايتها .

ويذكر ابن بطوطة أن الطريق البحرى بين الجزيرة العربية والهند لم يكن مأمونا ، وكان لصوص البحر يأخـــذون أموال المسافرين ويتركونهم ولا يقتلون إلا من قاتلهم وهؤلاء اللصوص من المماليك ، وفى حديثه عن مكة ذكر أن « الشيخ سعيد الهندى توجه إلى الهند فأعطاه ملك الهند مالا ووجهه الأمير غدا صحبة حاج من أهل الأمير يعرف بوشل ، أعطاهما خمسين ألف درهم ليشتريا الخيل العتاق فخرج عليهما لصوص الهند فى مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة ، وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك ، وأخذوا ماكان عندهم وتركوا لهم مركبهم ، وعادة هؤلاء السراق أنهم لايقتلون أحدا إلا حين القتال ولا يغرقونه ولا يأخذون المماليك لأنهم من جنسهم »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٥٥٨

(٢) الرحلة ص ١٧٤ بتصرف

وفى الطريق من مكة إلى العراق كان هناك عرب يهددون الطريق ويرهبهم المسافرون(١) . وكانت الطرق داخل العراق نفسه غير مأمونة ، وكانت بعض القبائل العربية تحرس المسافرين ولا سبيل للسفر إلا فى صحبتهم وعندما خرج ابن بطوطة ورفاقه من النجف إلى البصرة ساروا فى حراسة عرب خفاجة يقول : « وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة ولهم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولاسبيل للسفر فى تلك الأقطار إلا فى صحبتهم »(٢) .

ويذكر ابن بطوطة أن الطريق من هرمز إلى البحرين كان مخوفا لسيطرة قطاع الطرق عليه . ومن قوله : « وفى هذه الصحراء كان يقطع الطريق بها جمال الملك الشهير الاسم هناك ، ومعنى الملك الأقطع وكانت يده قطعت فى بعض حروبه ، وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطريق ، ويسلكون برارى لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك »(٣) .

وظهر بخراسان سبعة من الرافضة اتفقوا على قطع الطرق وسلب الأموال ، ثم كثر عددهم وانضم إليهم المجرمون والعبيد الفارون حتى صاروا جيشا رهيبا بلغ مائة وخمسين ألفا ، وهزموا جيوش السلطان وأقاموا خليفة من الرافضة ، وأخيرا تمكن سلطان هراة من هزيمتهم والقضاء عليهم ، يقول ابن بطوطة : « كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود ، والآخر يسمى بمحمد وكان لهما خمسة من الأصحاب وهم الفتاك فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال ، وسكنوا جبلا منيعا ، وكانوا يخرجون

---

(١) الرحلة ص ١٩٢ بتصرف (٢) الرحلة ص ٢٠٤

(٣) الرحلة ص ٣٠١ .

بالليل فيضربون على القرى ويقطعون الطرق ويأخذون الأموال وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد ، وجندوا الجنود وركبوا الخيل ، وتسمى مسعود بالسلطان ، وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه فعظم جيشه وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمعوا إلى استئصال أهل السنة ، وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن فوافقهم على ذلك ، وسموه بالخليفة ، وغلبوا على نيسابور وبعث إليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه ، ثم غزاهم طغيتمور بنفسه فى خمسين ألفا فهزموه وتغلبوا على سرخس والزاوة وطوس ومدينة الجام وقصدوا مدينة هراة ، فلما بلغ ذلك الملك حسينا سلطان هراة جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واجتمعوا من أطراف البلاد وهم مائة وعشرون ألفا نفروا إلى الرافضة وهم مائة وخمسون ألفا وكانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود ، وثبت خليفتهم حسن فى عشرين ألفا فقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف ، وضربت أعناق الأسرى وكانت هذه الوقعة عام ثمانية وأربعين »(١) .

وقد وقع ابن بطوطة فى الأسر حين أسره قطاع الطرق وهو متوجه إلى الصين ، ويحدثنا ابن بطوطة عن ذلك فيقول : « خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسى ، فأحدقوا بى وكنت غير متدرع فألقيت بنفسى إلى الأرض واستأسرت ، وهم لايقتلون من فعل ذلك ، فأخذونى وسلبونى جميع ما على غير جبة وقميص وسروال »(٢) .

وفى بلاد البنغال خرج عليه لصوص البحر فى أثنى عشر مركبا وأخذوا كل ما معه ومع أصحابه ، يقول : « خرج علينا الكفار فى أثنى عشر مركبا حربية

---

(١) الرحلة ص ٤٢٥ بتصرف .

(٢) الرحلة ص ٦١٢ .

وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فأخذوا جميع ما عندى مما كنت أدخره للشدائد ، وأخــذوا الجواهر واليواقيت التى أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابى والزوادات التى كانت عندى مما أعطانيه الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل ، وأخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل »(١) .

ويشهد ابن بطوطة بأن بلاد الصين آمن البلاد ، يقول : « وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر ، فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها »(٢) .

مكانة مصر فى العالم الإسلامى

يرسم ابن بطوطة لمصر صورة سامية مشرقة ، وكانت مصر قد احتلت مكانة سامية منذ استطاعت أن تهزم التتار فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٦ هـ واستطاع بيبرس بعد ذلك أن يلحق بهم الهزائم المتتالية ، وزال الخطر الصليبى كما زال الخطر التترى ، وتضعضعت سلطة الأيوبيين فى الشام أمام سلطان المماليك ، يقول د . السيد الباز : « إن الهزائم لحقت بالتتار وصاروا يلتمسون الصلح وتحسين العلاقات بينهم وبين المماليك ، وعجلت هذه الواقعة بزوال الإمارات الواقعة فى الشام ، كما دفعت التتار الذين حلوا بغربى آسيا إلى اعتناق الدين الإسلامى ، ولم يعد فى استطاعة الأمراء الأيوبيين بالشام منازعة المماليك السلطان ، إذ استولى بيبرس على إماراتهم »(٣) .

وهكذا رسخت دعائم الدولة المملوكية فى مصر وعلت مكانتها ، وحينما زار ابن بطوطة مصر كانت تحت حكم الملك الناصر محمد بن المنصور سيف الدين

---

(١) الرحلة ص ٦٩٦ (٢) الرحلة ص ٧٢١ بتصرف

(٣) المماليك ص ٤٩ د/ السيد الباز ـ دار النهضة العربية بيروت .

قلاوون الصالحى أحد سلاطين المماليك البحرية ، ومن أعظم سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وقد حقق السلطان الناصر انتصاراً جديداً على التتار عندما احتلوا مدينة دمشق ، يقول ابن بطوطة : « ولما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها خرج الملك الناصر إلى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع ، وكان الشيخ العريان فى صحبته فنزل وأخذ قيداً فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء ، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه »(١) .

ويتحدث ابن بطوطة عن عدالة القضاة وعدالة الملك الناصر ، ومن قوله : كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها(٢) . وليس معنى ذلك خلو مصر من المظالم والمؤامرات فقد كان الملك الناصر نفسه يدبر المؤامرات لمعارضيه ولمن لا يثق بهم ، ويتحدث ابن بطوطة عن قتله الأمير بكتمور بالسم ، وعن سجنه الأمير طشط المعروف بحمص أخضر .

وكانت مصر مستقراً كريماً للاجئين السياسيين ، وعندما وصل ابن بطوطة إلى الاسكندرية وجد بها حاكم تونس لاجئا سياسيا . وكان معه أولاده وحاجبه ووزيره ، يقول ابن بطوطة : « وكان أمير الاسكندرية فى عهد وصولى إليها يسمى بصلاح الدين .

وكان فيها أيضاً فى ذلك العهد سلطان أفريقية المخلوع وهو زكريا

---

(١) الرحلة ص ٦١٨ (٢) الرحلة ص ٦١

أبو يحي بن أحمد بن أبى حفص المعروف باللحيانى ، وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم كل يوم ، وكان معه أولاده وحاجبه ووزيره »(١) .

وكانت بلاد الشام تابعة لمصر أيام دولة المماليك البحرية ؛ وكان الملك الناصر يعين أمراء الشام ، يقول ابن بطوطة : « وبحلب ملك الأمراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر »(٢) . وكان بالشام طائفة الاسماعيلية الفداوية وهى من أكبر الطوائف السياسية وأقواها ، ويصفهم ابن بطوطة بأنهم سهام الملك الناصر فقد كان يستعين بهم فى تنفيذ مؤامراته ضد أعدائه .

ويتحدث ابن بطوطة عن اهتمام الملك الناصر بالحرمين الشريفين وتقديم الخدمات للحجاج ، وتقديم الجمال التى تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى فى الدربين المصرى والشامى ، كما يتحدث عن بنائه زاوية بسرياقص خارج القاهرة لخدمة المسافرين(٣) .

وكان للملك الناصر نفوذ سياسى وأدبى بالأراضى المقدسة ، فكان يقوم بكسوة الكعبة واستطاع أن يتغلب على غيره من الملوك الذين كانوا يقومون بهذه المهمة من قبله ، يقول ابن بطوطة : « وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر ، وهو كان يكسو الكعبة إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون »(٤) .

وكان الملك الناصر سلطان مصر يبعث مرتبات القاضى والخطيب

---

(١) الرحلة ص ٣٨ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٨٨
(٣) الرحلة ص ٥٩
(٤) الرحلة ص ١٦٠

والأئمة والمؤذنين والفراشين وكل ما يحتاج إليه الحرم الشريف ، ومن قول ابن بطوطة متحدثاً عن صلاة الجمعة فى الحرم : « فإذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد معتما بعمامة سوداء ، وعليه طيلسان أسود ، كل ذلك من كسوة الملك الناصر »(١) .

وعمر الملك الناصر رباطا وبنى داراً للوضوء داخل الحرم ، يقول ابن بطوطة : « وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه ، وهو الآن رباط يقطنه المجاورون ، عمره الملك الناصر رحمة الله ، وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابين أحدهما فى السوق والآخر فى العطارين ، وعليها ربع يسكنه خدامها »(٢) .

ولم يكن نفوذ مصر فى الأراضى الحجازية مقصوراً على النفوذ الدينى ، فقد كان لها نفوذ سياسى وعسكرى ، فقد كان اسم الملك الناصر يذكر فى خطبة الجمعة ، وكان له جنود ونفوذ عسكرى ، يقول ابن بطوطة متحدثا عن أحداث سنة ٧٢٩ : « وفى تلك السنة ذكر اسم السلطان أبى سعيد ملك العراق فى الخطبة بعد ذكر الملك الناصر »(٣) .

ويذكر أن فتنة وقعت بين أمير مكة وأمير الجند المصرى ، فأرسل الملك الناصر العساكر إلى مكة ، ففر أمير مكة ثم طلب الأمان وحمل كفنه فرضى عنه الملك الناصر وسلمت إليه مكة ، يقول ابن بطوطة فى أحداث سنة ٧٣٠ - : « وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصر وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر إلى مكة ، ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك ، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولادة يطلب له الأمان ولولده ، فأمنوه ، وأتى رميثة وكفنه

---

(١) الرحلة ص ١٧٩ .

(٢) الرحلة ص ١٦٢ .

(٣) الرحلة ص ٢٦٥ .

فى يده إلى الأمير فخلع عليه وسلمت إليه مكة ، وعاد العسكر إلى مصر ، وكان الملك الناصر - رحمه الله - حليما فاضلا »(١) .

وفى سنة ٧٣٢ حج الملك الناصر وجملة من أمرائه وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين ، وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذى يذكر أنه ولده ، وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقى ، وكان ينوى الفتك بالملك الناصر وأن يتولى أمير أحمد الملك . وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والأموال فنمى الخبر إلى الملك الناصر فسقاهما السم وماتا »(١) .

وكانت هناك علاقات ودية بين مصر ومعظم الدول الإسلامية ، وكانت الدول تنظر إلى مصر نظرة إكبار ، يقول د . محمد جمال الدين سرور : « كانت هناك علاقات ودية بين الملك الناصر قلاوون وبين محمد ابن تغلق سلطان الهند ، وأرسل محمد بن تغلق هدايا إلى الملك الناصر »(٢) .

ومما زاد فى مكانة مصر فى العالم الإسلامى إنتقال الخلافة العباسية إليها بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد التتار سنة ٦٥٦ ويذكر ابن بطوطة أن السلطان محمد تغلق سلطان دهلى بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبى العباس ، وطلب أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة ، فبعث إليه الخليفة أبو العباس ماطلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين ، فلما قدم عليه بالغ فى إكرامه وأعطاه عطاء جزلا ، وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٢٦٥ بتصرف (٢) الرحلة ص ٣٠٦

(٣) دولة بنى قلاوون مصر ص ١٣٩ - د. محمد جمال الدين سرور دار الفكر العربى .

(٤) الرحلة ص ٥٢٣ .

القوة السياسية

الحرافيش

يحدثنا ابن بطوطة عن قوى سياسية تتفاوت فى قوتها وتأثيرها . أما الأولى فهى جماعة الحرافيش ، وقد وصفهم ابن بطوطة بأنهم طائفة كبيرة ذات صلابة وجاه ودعارة ، ويدل هذا الوصف على كثرتهم وقوتهم وعدم احتشامهم ، ومما يصور نفوذهم القوى أنهم أرغموا الملك الناصر على الإفراج عن حمص أخضر حينما سجنه الملك الناصر ، وكان حمص أخضر يحسن إليهم كما يقول ابن بطوطة : « ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء ، وله الإحسان العظيم للحرافيش ، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد « يا أعرج النحس - يعنون الملك الناصر - أخرجه » فأخرجه من محبسه »(١) .

وكانت طائفة الحرافيش موجودة أيضا فى الشام فى مدينة دمشق ، ويذكر ابن بطوطة فى رحلة العودة أن أمير دمشق خافهم وأخرجهم من مدينة دمشق فتفرقوا فى بعض البلاد . يقول : « وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شاه ، وأخرج طائفة الحرافيش من دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماة وحلب ، وذكر لى أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلا وقتل »(٢) .

البجاة

كانت جماعة البجاة فى مدينة عيذاب فى جنوب مصر ، ويدل حديث ابن بطوطة على أن البجاة كان لهم نفوذ سياسى وحربى ، وكانوا يسيطرون

---

(١) الرحلة ص ٥٢٣ . (٢) الرحلة ص ٧٤٧ .

على عيذاب ويقاسمون الحكومة المصرية إيراداتها الآتها ميناء على البحر الأحمر، وكانت لهم قوة عسكرية مرهوبة بدليل أنهم اشتبكوا فى قتال مع قوات الحكومة فتعذر السفر واضطر ابن بطوطة إلى العودة من حيث أتى ، يقول ابن بطوطة : « وصلنا إلى مدينة عيذاب وهى مدينة كبيرة وأهلها البجاة وهم سود الألوان يلتحفون بملاحف صفراء ويشدون على رءوسهم عصائب يكون عرض العصابة إصبعا ، وهم لايورثون البنات ، ويركبون المهارى ويسمونها الصهب ، وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحدربى ، ولما وصلنا إلى عيذاب وجدنا الحدربى سلطان البجاة يحارب الأتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك أمامه فتعذر سفرنا فى البحر ، فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر »(١) .

ويبدو أن نفوذ البجاة كان ممتدا فى الصحراء ، وفى رحلة العودة من الحج يتكلم عن خضوع بعض القبائل لسيطرة البجاة فيقول : « وسافرنا فى البر مع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبنى كاهل وطاعتهم للبجاة »(٢) .

الإسماعيلية الفداوية

فى حديث ابن بطوطة عن الشام يتحدث عن طائفة الإسماعيلية الفداوية ويصفهم بأنهم سهام الملك الناصر ، وقد تحدثت كتب التاريخ عن هذه الطائفة وذكرت أنها كانت مصدر خطر على المسلمين أيام الغزو الصليبى والغزو التترى وقد استطاع الظاهر بيبرس أن يستولى على حصونهم ويكسر شوكتهم ، يقول د. السيد الباز . « ومما زاد فى استقرار الأمور فى الشام نجاح بيبرس فى التخلص من طائفة الإسماعيلية والاستيلاء على معاقلها فى المنيقة والقدموس والكهف،

---

(١) الرحلة ص ٦٩ (٢) الرحلة ص ٣٠٧

وهى الطائفة التى استعملها الصليبيون ضد المسلمين »(١) .

ويتحدث ابن بطوطة عن مروره بتلك الحصون التى تخضع لطائفة الإسماعيلية الفداوية ويصفهم بأنهم سهام الملك الناصر، ويذكر أن الناصر يسخرهم فى الاغتيالات والقضاء على خصومه، ومن قول ابن بطوطة: «وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر وبهم يصيب أعداءه بالعراق وغيرها، ولهم المرتبات، وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاه ديته، فإن سلم بعد تأتى ما يراد منه فهى له، وإن أصيب فهى لولده، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا إلى قتله، وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الأمير قراسنقور، فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه »(٢) .

وأورد ابن بطوطة أخبار هذه الحادثة بالتفصيل، ثم ذكر أن قراسنقور قصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى واستجار به، وكان غائبا فأجارته زوجة مهنا، وأمضى مهنا إجارة زوجته وركب مخاطر كثيرة حتى استخلص مال قراسنقور، وكان الملك الناصر يبعث إلى قراسنقور الفداوية مرة بعد مرة، ولكن محاولاته باءت جميعا بالفشل، وفى النهاية شرب قراسنقور سما كان يخبئه فى خاتمه ومات لحينه .

ويبدو من هذا العرض أن طائفة الإسماعيلية كانت تعمل لحساب الصليبيين ضد المسلمين، وأن الظاهر بيبرس استولى على حصونهم، وأن هذه الطائفة تحولت إلى العمل لحساب الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر وسورية وأنهم ظلوا على سيرتهم الأولى فى الاغتيال وكانوا قوة مرهوبة الجانب يحسب حسابها الولاة والملوك .

---

(١) المماليك ص ٥١ ـ د. السيد الباز ـ دار النهضة العربية بيروت .

(٢) الرحلة ص ٩٣ بتصرف .

جماعة الإخية

يتحدث ابن بطوطة عن جماعة الإخية ويقول : واحد الإخيه أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ، ويصور ابن بطوطة جماعة الإخية على أنهم جماعة سياسية اجتماعية يأخذون على أيدى الظلمة ويؤوون الغريب ويضيفون المسافر ، يقول ابن بطوطة : «ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل الشرط ومن ألحق بهم من أهل الشر ، والأخى عندهم رجل يجتمع أهل الصناعة وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم ويبنى زاوية ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم وأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغد»(١) .

التتار

من المعروف أن التتار أسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ وأنهم احتلوا حلب ودمشق وزحفوا إلى غزة فى طريقهم إلى مصر ، وأن السلطان قطز سلطان مصر استطاع أن يهزمهم فى عين جالوت ، ووضعت هذه المعركة خاتمة لأطماع التتار ، وتوالت عليهم الهزائم ودخل بعضهم فى الإسلام .

غير أن التتار بقيت لهم باقية فى القرن الثامن الهجرى فى الفترة التى قام

---

(١) الرحلة ص ٣١٤ بتصرف

فيها ابن بطوطة برحلته ، وكان لهم نفوذ فى بلاد الهند وخصوصا فى المناطق المجاورة للصين ، وكانوا يتمسكون بالتقاليد التى شرعها جدهم تنكيزخان وتضمنها كتابه الذى ألفه وأطلق عليه (اليساق) . وثار سكان هذه المناطق عندما خالف السلطان طرمشيرين بعض السنن التى سنها جدهم ، وخلعوا السلطان وبايعوا ابن عم له يدعى بوزن أغلى لأن هواه يوافق أهواءهم وفى ذلك يقول ابن بطوطة :

« وبعد سنتين من وصولى إلى أرض الهند بلغ الخبر بأن الملأ من قوم تنكيزخان اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلى ، وكان مسلما إلا أنه فاسد الدين سيء السيرة ، وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين أن طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكيزخان الذى خرب بلاد الإسلام، وكان تنكيزخان ألف كتابا يسمى اليساق ، وعندهم أن من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه أنهم يجتمعون يوما فى السنة يسمونه (الطوى) ومعناه يوم الضيافة ، ويأتى أولاد تنكيزخان والأمراء من أطراف البلاد ، وإن كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له : غيرت كذا وقد وجب خلعك ، ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكيزخان ، وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه ، فأنكروا عليه أشد الإنكار، وأنكروا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ولم يصل إلى الجهة التى توالى الصين ، لأن أصل ملكهم منها وهى مدينة ماالق ، فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم ، وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ، فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهى من عمالته ، وكان السلطان طرمشيرين قتل أخاه كبك وبقى ابنه ينقى ببلخ فقال : ما فر إلا لأمر حدث عليه ، فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ثم قتله »(١) .

---

(١) الرحلة ص ٤١٤ بتصرف .

ولم تنته الحرب عند ذلك فقد أساء بوزن السيرة فحاربه السلطان خليل وأعوانه واستطاعوا هزيمة بوزن ، يقول ابن بطوطة : « ولما ملك بوزن ضيق على المسلمين وظلم الرعية ، واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور فقصد ملك هـــراة وهو السلطان حسين غياث الدين وسأل منه الإعانة بالعساكر والمال ، فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما ، وجاء الأمراء من كل ناحية ، والتقى مع بوزن فمالت العساكر إلى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيرا فقتله خنقا ، فقدم التتر على أنفسهم واحدا منهم وحمى القتال ثم انهزم التتر واشتد فيهم القتل ، وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج إلى استئصال من بقى من التتر فأذعنوا له بالطاعة ، وجاز إلى تخوم الخطا الصين ، ثم وقع بينهما الصلح »(١) .

ويدل حديث ابن بطوطة على أن حروب التتر لم تنته بذلك ، فقد أشار إلى نشوب معارك أخرى أثارها التتر . فهو يقول : « لما ولى السلطان ناصر الدين الملك جعل بلبن نائبا عنه عشرين سنة ، ثم قتله بلبن واستولى عليه ملكه عشرين سنة أخرى ، وكان للسلطان بلبن ولدان ، أحـــدهما الخان الشهيد ولى عهده وكان واليا لأبيه ببلاد السند ساكنا بمدينة ملتان ، وقتل فى حرب له مع التتر »(٢) .

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون وقبـل قدوم ابن بطوطة إلى مصر حاصر التتار الرحبة بالشام ثم رحلوا عنها ، يقول المقريزى فى حوادث سنة ٧١٢ هـ : « فلما كان ثامن من شوال قدم البريد برحيل التتار ليلة سادس عشر رمضان من الرحبة ، وعودهم إلى بلادهم بعدما أقاموا عليها من أول رمضان ففرق السلطان العساكر فى قانون وعسقلان وعزم على الحج »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٤١٧ بتصرف   (٢) الرحلة ص ٤٩٠

(٣) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ص ١١٩ المقـــريزى - دار الحكمة للطباعة والنشر .

وظل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يحمل العدواة للتتار ، وحاول اغتيال الحكام الموالين لهم على يد رجال الإسماعيلية الفداوية . يقول د . محمد جمال الدين سرور : «كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون لا يزال يحمل العداوة والبغضاء للمغول إلى حد كبير حتى إنه أرسل سنة ٧٢٠ ثلاثين رجلا من طائفة الحشاشين فى سوريا إلى فارس لاغتيـــال قراسنقر حاكم مراغة من قبل المغول ، وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة فإنها أخافت المغول إلى حد كبير ، فقد ذاع بينهم أن هؤلاء الإسماعيلية حضروا لقتل السلطان أبى سعيد وجوبان والوزير على شاه وقراسنقر من أمراء المغول »(١) .

وآخر معارك التتار التى تحدث عنها ابن بطوطة معركة جرت بين التتار والملك محمد بن قلاوون سلطان مصر ، وكان النصر فيها للملك الناصر ، وهزم التتر هزيمة شنعاء ، يقول ابن بطوطة : «ولما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره وملك دمشق ماعدا قلعتها ، خرج الملك الناصر إلى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب ، والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع ، وكان الشيخ الدريان فى صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين ، فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير ، وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه ، ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها »(٢) .

---

(١) دولة بنى قلاوون فى مصر ص ٢٠٦ ـ د/ محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربى .

(٢) الرحلة ص ٦١٨

نقيب الأشراف

وكان نقيب الأشراف بالعراق يتمتع بنفوذ دينى وسياسى ، وكان ملك العراق يكن له الاحترام ويقدمه ، وإقامة نقيب الأشراف بمدينة النجف ، ويختاره أهل العراق ، وكان يحكم مدينة النجف لا يشركه حاكم آخر ، يقول ابن بطوطة : « وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال ، إنما يحكم عليهم نقيب الأشراف ، وهذا النقيب مقدم على ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلة رفيعة ، وله ترتيب الأمراء الكبار فى سفره ، وله الأعلام والأطبال ، وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا ؛ وإليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره » .

ويتحدث ابن بطوطة عن النقباء الذين توالوا فيقول : « ومنهم أبو غرة ابن سالم ؛ كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة ، وتعلم العلم فكان بالمرتبة الشريفة كرمها الله ؛ ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق ، فمات النقيب قوام الدين بن طاوس ، فاتفق أهل العراق على تولية أبى غرة نقابة الأشراف وكتبوا بذلك إلى السلطان أبى سعيد فأمضاه »(١) .

الخلافة العباسية

سقطت الخلافة العباسية عندما احتل التتار بغداد بقيادة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ثم استولوا على حلب ثم دمشق ، ثم زحفوا على غزة فى طريقهم إلى مصر سنة ٦٥٨ هـ ؛ ولكن قطز استطاع أن يهزمهم فى معركة عين جالوت ؛ واستطاع بيبرس الذى خلف قطز أن يستولى على مدن الشام واحدة بعد

---

(١) الرحلة ص ١٩٩

الأخرى من أيدى التتار والصليبيين ، وأخذت دولة المماليك تستقر فى مصر والشام .

وانتقلت الخلافة العباسية إلى مصر ، وكان السلطان المملوكى يستمد من الخليفة سلطة روحية تقوى مركزه ، ولكن الحكم الفعلى كان للسلطان ، وظل الخليفة رمزا دينيا .

وكان بعض الأمراء يطلبون من الخليفة أن يبعث إليهم أمر التقدمة على بلادهم ويرسلون الهدايا إلى الخليفة ، وذكر ابن بطوطة أن ملوك الهند كانوا يلجئون إلى هذا التقليد الذى يقوى مركزهم ، ومن قوله : « وكان الحاج سعيد شيخ رباط كلالة قد سمع من ملك الهند محمد شاه أنه يريد إظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل ما فعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين للمشى وولده ناصر الدين ، ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه، والسلطان غياث الدين بلبن ، وكانت الخلع تأتى إليهم من بغداد ، فلما توفى وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبى سعيد ابن الخليفة أبى الربيع سليمان العباسى بمصر ، وأعلمه بالأمر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند ، فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سوداء وركب البحر إلى الهند . فلما وصل كنبايت كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه ، فورد الأمر ببعثه إلى الحضرة مكرما ، فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه ، وتلقاه وعانقه ودفع له الأمر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذى فيه الخلع »(١).

وذكر ابن بطوطة أن السلطان محمد تغلق سلطان دهلى بعث هدية إلى الخليفة فى مصر وطلب منه أن يبعث إليه أمر التقدمة ، يقول ابن بطوطة :

---

(١) الرحلة ص ١٧٥ .

« وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس وطلب أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة ، فبعث إليه الخليفة أبو العباس ماطلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين ، فلما قدم عليه بالغ فى إكرامه وأعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة »(١) .

وكان السلاطين يعظمون كل من هو من نسل الخلافة العباسية لقرابتهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أن أحد بنى العباس ببغداد كان يود أن يضفى على نفسه لقب الخلافة ويكتب أمر النيابة عنه للسلاطين يقول ابن بطوطة : « وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسى قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ما وراء النهر فأكرمه وكان ناصر الدين الترمذى قد لقى غياث الدين ببغداد وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه ، فشهد هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ليتزود بها وكتب له كتابا بخط يده ، فلما وصل غياث الدين بمسعود آباد خرج السلطان بنفسه لاستقباله ، فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان ، ثم قدمت الخيل فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له . وأمسك بركابه حتى ركب ثم ركب السطان وسايره ، ثم قال له : لولا أنى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك »(٢) .

غير أن السلطان الناصر محمد قلاوون سلطان مصر كان يتحكم فى مصائر الخلفاء العباسيين ، « وحصل بين الملك الناصر محمد بن قلاوون والمستكفى بالله الخليفة العباس وحشة فجهزه إلى قوص ليقيم بها ، وبقى بقوص حتى توفى سنة ٧٤٠ هـ »(٣) .

---

(١) الرحلة ص٥٢٣ (٢) الرحلة ص ٥٢٧ بتصرف .
(٣) صبح الأعشى ٢٧٩/٣ بتصرف دار الكتب العلمية .

بل إن الملك الناصر كان يتحكم فى تولية الخليفة فيولى من يشاء ويحجب من يشاء ، وعندما أحس الخليفة المستكفى بالله بالموت عهد لولى عهده أحمد ، ولكن الملك الناصر رفض هذه الوصية ، واحتال حتى نصب شخصا غيره على الرغم من معارضة القضاة ، يقول ابن تغرى بردى : « وورد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد بموت الخليفة المستكفى بالله سليمان بقوص وأنه عهد إلى ولده أحمد بشهادة أربعين عدلا ، فلم يمض السلطان عهده وطلب إبراهيم ابن محمد المستمسك ، واجتمع القضاة بدار العدل فعرفهم السلطان بما أراد من إقامة إبراهيم فى الخلافة فأجابوا لعدم أهليته وأن المستكفى عهد إلى ولده ، فكتب السلطان بقدوم أحمد وأقام الخطباء أربعة أشهر لا يذكرون فى خطبهم الخليفة ، وطلب السلطان إبراهيم وعرفه قبح سيرته فأظهر التوبة ، فاستدعى السلطان القضاة وعرفهم أنه أقام إبراهيم فى الخلافة وقال : إنه قد تاب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، فبايعوه ولقب بالواثق »(١) .

الصراعات الدينية والمذهبية

إلى جانب الصراعات الحربية بين الملوك والأمراء وخيانة الأقارب والأصدقاء كما أسلفنا ، كانت هناك صراعات دينية ومذهبية فكانت هناك صراعات بين المسلمين وجيرانهم من غير المسلمين ، وكانت هناك صراعات بين بعض الطوائف المسلمة كالرافضة وأهل السنة ، وكانت هناك جماعات دينية متطرفة لا تزال تثير المتاعب مع الجماعات الأخرى .

وذكر المقريزى فى حوادث سنة ٧١٤ شيئا من هذا الصراع حدث قبيل رحلة ابن بطوطة ، يقول : « وفى نصف المحرم اتفق أنه كان للنصارى مجتمع

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٤٣ بتصرف يوسف بن تغرى بردى المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

بالكنيسة المعلقة بمصر واستعاروا من قناديل الجامع العتيق جملة ، فقام فى إنكار ذلك الشيخ نور الدين على البكرى ، وجمع من البكرية ، وتوجه إلى المعلقة وهجم على النصارى وهم فى مجتمعهم وقناديلهم وشموعهم تزهر ، وأطفأ الشموع وأنزل القناديل ، فلما كان الغد عرف الفخر السلطان بما كان فأحضر السلطان القضاة والفقهاء وطلب البكرى ، وأشار البكرى إلى السلطان بكلام فيه جفاء وغلظة حتى غضب منه عند قوله : (أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر . وأنت وليت القبط المسألة وحكمتهم فى دولتك وفى المسلمين) . فلم يتمالك السلطان نفسه وأخذ السيف وهم بضربة ، فأمسك الأمير طغاى بيـــده ، ومازالو بالسلطان حتى رسم بإطلاقه وخروجه من مصر »(١) .

وأول صراع بين المسلمين والنصارى يحدثنا عنه ابن بطوطة صراع وقع بالإسكندرية سنة سبع وعشرين وسبعمائة ، يقول : إن والى الإسكندرية إنحاز إلى جانب تجار الروم من النصارى ، وإن الملك الناصر أرسل أميرين قتلا ستة وثلاثين رجلا وجعلا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين ، ومن قوله : « وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة ، وكان والى الإسكندرية رجلا يعرف بالكركى ، فذهب إلى جماعة الروم ، وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة ، وأغلق دونهم الأبواب نكالا لهم ، فأنكر الناس ذلك وكسروا الباب ، فتحصن منهم ، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر ، فبعث أميرا يعرف بالجمالى ، ثم أتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار متهم فى دينه يقال : إنه يعبد الشمس وقبضا على كبار أهلها وأخذا منهم الأموال الطائلة وقتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين ، وذلك فى يوم جمعة ، وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة

---

(١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ص ١٣٥ ـ دار الحكمة للطباعة والنشر.

القبور ، وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم »(١) .

ويبدو أن الصراع كان مستمرا بين المسلمين ودولة الروم ، وكانت القسطنطينية هدفا للمسلمين حتى إن البابا استنهض البلاد المسيحية لنجدة القسطنطينية ، يقول ابن بطوطة متحدثا عن سلطان مدينة يزمير المجاورة للقسطنطينية : « وكان هذا الأمير كريما صالحاً كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى ، إلى أن اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم إلى البابا ، فأمر نصارى جنوة وإفرانسة بغزوه ، وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا في عدد كثير من الأجفان ، وملكوا المرسى والمدينة ونزل إليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصارى بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها »(٢)

وفى الهند كانت الصراعات الدينية مشتعلة ، ويشير ابن بطوطة إلى ذلك بقوله : « وكان السلطان عين حصة يتوجه إلى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلي ، فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر ، وتخلف قوم منهم فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك ، فأمر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ، ففعل ذلك وقبض على ثلثمائة وخمسين منهما ، وأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا »(٣) .

وتحدث عن قتال بين ملك دهلي وأحد الملوك المجاورين له ، وكان النصر أولا لملك دهلي ، ثم دارت الدائرة على جيشه في موسم الأمطار ، يقول ابن بطوطة : « وجبل قراجيل(٤) جبل كبير وبينه وبين دهلي مسيرة عشر ، وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية إلى حرب هذا الجبل ومعه

---

(١) الرحلة ص ٤١ — (٢) الرحلة ص ٢٣٤

(٣) الرحلة ص ٥٤١ .

(٤) يقول المحقق : يسمى اليوم جبال الهيمالايا ، والدولة تسمى اليوم النيبال .

مائة ألف فارس فملك مدينة جدية وما يليها ، وفر الكفار إلى أعلى الجبل ، وللجبل طريق واحد ، فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التى بأعلى الجبل ، وكتبوا إلى السلطان بالفتح ، فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيـــل ، فكتب الأمراء إلى السلطان واستأذنوه فى الخروج عن الجبل والنزول إلى أسفله فأذن لهم فى ذلك ، فعندما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوى وأخذوا عليهم المضيق فهلك الكثير من الناس ، وأسر الباقون منهم ،وأخذ الكفار الأموال والخيل والسلاح »(١) .

وفى طريق ابن بطوطة من كول إلى دولة أباد وجد حصارا وقتالا بين المسلمين وكفار الهنود انتهى بانتصار المسلمين ، يقول ابن بطوطة : «كان السلطان الكافر قتم قد حاصر مدينة رابرى ، وكان أميرها خطاب الأفغانى وهو أحد الشجعان ، واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو فبعث أمير رابرى خطابا إلى السلطان يطلب منه الإغاثة ، فأبطأ عليه المدد فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلثمائة ، ومثلهم من المماليك ، ونحو أربعمائة من سائر الناس ، وجعلوا العمائم فى أعناق خيلهم وهى عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى ،وتقدم خطاب وقبيلته واتبعهم سائر الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة ، وكانوا نحو خمسة عشر ألفا ، فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانهم قتم ورجو وبعثوا برأسيهما إلى السلطان ، ولم ينج من الكفار إلا الشريد »(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن مجافاة الكفار للمسلمين ببلاد المليبار فيقول : « وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم فى آنيتهم ،

(١) الرحلة ص ٥٥٣ بتصرف (٢) الرحلة ص ٦٢٠ بتصرف

فإن طعم فيها كسروها أو أعطوها للمسلمين ، وإذا دخل المسلم موضعا منها لايكون فيه دار للمسلمين وطبخوا له الطعام صبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام ، وما فضل عنه يأكله الكلاب والطير »(١) .

أما الصراعات المذهبية فكثيرة وكانت أحيانا تنقلب إلى صراعات مسلحة تراق فيها الدماء ، ومن أبرز الصراعات التى يحدثنا عنها ابن بطوطة ذلك الصراع الذى كان ينشب بين الرافضة وأهل السنة ، وأول مايحدثنا ابن بطوطة عنهم ذكره أن بعضهم تحولوا إلى قطاع طرق فهو يقول: «أعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضة المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال ، وهم يتحصنون بتلك الغابة و يمتنعون بها ممن يريدهم »(٢) وهذا المكان قريب من البصرة .

وحاول الرافضة فى العراق أن يسقطوا أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر إلا اسم على ، ولكن الناس ثاروا وهددوا ، يقول ابن بطوطة: «كان ملك العراق السلطان محمد خذابنده قد صحبه فى حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مظهر ، فلما أسلم السلطان المذكور زاد فى تعظيم هذا الفقيه ، فزين له مذهب الروافض فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض ، فامتنع أهل السنة وقالوا : لاسمع ولا طاعة ، وأتوا المسجد الجامع فى يوم الجمعة ومعهم السلاح ، وبه رسول السلطان ، فحلفوا للخطيب أنه إن غير الخطبة المعتادة فإنهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ، وكان السلطان أمر أن يسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر إلا اسم على ومن تبعه كعمار ، فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة ، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٦٣٨ (٢) الرحلة ص ٢٠٤

(٣) الرحلة ص ٢٢٤ بتصرف .

ويذكر ابن بطوطة أن الرافضة فى خراسان تجمعوا وانثال عليهم أشياعهم وفر إليهم العبيد وكونوا جيشا وطمحوا إلى استئصال أهل السنة، وصار لهم سلطان وخليفة، يقول ابن بطوطة: «كان بخراسان رجلان أحدهما يسمى بمسعود، والآخر يسمى بمحمد، وكان لهما خمسة من الأصحاب وهم من الفتاك، فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسكنوا جبلا منيعا، وانثال عليهم أشياعهم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم وتسمى مسعود بالسلطان، وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليهم إليه، فعظم جيشه واستفحل أمره، وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض، وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان، وأن يجعلوها كلمة واحدة رافضية، وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة فوافقهم على ذلك وسموه الخليفة»(١).

وذكر ابن بطوطة أنهم انتصروا على أهل السنة فى عدة معارك، ثم دارت عليهم الدائرة فى نهاية الأمر ووقعوا بين قتيل وأسير.

على أن القتال كان ينشب بين الشيعة أنفسهم يقاتل بعضهم بعضا، فالاثنا عشرية يتقاتلون، يقول ابن بطوطة عند وصوله إلى مدينة الحلة من أعمال بغداد «وأهل هذه المدينة إمامية أثنا عشرية، وهم طائفتان، إحداهما تعرف بالأكراد، والأخرى تعرف بأهل الجامعين، والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم»(٢). ثم يقول عند حديثه عن كربلاء: «وأهل هذه المدينة طائفتان: أولاد رخيك وأولاد فائز، وبينهما القتال أبدا، وهم جميعا إمامية يرجعون إلى أب واحد، ولأجل فتنتهم خربت هذه المدينة»(٣).

وعندما زار ابن بطوطة عمان كان النبهانيون يحكمونها وهم يتبعون المذهب الإباضى، وذكر ابن بطوطة أن الحرب قائمة بينهم، ومن قوله: «ووصلت

---

(١) الرحلة ص ٤٢٥

(٢) الرحلة ص ٢٣٩

(٣) الرحلة ص ٢٤٠

إلى قاعدة هذه البلاد وهى مدينة نزوا والحرب قائمة فيما بينهم أبدا ، وهم أباضية المذهب ، ويصلون ظهرا أربعة (يقصدون ظهر الجمعة) فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلى ، ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه (العبد الصالح قامع الفتنة) . وسلطان عمان عربى من قبيلة الأزد ويعرف بأبى نبهان »[1] .

وهكذا نرى أن القتال كان مشتعلا بين المسلمين وغير المسلمين ، وبين طوائف مختلفة من الطوائف التى تدين بدين الإسلام ، وأن هذا كله أدى إلى التفكك وإلى ضعف القوة العسكرية ، وساد البلاد الإسلامية قلق دائم .

الترابط الروحى بين سائر الشعوب الإسلامية

امتدت رحلة ابن بطوطة إلى أطراف العالم الإسلامى ، وأكثر من نصف الرحلة كان خارج حدود العالم العربى ، وكان الإسلام قد أشرق نوره فى بلاد تركيا والدول المطلة على البحر الأسود التى تسمى اليوم بلغاريا ورومانيا والاتحاد السوفيتى[2] ، كما أشرق نور الإسلام فى الهند والصين وكثير من البلدان المجاورة لهاتين الدولتين الكبيرتين .

وعلى الرغم من الصراعات بين الحكام والصراعات المذهبية ، فإن الشعوب الإسلامية كان يربط بينها رباط روحى ، وكان الحب والحنين يعمران القلوب ، ويظهر ذلك فى التعاون بين الأفراد والترحيب بالضيوف

---

(١) الرحلة ص ٢٩٧ بتصرف .

(٢) تفكك الاتحاد السوفيتى حديثا واستقلت بعض الدول التى كانت مدمجة فيه .

وبناء الزوايا لاستقبال أبناء السبيل وتقديم القرى لهم وإمدادهم بكل ما يلزمهم، وقد لقى ابن بطوطة كثيرا من هذا الترحيب وهذه المساعدة وكانت الأسئلة توجه إليه فى شوق ولهفة عن الشعوب العربية والأراضى المقدسة حينما يعرفون أن ابن بطوطة قادم من البلاد العربية التى فيها ظهرت الديانة الإسلامية وظهر فيها النبى محمد عليه الصلاة والسلام ونزل القرآن الكريم بلغة أهلها.

وفى طريق ابن بطوطة إلى أصفهان وبعد خروجه من مدينة رامز يتحدث عن الزوايا وما يلقاه النازلون بها من حسن الضيافة فيقول: «وفى كل مرحلة زاوية وبها للوارد الخبز واللحم والحلواء، وفى كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذن والخادم للفقراء والعبيد يطبخون الطعام»(١).

ويتحدث ابن بطوطة عن مدينة شيراز وقد زارها ولقى فيها الترحيب ولقى قاضيها فسأله فى شغف عن المغرب ومصر والشام والحجاز، يقول ابن بطوطة: «وعند دخولى إلى مدينة شيراز قصدت الشيخ القاضى مجد الدين إسماعيل ابن محمد بن خداد فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابى فخرج إلى صلاة العصر وأخذ بيدى إلى أن وصل إلى مصلاه وصلى العصر، ثم سألنى عن حالى وكيفية قدومى، وسألنى عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك»(٢).

ويتحدث ابن بطوطة عن طائفة الإخية وأنهم يقدمون لزعيمهم كل ما يجتمع لهم يوميا، ويبنى زعيمهم زاوية ويعدها للنازلين، ويقدمون للنازلين كل ما يحتاجون إليه ولا يزالون عندهم حتى ينصرفوا(٣).

ومن مظاهر حب المسلمين للعرب ما رآه من اهتمام سلطان الهند بابن بطوطة وترحيبه به وسؤاله عن بلاده، يقول ابن بطوطة: «فقربت من السلطان

(١) الرحلة ص ٢١٢
(٢) الرحلة ص ٢٢٤
(٣) الرحلة ص ٣١٤

حتى أخذ بيدى وصافحنى وأمسك بيـــدى وجعل يخاطبنى بأحسن خطاب ويقول لى بالفارسى . « حلت البركة ، قدومك مبارك ، أجمع خاطرك أعمل معك من المراحم وأعطيك من الإنعام مايسمع به أهل بلدك فيأتون إليك» ثم سألنى عن بلادى فقلت له : بلاد المغرب ، فقال لى : بلاد عبد المؤمن ؟ فقلت له : نعم ، وخلع على وانصرفت »(١) .

وفى بلاد قالقوط وجد ابن بطوطة أحـــد خواص سلطان المليبار يستجلب من قدر عليه من العرب لمحبة السلطان فى العرب ، يقول ابن بطوطة « فعدت إلى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبى الحسن ، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته فى العرب »(٢) .

وحتى المسيحيون خارج البلاد العربية كانوا يحنون إلى الأراضى المقدسة ويسألون القادمين عنها كما فعل سلطان القسطنطينية ، يقول ابن بطوطة : « دخلنا على السلطان واسمه تكفور فسلمت عليه، وأشار أن أجلس فلم أفعل، وسألنى عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فأجبته عن ذلك كله ، واليهودى يترجم بينى وبينه فأعجبه كلامى وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وآمنوه ثم خلع على خلعة »(٣) .

ومن مظاهر التفاف قلوب المسلمين حول هدف واحد ما رأيناه من إرسال الهدايا إلى الخليفة العباسى بمصر وطلب السلاطين منه أن يرسل إليهم أمر التقدمة على بلادهم نيابة عنه . وأوضح مايدل عليه ذلك احترامهم

---

(١) الرحلة ص ٥٨٠ (٢) الرحلة ص ٦٥٠

(٣) الرحلة ص ٣٨٧ بتصرف .

للخلافة الإسلامية ولآل بيت الرسول العربى عليه السلام ، ومن قوله ابن بطوطة : « وكان سلطان الهند قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبى العباس وطلب أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقاداً منه فى الخلافة ، فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين »(١) .

ومن أبرز ما يصور هذا الحب لآل النبى حبا خالصا من المنفعة المادية ماذكره ابن بطوطة عن سلطان الهند أيضاً إذ يقول : « وكان عبد العزيز الأردويلى فقيها محدثا قرأ بدمشق ، ثم قدم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه ، واتفق يوما أن سرد عليه أحاديث فى كرم العباس وابنه رضى الله عنهما ، وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه فى بنى العباس ، وقبل قدمى الفقية ، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها الفا تنكة فصبها عليه بيده وقال : هى لك مع الصينية »(٢) .

العدالة بين الناس وإحترام القضاة

كان الحكام فى تلك الفترة يحكمون بلادهم استبداديا ، وكان القتل والسلخ جزاء لمن تحدثه نفسه بالخروج على الحاكم أو عصيان أوامره ، ولكن كثيرا من هؤلاء الحكام كانوا يراعون العدالة بين عامة الناس مالم يمس سلطانهم وكانوا يجلسون لسماع المظالم وإنصاف المظلومين ، ومن كان القضاة يلقون من الحكام كل تقدير وتبجيل ، وكانت عطايا الحكام تكفل للقضاة حياة كريمة .

ويتحدث ابن بطوطة عن عدالة القضاة فى مصر والسماح لكل مظلوم بالدخول على القاضى(٣) ، ويتحدث عن الملك الناصر سلطان مصر واحترامه

---

(١) الرحلة ص ٥٢٣ .

(٢) الرحلة ص ٥٢٤ .

(٣) الرحلة ص ٦٠

القضاة وجلوسه بنفسه لسماع الشكاوى وإنصاف المظلومين ، ومن قول ابن بطوطة : « ومنهم قاضى قضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى وكان شديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقال الملك الناصر يوما لجلسائه : إنى لا أخاف عن أحد إلا من شمس الدين الحريرى ، وكان الملك الناصر يقعد للنظر فى المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ، ويقعد القضاة الأربعة عن يساره ، وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها »(١) .

ويحكى ابن بطوطة عن شدة الحكام فى عقاب الظالمين ، وكانت الشام فى ذلك الوقت تابعة لسلطان مصر الملك الناصر ، ومما حكاه عن حاكم طرابلس : « وكان سندمور أمير هذه المدينة ، ويذكر عنه أخبار كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات ، منها أن امرأة شكت إليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، فأمر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه »(٢) .

وكان سلطان الهند يعظم القضاة ويخاطب بعضهم بالأخ ، يقول ابن بطوطة متحدثا عن سلطان الهند : « واجتمع الواردون فمد لهم سماط ، ووقف على رءوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمى وقاضى قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوى ، وحضر خداوند زاده غياث الدين ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضى ترمذ الذى قدم معنا ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ ، وتردد إليه مرارا من بلاده »(٣) .

ويتحدث ابن بطوطة عن عدل السلطان أبى عنان سلطان المغرب فيقول : « فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن

---

(١) الرحلة ص ٦٠ .
(٢) الرحلة ص ٨٤ .
(٣) الرحلة ص ٥٨١

بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة ، فإن كانت متظلمة عجل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها ، ثم إذا صليت صلاة العصر ترئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ، ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية »(١) .

تقديس الحكام

يتضح لقارىء رحلة ابن بطوطة أن الشعوب فى تلك الفترة كانت تبالغ فى مدح رؤسائها وتقديس حكامها ، وفى مطلع الرحلة يشيد ابن بطوطة بسلطان المغرب وبوالده ويكيل لهم المدح بلا حساب فيقول : « وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين الذى رويت أخبار جوده وصولة الإسناد بالإسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله ، الإمام المقدس أبو سعيد بن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذى فل حد الشرك صدق عزائمه ، وأطفأت نور الكفر جداول صارمة ، وكرمت فى إخلاص الجهاد مذاهبه ، الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق ، جدد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدسة صوب الحياطلة وتهتانه ، وجزاهم أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين ، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين »(٢) .

وفى رحلة العودة وعند وصوله إلى مدينة تونس يعيد ما سبق ويزيد عليه فيقول : « فوصلت إلى مدينة تونس ، وكانت تونس فى إيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين ، علم الأعلام وأوحد

---

(١) الرحلة ص ٧٦٠ (٢) الرحلة ص ٣٠

الملوك الكرام، أسد الآساد وجواد الأجواد، القانت الأواب الخاشع العادل أبي الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ناصر دين الإسلام، الذى سارت الأمثال بجوده، وشاع فى الأقطار أثر كرمه وفضله. ذى المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد فى سبيل رب العالمين، الشديد السطوة فى ذات الرحمان العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبى يوسف بن عبد الحق رضى الله عنهم أجمعين وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين(١) .

ثم اتجه إلى المغرب وكان سلطانها أبا عنان، ونراه يكيل له المدح كما سبق(٢)، وبعد صفحة واحدة نراه يخصص فصلا للحديث عن فضائل السلطان أبى عنان، ويورد حديثا عن عدله وحديثا عن حلمه وحديثا عن شجاعته وحديثا عن اشتغاله بالعلم، وحديثا عن صدقاته الجارية وعمارة الزوايا، وحديثا عن رفعه المظالم عن الرعية، وحديثا عن كفه أيدى الظلمة، وحديثا عن معاونته أهل الأندلس على الجهاد، وحديثا عن عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء(٣) .

أما وصف مواكب السلاطين وخضوع الناس لهم فقد أسهب ابن بطوطة فى تلك الأحاديث، ونكتفى بأسطر من وصفه لموكب سلطان الهند، يقول: «ويركب قاضى القضاة وسائر القضاة وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل، ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون، ويخرج السلطان من باب القصر والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه، فيتقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة، وأمامهم القضاة والمؤذنون

(١) الرحلة ص ٧٥٥

(٢) الرحلة ص ٧٥٨

(٣) الرحلة ص ٧٦٠ .

يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهى الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته إلخ »(١) .

وفى حديث ابن بطوطة عن سلطان مدينة مالى يورد حديثا يوضح مدى خضوع الناس للسلطان وتذللهم أمامه تذللا مهينا ، يقول ابن بطوطة : « والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ، ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كى(٢) . فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشيه وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلة ومسكنة فضرب الأرض بمرفقيه ضرابا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه ، وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره »(٣) .

وبلغ الأمر أن بعض الناس كانوا يقتلون أنفسهم فى حب السلطان ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن سلطان جاوة : « ورأيت فى مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين قد وضعه على رقبـــة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين ، فعجبت من شأنه ، وقال لى السلطان : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم فى محبتنا ، وأمر به فرفع وأحرق ، وخرج لإحراقه منواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأخبرنى من كان حاضرا فى ذلك المجلس أن الكلام الذى تكلم به كان تقريرا لمحبته فى السلطان وأنه يقتل نفسه فى حبه كما قتل أبوه نفسه فى حب أبيه ، وجده نفسه فى حب جده »(٤) .

---

(١) الرحلة ص ٥١٦ .

(٢) منسى معناه السلطان ، وسليمان اسم ، وكى قسم .

(٣) الرحلة ص ٧٨٤ (٤) الرحلة ص ٧١٣

الفصل الثاني

الحيـــاة الاجتماعية

الطبقات الاجتماعية

المتصفح فى رحلة ابن بطوطة يرى الناس مقسمين طبقات بحسب مراتبهم الاجتماعية ، ولا غرابة فى ذلك ، فالتفاوت الطبقى موجود فى كل المجتمعات وتقدير الناس بحسب مراكزهم ومهنهم وضع مألوف .

وكان الناس فى تلك الفترة ينقسمون إلى مراتب . الحكام والأمراء ، ثم العلماء والقضاة ورجال الدين ، ثم التجار وأصحاب الحرف ، وهناك الفقراء والمتعطلون الذين يعيشون فى الزوايا وحلقات الذكر .

كان الملوك والسلاطين يحكمون حكما مطلقا ، وكانوا يعيشون فى ترف وتبذير وكانت الشعوب تقدس الحكام ولا تعترض عليهم ، وكان الأمراء على دين ملوكهم يتعالون على الشعب ويعيشون فى ترف ، ولا يمنع هذا أن السلاطين والأمراء كانوا يعطون بسخاء ويتنافسون فى أعمال الخير .

يحدثنا ابن بطوطة عن الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر والشام فيتحدث عن عدله وسخائه ، ويقول فى ناظر جيشه فخر الدين القبطى : «ومن عادته أن يجلس عشى النهار فى مجلس له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد ، فإذا حضر المغرب صلى فى المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ، ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان ، فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ، ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ أن يصحبه إلى خارج الدار وهنالك خازنة معه صور الدراهم فيعطيه ما قدر له »(1) .

وكذلك كان سلطان اليمن يعيش فى بذخ ومغالاة فى المظهر ، وفيه يقول

---

(1) الرحلة ص ٦٠ .

ابن بطوطة : « وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ثم يرفعها إلى رأسه ويقول : أدام الله عزك ، وكان وزيره بين يديه فأمره بإكرامى وإنزالى ، وترتيب قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم أصحاب القسى ، وبين أيديهم فى الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار (١) والشاويشية وقوف على بعد فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة (بسم الله) ، فإذا قام فعلوا مثل ذلك ولا يقعد إلا من أمر بالقعود ، ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان : طعام العامة وطعام الخاصة »(٢) ويذكر ابن بطوطة أن هذه التقاليد موجودة فى الهند .

أما عن تبذير السلاطين وإطلاق يدهم فى الإنفاق بدون حساب فيكفى أن نقرأ ما قاله ابن بطوطة عن ملك الهند : اشتكى مرة أمير بخت الملقب بشرف الدين بحضرة ملك الهند فأتاه الملك عائدا ، ولما دخل عليه أراد القيام فحلف له الملك ألا ينزل عن كتته - والكت السرير - ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة ، فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فأحضرا ، وأمر المريض أن يقعد فى إحدى كفتى الميزان ، فقال : ياخوند عالم ، لو علمت أنه يفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة ، فقال له . البس الآن جميع ما عندك من الثياب ، فلبس الثياب المعدة للبرد المحشوة بالقطن ، وقعد فى كفة الميزان ، ووضع الذهب فى الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب »(٣) .

أما القضاة والعلماء فكانوا طبقة ممتازة فى المجتمع يتمتعون باحترام الحكام واحترام الشعب ، وكانوا على درجة من الثراء لابأس بها ، وعندما وصل ابن بطوطة إلى تلمسان وجد رسولى ملك أفريقية وهما قاض وعالم (٤)

---

(١) الجنادرة رجال الشرطة ، فارسى .
(٢) الرحلة ص ٢٧٤ بتصرف .
(٣) الرحلة ص ٢٣٠ .
(٤) الرحلة ص ٣٠ .

ولولا مكانتهما السامية ما اختارهما السلطان رسولين له ، والرحلة مملوءة بأسماء القضاة والعلماء ومظاهر مكانتهم العالية .

وفى حديثه عن مصر يذكر أسماء قضاة المذاهب الأربعة بمصر ويتحدث عن مكانتهم العالية ، ومن قوله : « ومنهم قاضى قضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى ، وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى »(١).

ويذكر أسماء عديد من العلماء فى مختلف العلوم، ومن قوله : « ومن علماء مصر وأعيانها شمس الدين الأصبهانى إمام الدنيا فى المعقولات ومنهم بهاء الدين ابن عقيل فقيه كبير ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان، وهو أعلمهم بالنحو »(٢) . ثم يقول : « ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقية الإمام الشافعى مجد الدين بن حرمى ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتى من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه »(٣) .

وكان العلم يرفع أقدار عامة الناس، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة عدن : « ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى ، وكان والده من العبيد الحمالين ، واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد ، وهو من خيار القضاة وفضلائهم ، أقمت فى ضيافته أياما »(٤) .

وكان العلماء فى الهند يلقون كل احترام وإكرام ، ومما ذكره ابن بطوطة عن ملك الهند : « وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردويلى .وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق فتفقه فيه ، فجعل مرتبه مائة دينار دارهم فى اليوم ، وحضر مجلسه

---

(١) الرحلة ص ٦٠

(٢) الرحلة ص ٦١

(٣) الرحلة ص ٦٢ .

(٤) الرحلة ص ٢٧٧

يوما عن حديث فسأله فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى ، فأعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما رآه ، ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه ، وأمر بإحضار صينية من ذهب وأمر أن يأتى فيها ألف دينار من الذهب ، وأخذها السلطان بيده فصبها عليه وقال : هى لك مع الصينية »(١) .

وكان التجار يتمتعون بقدر كبير من الثراء ، وبعضهم كان يملك المراكب التى تسير فى البحار وتنقل البضائع وتدر عليهم الأرباح الوفيرة ، ومما يصور ذلك قوله فى حديثه عن مدينة عدن إذ يقول : « وهى مرسى أهل الهند يأتى إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندرانية والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها ، وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضا ، وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك ، وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، ولهم فى ذلك مفاخر ومباهاة ، ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفأرى وكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار ، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك »(٢) .

أما أصحاب الحرف فلم يكونوا من ذوى الثراء ولكن كثيرين منهم — على ما يبدو — كانوا ذوى نخوة وشهامة ويبدو أنهم كانوا يكونون فى بعض البلدان ما يشبه النقابات فى وقتنا الحاضر ، ويتحدث ابن بطوطة عن جماعة الإخية وأنهم كانوا يختارون زعيما لهم يقدمون إليه ما يحصلون عليه طول اليوم ، وأنهم يستقبلون الواردين ويكرمونهم طوال إقامتهم بينهم ، وأنهم كانوا يجتمعون على الطعام والغناء والرقص ، يقول ابن بطوطة : « ولا يوجد

---

(١) الرحلة ص ٢٣١ (٢) الرحلة ص ٢٧٦

فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس ، وأسرع الى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة وقتل أهل الشرط ومن ألحق بهم من أهل الشر ، والأخى عندهم رجل يجتمع أهل الصناعة وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ويقـــدمونه على أنفسهم ، ويبنى زاوية ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فإن ورد فى ذاك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافة لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف ، وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا إلى صناعتهم بالغد »(١) .

ووصف مجلسهم ومليسهم حين اجتمع بهم فقال : « وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية ، وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ، ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم »(٢) .

أما الفقراء والمتعطلون فكانوا كثيرين وكانوا يظهرون على صور مختلفة وقد تحدث عنهم ابن بطوطة فى مواقف كثيرة ، ودلل على أن المجتمع كان يفرق فى النظرة والمعاملة بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، وفى حديثه عن مدينة دمياط يقول : « وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاغد يتظهر بها لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به »(٣) .

وذكر ابن بطوطة أن بعض الفقراء كانت تصرف لهم رواتب من

---

(١) الرحلة ص٣١٤ بتصرف . (٢) الرحلة ص ٣١٥

(٣) الرحلة ص ٤٨ .

الأوقاف ، وفى حديثه عن مدينـــة أسيوط يقول : «وقاضيها شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) . وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها فيعطيه ما قدر له ، فكان القاضى إذا أتاه الفقير يقول له : (حاصل ماثم) أى لم يبق من المال الحاصل شىء ، فلقت بذلك ولزمه »(١).

وفى دمشق كانوا يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس ، وكان الفقراء يجدون فى رحابها أرزاقهم ، «وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجىء إليه فيه رزقه ، أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة ومن كان من أهل المهنة الخدمة فله أسباب أخرى من حراسة بستان وأمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا »(٢) .

وكان بعض فقراء مكة يفرغ نفسه للعبـــادة ، وبعضهم يعيش على الصدقات ، يقول ابن بطوطة : «ومن المجاورين بمكة الإمام العالم الصوفى عفيف الدين عبد الله بن أسعد الشهير باليافعى ، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلى الصبح وكان متزوجا بنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان ، فلا زالت تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر ، فأقامت معه على ذلك سنتين ثم فارقته »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٦٦ (٢) الرحلة ص ١١٨ بتصرف .

(٣) الرحلة ص ١٧٢ بتصرف .

وفى بلاد المليبار كانوا يستأجرون الحمالين من العبيد والمستأجرين يحملون ذوى اليسار ويحملون أمتعتهم ، يقول ابن بطوطة : « وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين ، ومن لم يركب فى دولة مشى على قدميه ، ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على(١) ظهورهم .

وفى الصين كانوا يبيعون أولادهم ، يقول ابن بطوطة : « والجوارى رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم ، وليس ذلك عيبا عندهم »(٢) .

الزوايا والمدارس والخوانق والرباطات

سادت الشعوب الإسلامية روح التعاون ، وكان السخاء صفة بارزة بين الناس ، كما كان صفـــة بارزة لبعض الحاكمين ، وتنافس الموسرون وبعض الرؤساء فى بناء الزوايا والخوانق والمدارس والرباطات والأروقة وكانت كلها دور ضيافة كما كانت دور عبادة ، وأدت دورا مهما فى إيواء أبناء السبيل والفقراء ، كما كانت مأوى لفقراء المتصوفة ، ومن قول ابن بطوطة عند دخوله مصر ووصوله إلى مدينة ماطين(٣) : « ونزلت بزاوية الشيخ شمس الدين الفلوى من الصالحين »(٤) . وفى حديثه عن مدينة دمياط عند دخوله إليها يقول : « وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده »(٥) .

---

(١) الرحلة ص ٦٣٨

(٢) الرحلة ص ٧٢١

(٣) تسمى اليوم بلطيم .

(٤) الرحلة ص ٤٨ — ٤١

(٥) الرحلة ص ٥٠ .

ويتحدث ابن بطوطة عن مدينة القاهرة فيذكر أن الأمراء يتنافسون فى بناء الزوايا ويسمونها الخوانق ، وإن الصوفية ويقصدونها ويقيمون بها ، ويتحدث حديثا مطولا عن نظمها وشيوخها وحراسها وطعامها والعبادة بها . ومن قوله : « وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق وإحداها خانقة ، والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا ، وكل زاوية معينة لطائفة من الفقراء وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس ومن عوائدهم فى الطعام أن يأتى خديم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد مايشتهيه من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزة ومرقة فى إناء على حدة ، وطعامهم مرتان فى اليوم ؛ ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى ، ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أثوابهم ، والأجر لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب ، وللمتزوجين زوايا على حدة ، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية ، وإذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ويذكرون ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر ، ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة ، وبيده العكاز ، وبيسراه الإبريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله : من أى البلاد أتى ؟ ومن شيخه ؟ . فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجادته ، ويصافح الشيخ ومن حضره(١) .

ويذكر ابن بطوطة أنهم بمصر يبنون الزوايا والمدارس والرباطات بجوار القرافة ، يقول : « ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة ، ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس

---

(١) الرحلة ص ٥٤ بتصرف .

الحسين بن علي عليهما السلام ، وعليه رباط ضخم عجيب البناء »(١) . ويذكر أن الملك النـــاصر سلطان مصر بنى زاوية بسريا قص(٢) خارج القاهرة لخدمة الحجاج المسافرين إلى الأراضى المقدسة ، وأن السلطان أباعنان سلطان المغرب بنى زاوية أيضا »(٣) .

وقد تحدث المقريزى عن الزاوية الضخمة بسرياقوس فى حديثـه عن حوادث سنة ٧٢٥ هـ ؛ ومن قوله : « وفيه خرج السلطان إلى سرياقوس ، ومعه عدد من المهندسين ، وعين موضعا لتبنى فيه خانـكاه بها مائة خلوه لمائة صوفى ، وبجانبها جامع تقام فيه الجمعة ، ومـكان برسم ضيافة الواردين ، وحمام ومطبخ ، ورتب السلطان لها قصورا برسم الأمراء الخاصـكية وعاد ثم وقع الاهتمام بالعمل حتى كملت فى أربعين يوما »(٤) .

وكان بالشام أيضا كثير من الزوايا ، ويتحدث ابن بطوطة عن زاوية علاء الدين البهاء أحد فضلاء اللاذقية(٥) . وعندما وصل إلى دمشق نزل بمدرسة المالـكية(٦) . وكان العراق عامراً بالزوايا والمداوس والخوانق ، يقول ابن بطوطة : « وبإزاء قبر على المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة . ويدخل من باب الحجرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ، ولـكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم »(٧) .

---

(١) الرحلة ص ٥٥ .

(٢) سرياقوس قرية من قرى شبين القناطر .

(٣) الرحلة ص ٥٩

(٤) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/٢٦١ - أحمد بن على المقريزى - دار الحـكمة للطباعة والنشر .

(٥) الرحلة ص ٩٨ (٦) الرحلة ص ١٠٢

(٧) الرحلة ص ١٩٨ بتصرف .

وزار ابن بطوطة مدينة واسط وتحدث عن مدرسة بها ثلثمائة خلوة ينزلها الغرباء ، وتحدث عن رواق به آلاف الفقراء(١) ، وفى حديثه عن خراسان يقول : « وفى كل مرحلة زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء »(٢) .

وكان بمكة كثير من الزوايا والمدارس والرباطات ، يقول ابن بطوطة: « وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن ، وبمقربة من باب إبراهيم رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات وبين الصفا والمروة دار العباس رضى الله عنه وهى الآن رباط يقطنه المجاورون عمره الملك الناصر »(٣) .

ولم تكن العطاءات مقصورة على الصور التى قدمناها يقدمون العطاء خارج الزوايا يقول ابن بطوطة فى أهل مكة : « ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ منها بالطعام للفقراء المنقطعين . وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم ، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله يتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ماقسم له ، ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان فيأتى الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشترون الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك الصبى فيجعل الحبوب فى إحدى قفتيه واللحم والخضر فى الأخرى(٤) .

وذكر ابن بطوطة أن أهل الحجاز والطائف يوصلون النذور والأطعمة إلى بعض الرباطات ، يقول عن رباط ربيع : « وهو من أحسن الرباطات بمكة وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور ، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ، ومن عاداتهم أن كل من له بستان يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك إليه على جمالهم »(٥) .

(١) الرحلة ٢٠٥ . (٢) الرحلة ص ٢١٢ .
(٣) الرحلة ص ١٦٠ وما بعدها بتصرف .
(٤) الرحلة ص ١٦٨ بتصرف . (٥) الرحلة ص ١٧٣

وكانت الهند عامرة بالزوايا ، ومن قول ابن بطوطة : « وفى كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر ، فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد فى ذلك الطريق »(١) وفى حديثه عن مدينة دهلى يقول : « وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف من »(٢) .

وفى بلاد المليبار كانوا يقيمون الزوايا ويحبسون البساتين عليها ، يقول ابن بطوطة : « ثم سافرنا إلى مدينة صاغر ، وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر ، وكل من يبنى زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده ، فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة »(٣).

وإلى جانب ذلك كانت الفنادق منتشرة ينزل بها المسافرون ، يقول ابن بطوطة : « ثم وصلت إلى الصالحية ، ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ، بكل منزل منها فندق ، وهم يسمونه الخان ، ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان سافية للسبيل ، وحانوت يشترى منه المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته »(٤) .

وكان الأثرياء يستضيفون الغرباء والفقراء ويقدمون لهم القرى ، ومن قول ابن بطوطة : « وسرنا فى الضيافة تتغدى بقرية ونتعشى بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قبخنفو ، وعند وصولنا خرج إلينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار وأتونا بالخيل فركبنا ودخلنا المدينة ، وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلانى »(٥) .

ونضيف إلى ماتقدم أن بعض الأديرة كانت تستضيف النازلين من النصارى والمسلمين ، ويقومون لهم المأوى والطعام ، وتحدث ابن بطوطة عن

---

(١) الرحلة ص ٤٩٨ (٢) الرحلة ص ٦٠٠ .
(٣) الرحلة ص ٦٢٩ . (٤) الرحلة ص ٧٠
(٥) الرحلة ص ٧٣٦ .

دير خارج اللاذقية، يقول: «وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل البكر»(١).

الجماعات والطرق الصوفية

انتشرت فى أنحاء العالم الإسلامى شرقه وغربه جماعات الطرق الصوفية، ومعظم الجماعات التى تحدث عنها ابن بطوطة جماعات دينية متصلة بالدين بشكل من الأشكال سواء كانت معتقداتها سليمة أم مشوهة، وهذه الجماعات المنتشرة فى العالم الإسلامى مظهر اجتماعى يسترعى الانتباه، وهى إلى جانب هذا مظهر دينى لاتصالها بالدين بشكل من الأشكال، وسنتحدث عن الجماعات الدينية والطرق الصوفية عند حديثنا عن الحياة الدينية، وإنما نستعرض هذه الجماعات باعتبارها مظهرا اجتماعيا.

ويرجع انتشار الطرق الصوفية إلى سوء الحالة السياسية والفقر الذى تفشى بين بعض الطبقات، حيث ضاقت هذه الطبقات بالساسة، وضاقوا بالفقر الذى أحاط بهم، فالتفوا حول رجال التصوف ورجال الطرق يطلبون عندهم الخلاص، أويمنون أنفسهم بالانغماس فى الروحانية ورحب الحكام بهذه التجمعات التى تصرف الناس عن الاشتغال بالسياسة وتغرقهم فى أوهامهم.

تحدث ابن بطوطة عن فرقة القلندرية الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم، وكانوا بمصر، ورأى زعيمهم بمدينة دمياط(٢) كما كانوا بالعراق ورأى أميرهم

---

(١) الرحلة ص ٩٩

(٢) الرحلة ص ٤٩

بمكة وكان أمير ركب الحجيج(١) ، كما تحدث عن فرقة النصيرية بالشام وذكر أنهم يعتقدون أن على بن أبى طالب إله ، فهم من الشيعة المتطرفة .

وفى مدينة واسط بالعراق ذهب لزيارة قبر أبى العباس أحمد الرفاعى قدوة طائفة الرفاعية ، وهذه الطائفة مازالت موجودة إلى أيامنا هذه ومنتشرة انتشارا واسعا فى كثير من البلدان الإسلامية ومنها مصر ، وفى إحدى قرى مدينة واسط رأى الشيخ أحمد كوجك حفيد أبى العباس الرفاعى وتحدث ابن بطوطة عن عادات الرفاعية وطقوسهم وأطعمتهم ،(٢) .

وهناك وصل جماعة من الفقراء ينتمون إلى الطائفة الحيدرية ومقرهم خراسان وهم يخوضون النار ويتمرغون فيها ويلبسون أطواق الحديد ولا يتزوجون(٣) .

وفى مدينة قونية توجد طائفة الجلالية نسبة إلى شيخهم جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان فقيها مدرسا ثم هام على وجهه ، وجمع أتباعه كلام وألفوا منه كتابا يقرءونه بزواياهم فى ليالى الجمعات(٤) .

وفى بلاد السند توجد جماعة يقال لهم السامرة ، وهم قوم انعزاليون لا يأكلون مع أحد ، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحدا ولا يصاهر إليهم أحد(٥) .

وكان المتصوفة منتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى ، وكان عامة الناس يعتقدون فى تقواهم ، ويعتقدون فى قدرة زعمائهم على خوارق الأشياء ، وكان المتصوفة ينزلون الزوايا والرباطات وأمثالها ، وكانوا يجدون المأوى والمأكل

---

(١) الرحلة ص ١٩٠ . (٢) الرحلة ص ٢٠٥

(٣) الرحلة ص ٢٠٦ ، ٤٣٢ (٤) الرحلة ص ٣٢٢

(٥) الرحلة ص ٤٥١

والمشرب وكان بعض الأثرياء ينفقون عليهم ويخصصون لهم رواتب جارية ، واطمأن المتصوفة إلى هذه الحياة السهلة وآثروها على حياة الكد والجهاد .

أما الجماعات السياسية فقد تحدث ابن بطوطة عن جماعتين هما الحرافيش بمصر والشام والإسماعيلية الفداوية بالشام ، وقد أسلفنا الحديث عنهما فى حديثنا عن الحياة السياسية ، وكانت جماعة الحرافيش بمصر والشام ، ووصفهم ابن بطوطة بأنهم « طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة »(١) .

أما الإسماعيلية الفداوية فكانوا بالشام وكانوا قديما أعوانا للصليبيين ، واستطاع الظاهر بيبرس أن يكسر شوكتهم ، ولما جاء الملك الناصر محمد ابن قلاوون استطاع أن يجتذبهم إلى صفوفه ، ووصفهم ابن بطوطة بأنهم (سهام الملك الناصر)(٢) . وكان الملك الناصر يستخدمهم فى اغتيال خصومه وكانوا يعيشون حياة فدائية نظير مكافآت مالية كبيرة .

الأعياد والمواكب

تحدث ابن بطوطة عن الأعياد والمناسبات التى يحتفل بها المسلمون ، ووصف اللباس الذى يرتديه الناس ، ووصف المواكب التى تخرج فى هذه المناسبات كما وصف مواكب الملوك وما يجرى فيها .

وأول ماذكره ابن بطوطة من هذا أن الناس فى تونس يلبسون أحسن الملابس فى العيد . ويخرج السلطان فى موكب إلى المسجد حيث يؤدون صلاة العيد . ويصحبه خواصه وخدمه . يقول : « وأظلنى بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم . وبرزوا فى أجمل هيئة وأكمل شاره ووافى المسجد السلطان أبو يحيى راكبا . وجمع أقاربه وخواصه وخدمة

---

(١) الرحلة ص ٥٩ (٢) الرحلة ص ٩٣

مماليكه مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب ، وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس إلى منازلهم »(١) .

وكانوا يحتفلون باستطلاع هلال رمضان ، ويخرج العلماء فى جماعات من الشعب لاستطلاعه ، ثم يعودون وبين أيديهم الشموع والفوانيس ، يقول ابن بطوطة فى وصف هذا الاحتفال بمصر : « وحضرت يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه أجمعين ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتقب الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون ، وهكذا فعلهم فى كل سنة »(٢) .

وفى مصر يحتفلون أيضا بيوم المحمل ، ويكون ذلك فى شهر رجب ، ويكون الاحتفال رسميا وشعبيا ، يقول ابن بطوطة : « يوم المحمل هو يوم دوران الجمل ، يوم مشهود ، وكيفية ترتيبهم فيه أن يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره والسقاءون على جمالهم ، ويجتمع لذلك

(١) الرحلة ص ٣٣ (٢) الرحلة ص ٤٦

أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل ، والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك فى رجب »(١) .

ويحتفل المسلمون فى بلادهم بيوم عرفة فيقفون فى المساجد الكبرى داعين الله من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس ، ومن قول ابن بطوطة : « ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها ، ويقف بهم أئمتهم كاشفى رءوسهم داعين خاضعين خاشعين متلمسين البركة ويتوخون الساعة التى يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ماحرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات ، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه »(٢) .

وكانوا يحتفلون باستهلال الشهور العربية ويحتفلون بالمناسبات الدينية ، ويصف ابن بطوطة احتفال أهل مكة بعمرة رجب فيقول : « وشاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع ، والجمال مزينة مقلدة بقلائد والحرير ، وأستار الهوادج صافية تكاد تمس الأرض فهى كالقباب المضروبة ، ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج ، والنيران مشتعلة بجنبى الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الهوادج ، فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعى بين الصفا والمرة بعد مضى شىء من الليل ، والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات على هوادجهن »(٣) .

ويتحدث عن احتفالهم بليلة النصف من شعبان(٤) ويحتفلون إذا أهل

(١) الرحلة ص ٦٢ .
(٢) الرحلة ص ١٢٠ .
(٣) الرحلة ص ١٨٢ .
(٤) الرحلة ص ١٨٣

هلال رمضان(١) . ويحتفلون فى أول شوال وهو مفتتح أشهر الحج فيوقدون المشاعل ليلة استهلال الشهر ، ثم يؤدون صلاة الصبح ويلبسون أحسن ثيابهم ويبادرون إلى المسجد الحرام لأداء صلاة العيد(٢) ، وتقام الاحتفالات فى أول شهر ذى الحجة(٣) ، وفى يوم النحر يحتفلون بإسبال الكسوة على الكعبة الشريفة(٤) .

وفى مدينة النجف وفى ليلة السابع والعشرين من رجب يحتفلون بليلة المحيا كما يسمونها ، ويكون الاحتفال حول قبر على بن أبى طالب رضى الله عنه ويقول ابن بطوطة . « يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم ، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم ، وهم مابين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة ، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه قام الجميع أصحاء وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، على ولى الله ، وهذا أمر مستفيض سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة »(٥) .

وكانت الشعوب كما أسلفنا تعظم سلاطينها ، وكان السلاطين يخرجون فى مواكب فخمة تحدث ابن بطوطة عنها فأطال فى وصفها ، وفى حديثه عن موكب سلطان بغداد يقول : « ثم خرجت من بغداد فى معية السلطان وغرضى أن أشاهد ترتيب ملك العراق فى رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره ، وعادتهم أنهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى ، وترتيبهم أنه يأتى كل أمير بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف على موضع لا يتعداه ، فإذا توفوا جميعا ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره ، ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب

---

(١) الرحلة ص ١٨٤
(٢) الرحلة ص ١٨٥ بتصرف
(٣) الرحلة ص ١٨٦
(٤) الرحلة ص ١٨٨ .
(٥) الرحلة ص ١٩٩ .

وهم نحو المائة رجل عليهم الثياب الحسنة ، وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس سريانات ، فيضربون تلك الأطبال والسريانات ، ثم أمسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم إلى أن تتم عشر نوبات ، ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنفار والبوقات ، ثم مماليك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم ، ويتولى ذلك كله أمير جند »(١) .

ووصف ابن بطوطة موكب الخواتين من نساء السلطان فى تركيا(٢) . ووصف موكب السلطان أيضا(٣) . وعندما كان يسافرون بحرا كانت السفن تزين وتحتشد الحاشية ، ويصحبهم أهل الطرب ، وتمد الموائد الحافلة بأشهى الأطعمة(٤)

وأفخم المواكب التى صورها ابن بطوطة موكب سلطان الهند واستغرق فى ذلك صفحات عديدة ، ومن قوله : « فإذا كان صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ، ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد إنما هى مختصة بركوب السلطان ، ويرفع عليها ستة عشر شطرا من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص ، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ، ويركب السلطان فيلا منها ، وترفع أمامه الغاشية وهى ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر ، ويمشى بين يديه عبيده ومماليكه ، وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وبعضهم يرصعها بالجوهر ، ويمشى بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة ، وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب ، وعلى وسطه منطقة

---

(١) الرحلة ص ٢٥١ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٣٦٨
(٣) الرحلة ص ٣٧٦
(٤) الرحلة ص ٤٥٦ .

ذهب ، وفى يده مقرعة نصابها ذهب الخ »(١). ويستمر فيتحدث عن الطبول والأعلام وكبار المرافقين .

وسلطان مالى وإن لم يكن على درجة من الثراء والترف تماثل درجة سلطان الهند فإنه كان يخرج فى موكب فخم أيضا ، ومن وصف ابن بطوطة لهذا الموكب : « ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده ، وكنانته بين كتفيه ، وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر ، وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ، ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة ، وخلفه نحو ثلثمائة من العبيد وأصحاب السلاح الخ »(٢) .

وإلى جانب وسائل النقل المعروفة كانوا يستعملون العربة التى تجرها البقر والجمال أو الأفراس ، وقد ركبها ابن بطوطة فى بلاد القرم ، ومن قوله : « وهى عجلات تكون للواحدة أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ومنها مايجره أكثر من ذلك ، وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة فى ثقلها أو خفتها ، والذى يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليه سرج ، وفى يده سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها إذا عاجت عن القصد ، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق وهى خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ، ويكون فيها طيقان مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره ، والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت وعليها قفل »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٥١٥

(٢) الرحلة ص ٧٨٤

(٣) الرحلة ص ٣٨٥ .

وصف البلدان والمشاهد

كان ابن بطوطة مولعا بالوصف فنقل لنا صورة واضحة لأهم البلدان فى ذلك الوقت ، وصور لنا أبرز المشاهد والآثار سواء كانت دينية أم سياحية ، وكان ابن بطوطه قوى الملاحظة شغوفا بالاستطلاع .

وصف ابن بطوطة أهم المدن التى زارها ، وكان يطنب فى وصف هذه المدن وينقل لنا أبرز معالمها ، أما فى صفه للمدن الصغيرة فإنه يمر بها مرا سريعا ويعطينا لمحة عابرة عنها تكشف لنا أبرز ما تتميز به هذه المدينة ، وهـذه الأوصاف ليست بذات أهمية فنية ، ومن أمثال ذلك وصفه لمدينة سوسة إذ يقول : « وهى صغيرة حسنة مبنية على شاطىء البحر ، بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا »(١) .

وأول مدينة وصفها ابن بطوطة وصفا مفصلا مبرزا أهم معالمها مدينة الإسكندرية وبدأ بوصفها وصفا أدبيا شاعريا موحيا بجمالها وعراقتها فقال : « وهى الثغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ماشئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، الزاهية بجمالها المغرب ، والجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها وكل طريقة فإليها انتهاؤها »(٢) .

ثم يرسم صورة حسية زاهية لمدينة الإسكندرية فيصف أبوابها وميناءها ويصف المنار وصفا مفصلا حتى إنه يحدد عرض الممر وعرض الحائط ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع ، ثم يصف عمود السوارى ويحدد موقعه ، وهكذا نرى ابن بطوطة يهتم بوصف الآثار ، وسنراه يتحدث عن

---

(١) الرحلة ص ٣٣   (٢) الرحلة ص ٣٧

الهرم ويصفه ، ولكنه لن يهتم بآثار مدينة الأقصر(١) ولم يكتب عنها إلا سطراً ونصفا ولا نجد تعليلا واضحا لذلك ، وإنما نفترض أنه لم يتجول في مدينة الأقصر ولم يمكث بها أياما ، وسرده للأحداث يوحي بذلك .

وبعد أن يرسم صورة زاهية لمدينة الإسكندرية يتحدث عن علمائها وقضاتها وأوليائها ، ويورد حكايات عن الكرامات التي جرت على أيدي هؤلاء المتصوفين وكذلك يصف مدينة دمياط وصفا مفصلا ويتحدث عن كرامات أوليائها كما هي عادته(٢) .

ثم يصف ابن بطوطة مدينة القاهرة وصفا رائعا شاملا لكل نواحي العظمة ، وقد بدأ بوصف شاعري أشار فيه إلى مجدها الفرعوني وشبابها المتجدد ، وأنها كعبة القاصدين وقاهرة الغازين ، ومن قوله : « وهي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والأقاليم الأريضة ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتناهية بالحسن والنضارة ، ومجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ماشئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ومنكر ومعروف ، تموج موج البحار بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها ، وإمكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم »(٣) ، ومن اللفتات الجميلة حديثه عن ميل أهل مصر إلى الطرب إذ يقول : « وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو »(٤) .

ثم تحدث عن مسجد عمرو بن العاص وماضيه العريق ، وعن المارستان الذي بناه المنصور قلاوون ، وتحدث عن الزوايا وما يجري فيها ، وتحدث

---

(١) الرحلة ص ٦٨ (٢) الرحلة ص ٤٨

(٣) الرحلة ص ٥٣ (٤) الصفحة نفسها

عن قرافة مصر ومشهد الحسين ومشهد السيدة نفيسة ، وعن قبر الإمام الشافعى وعدد من أصحاب رسول الله عليه السلام .

وتحدث عن نهر النيل وذكره فى القرآن الكريم ، وعن مجراه وزيادته ونقصانه ومقياس النيل ، والتفت إلى الأهرام ووصف هيكلها فقال : « والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهى السمو مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى ، كالشكل المخروط ، ولا أبواب لها ولا نعلم كيفية بنائها ، ومما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه يبنى الأهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك »(١) وأورد حكاية عن الخليفة المأمون تفيد أنه أمر برشق جانب من الهرم بالمنجيق حتى فتحت الثلمة التى بها إلى اليوم .

ووصف ابن بطوطة كثيرا من مدن الشام فوصف مدينة غزة وصفا موجزا(٢) ووصف مدينة الخليل واهتم بوصف المسجد وما يقال من أن سيدنا سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه ، وتحدث عن قبور بعض الأنبياء بها ، وعن قبر فاطمة بنت الحسين ابن على عليهما السلام ، واهتم بقراءة ما على القبر من كتابات ونقلها إلينا إذ يقول : « وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام فى أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع : بسم الله الرحمن الرحيم ، له العزة والبقاء ، وله ماذرا وبرا ، وعلى خلقه كتب الفناء وفى رسول الله أسوة حسنة ، هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها .

وفى اللوح الآخر منقوش : صنعه محمد بن أبى سهل النقاش بمصر ، وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكنت من كان فى الأحشاء مسكنه   بالرغم منى بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة   بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر

(١) الرحلة ص ٥٧   (٢) الرحلة ص ٧٤

يا قبر مافيك من دين ومن ورع
ومن عفاف ومن صون ومن خفر »(١)

ثم انتقل إلى الحديث عن القدس وبيت لحم وأثر جذع النخلة ، ووصف المسجد الأقصى وتحدث عن قيمته الروحية وعن الصخرة التى عرج منها النبى عليه السلام ، وتحدث عن قبر مريم وعن بئر إبراهيم ، وجاء حديثه مفصلا شائقا(٢) .

ومن المدن التى اهتم بوصفها مدينة حلب ، وبدأ بوصف أدنى شبيه بما أورده فى وصف الإسكندرية والقاهرة ، وهذا الوصف مقتبس من وصف ابن جبير فى رحلته الشهيرة ، وسنتحدث عن ذلك فى حينه ، وقد استبدله ابن جزى بوصف ابن بطوطة ، ثم وصف ابن بطوطة قلعة حلب وخندقها العظيم ، ثم وصف المدينة نفسها موقعها ونظامها وأسواقها ومسجدها ومدارسها والمارستان الذى بها ، وبساتينها والنهر الذى يمر بها ، ثم انتقل إلى الحديث عن قضاتها وعلمائها(٣) .

ثم وصف لنا مدينة دمشق وصفا أدبيا جميلا ، وهنا يقتبس ابن جزى من ابن جبير على نحو ما أسلفنا ، ووصف مسجد دمشق وبناءه فى عهد الوليد ابن عبد الملك ، ثم وصف مبانيه وصفا مفصلا يكشف عن جمال المسجد وروعته وما ورد فيه من الأحاديث الشريفة وما يقام به من العبادات وحلقات التدريس ، وأورد أسماء مشاهير العلماء والقضاة واستغرق وصف جامع دمشق سبع صفحات(٤) .

ومن الأوصاف التى تفيض بالروحانية وصفه لمسجد الرسول صلى الله

(١) الرحلة ص ٧٦
(٢) الرحلة ص ٧٦ وما بعدها .
(٣) الرحلة ص ٨٧ - ٩٠
(٤) الرحلة ص ١٠٢ - ١٠٩

عليه وسلم . وجزء كبير من هذه الفقرة مقتبس من ابن جبير أيضا ، ومما ورد : والمسجد المعظم مستطيل ، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ، ووسطه صحن مفروش بالحصا والرمل ، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت ، والروضة المقدسة - صلوات الله وسلامه على ساكنها - فى الجهة القبلية مما يلى الشرق من مسجده الكريم ، وهى مسورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت ، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان ، وفى الجهة القبلية منها مسمار فضة وهو قبالة الوجه الكريم ، وهنالك يقف الناس مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا إلى وجه أبى بكر الصديق ، ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب ، ورأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما ، وفى الجوفى من الروضة المقدسة - زادها الله طيبا - حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ويقال أيضا هو قبرها ، والله أعلم »(١) ثم يصف بعض الأماكن المقدسة فيصف البقيع مدفن أصحاب رسول الله عليه السلام ، ثم يتحدث عن قباء وعن جبل أحد وعن بدر .

وينتقل ابن بطوطة إلى الحديث عن مكة المكرمة فيصورها تصويرا معنويا وحسيا ، ومن الحديث عن مكانتها الروحية قوله عن الكعبة المكرمة : « هى كالعروس تجلت على منصته الجلال ، وترفل فى برود الجمال ، محفوفة بوفود الرحمن موصلة إلى جنة الرضوان »(٢) . ثم يصور مكة تصويرا حسيا فيصف اتصال مبانيها واستطالتها والجبال التى تحيط بها وأبواب مكة الثلاثة .

ثم يصف المسجد الحرام بإطناب فى وتفصيل فيصف اتساعه وطوله وعرضه وأبوابه وارتفاع حيطانه وسواريه الرخامية وعددها أربعمائة وحـــدى

(١) الرحلة ص ١٣٣ (٢) الرحلة ص ١٥٢

وتسعون سارية ويصف بناية الكعبة وارتفاعها وعرضها وباب الكعبة وستورها وألوان هذه الستور وما كتب فيها من الآيات الكريمة، والميزاب والحجر الأسود وطريقة الطواف وبئر زمزم والصفا والمروة .

ومن المدن التى اهتم بالحديث عنها مدينة بغداد ولكن نظرة ابن بطوطة إليها تختلف عن نظرته إلى مدن مصر والشام ، فقد كان شبح الخراب الذى نشره التتار فيها ماثلا أمام عينيه ، وحقا أنه كان يتمثل ماضيها العريق ولكنه رآها كالطلل الدارس ، وبعض الحديث هنا مقتبس من ابن جبير أيضا ، ومن قوله : « مدينة دار السلام وحضرة الإسلام ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء » وقال الحسن بن جبير : « وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية فقد ذهب رسمها ولم يبق إلا اسمها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب إليها كالطلل الدارس أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعى من مستوفر الغفلة النظر إلا وجلتها التى هى بين شرقها وغربها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبتين »(١) . ثم وصف المشاهد البارزة فى بغداد وتحدث عن قبور الخلفاء العباسيين وقبور الصوفية .

وأولى ابن بطوطة مدينة دهلى بالهند اهتماما فائقا وتحدث عن جمالها وعراقتها ووصف سورها وسوقها وخيراتها ومقابرها وجامعها وحياضها ، وفى مطلع حديثه يقول : « قاعدة بلاد الهند ، وهى المدينة العظيمة الشأن ، الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير وهى أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق ، ومدينة

---

(١) الرحلة ص ٢٤٢

دهلي كبيرة المساحة كثيرة العمارة ، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات »(١) .

ومن وصفه لسور المدينة : « عرض حائطه أحد عشر ذراعا ، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الأبواب ، وفيها مخازن الطعام ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات ، وفيه طبقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل السور مبني بالحجارة ، وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا »(٢) ، ثم وصف مقابر المدينة ومسجد دهلي وصفا مفصلا ، ووصف الحياض التي يشرب منها أهل المدينة وأخيرا تحدث عن حي يسكنه أهل الطرب .

وعندما زار ابن بطوطة مدينة القسطنطينية شاهد كنيستها وأعجبه بناؤها وجمالها ، ووصفها وصفا مفصلا ، ويدل هذا على أن ابن بطوطة ذواقه للجمال يراه في مواطنه ، ولا يصـــده عن رؤية الجمال تعصب ديني أو قومي .

أعجب ابن بطوطة بمظهر الكنيسة من الخارج وإن لم يدخلها ، ونورد من وصفه قوله : « والكنيسة العظمى إنما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده ، وهي تسمى عندهم أيا صوفيا ، وعليها سور يطيف بها فكأنها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ، ولها حرم هو نحو ميل ، عليه باب كبير ، وقد دخلته مع والد الملك ، وهو شبه مشور مسطح بالرخام ، وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة والأشجار منظمة عن جهتي الساقية ، ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالي العنب ، وفي أسفله الياسمين والرياحين إلخ »(٣) :

(١) الرحلة ص ٤٧٨ (٢) الرحلة ص ٤٧٩ بتصرف
(٣) الرحلة ص ٣٨٨ بتصرف

المرأة

تكشف رحلة ابن بطوطة عن أن المرأة فى بلاد العالم الإسلامى لم تكن تشغل الوظائف العامة ، ولم تكن تعمل فى المصانع إلا فيما ندر ، فلم يشر ابن بطوطة إلى عمل المرأة فى هذا المجال إلا فى القسطنطينية حيث ذكر أن أكثر الصناع والباعة بها من النساء ، يقول : « وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل ، وأكثر الصناع والباعة بها نساء »(١) .

ويدل حديث ابن بطوطة على قلة المتعلمات فى تلك الفترة ، ومعظم حلقات العالم كانت تهتم بالتعليم الدينى ، ونص ابن بطوطة على إقبال الفتيات على حفظ القرآن فى بلاد المليبار ، وذكر أن بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وأنه لم ير ذلك فى سواها . يقول : « ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن الكريم ، ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ، ولم أر ذلك فى سواها »(٢) .

كما تحدث عن وجود عالمات أجزنه فى علم الحديث ، ففى دمشق أجازه مجموعة من العلماء ، وأجازته « الشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم ابن سلامة الحرانى ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم ابن عبد الواحد المقدسى »(٣) ، وفى بغداد يذكر « الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على بن على بن أبى البدر »(٤) .

ومعلوم أن الإسلام لا يجيز أن تكون المرأة رئيسة الدولة ، ولكن

---

(١) الرحلة ص ٣٨٨ .
(٢) الرحلة ص ٦٣٤ .
(٣) الرحلة ص ١٢٣
(٤) الرحلة ص ٢٤٤

ابن بطوطة تحدث عن نساء يحكمن فى بلاد الهند وفى جاوة ، ففى الهند تحدث عن امرأة حكمت فى مدينة دهلى ، وأخرى حكمت فى جزائر ذيبة المهل ، أما فى مدينة دهلى فقد ثارت أخت السلطان على أخيها لقتل شقيقه ، فقتلوه واختاروها سلطانة مكانه ، ثم خلعت وولى أخوها الأصغر ، وما لبثت أن ثارت عليه ولكنها هزمت وفرت ، ثم قتلها أحد الفلاحين وسلبها(١) .

أما فى جزائر ذيبة المهل فقد خلع السلطان شهاب الدين ونفى وقتل ، ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخوته ، فاختاروا أخته الكبرى وولوها سلطانة ، يقول ابن بطوطة متحدثا عن السلطان شهاب الدين : « فخلعوه ونفوه وبعثوا من قتله ، ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته ، فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين ، فصار وزيرا وغالبا على الأمر ، ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول : « اللهم انصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ، ألا وهى السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين »(٢) .

وفى جاوة مدينة تسمى كيلوكرى كانت تحكمها امرأة تسمى أدرجا ، وكانت حاكمة لهذه المدينة من قبل أبيها ، وكانت هذه الملكة ورعيتها كفارا ولذلك رفض ابن بطوطة أن يأكل طعامها لأنه لا يجوز أكل طعامهم ، وذكر أنها اختارت من النساء وزيرات لها(٣) .

ومن الطبيعى أن تكون النساء بمعزل عن الرجال فى تلك الفترة ، وقد أسلفنا أن المكاتب التى يتعلم فيها البنات غير المكاتب التى يتعلم فيها الذكور وذكر أيضا أن هناك زوايا للأعزاب وزوايا المتزوجين(٤) . وفى حديثه

(١) الرحلة ص ٤٨٦ بتصرف
(٢) الرحلة ص ٦٦١
(٣) الرحلة ص ٧١٤
(٤) الرحلة ص ٥٤

عن مدينة طبرية يقول : « وبها الحمامات العجيبة لها بيتان : أحدهما للرجال والثانى للنساء »(١) .

بل إنهم كانوا يخصصون أماكن لطواف النساء حول الكعبة ، يقول ابن بطوطة : « وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا فى الجهة التى تقابل المقام الشريف فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به ، وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة »(٢) . وكانت زوجات الأمراء وزوجات الأثرياء يخرجهن فى هوادجهن المزدانة ، ويؤدين مراسم الحج أو العمرة وهن فى هوادجهن(٣) .

وكان للنساء دور فى قصور السلاطين فكن ينقلن الأخبار ويتجسسن ويشتركن فى تنفيذ المؤامرات ، يقول ابن بطوطة : « ومن عادة ملك الهند أن يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله ، ويجعل أيضا جوارى فى الدور يكون عينا له على أمرائه ، ونسوة يسميهن الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجوارى بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك الملك المخبرين ، فيخبر بذلك السلطان »(٤) .

وكانت النساء عن وجه العموم تغطين وجوههن ، ولكن نساء الأتراك كن سافرات ، يقول ابن بطوطة : « فإن عادة نساء الأتراك ألا يغطين وجوههن »(٥) .

وفى حديثه عن المرأة التى حكمت مدينة دهلى يذكر أنها كانت تتشبه

---

(١) الرحلة ص ٨٢ .
(٢) الرحلة ص ١٥٨
(٣) الرحلة ص ١٨٢ .
(٤) الرحلة ص ٥٥٩
(٥) الرحلة ص ٢٢٨ .

بالرجال ولا تستر وجهها . يقول : « وكانت تركب بالقوس والتركش كما يركب الرجال ولا تستر وجهها »(١) .

وابن بطوطة يعجب بالنساء ويرى فيهن لونا من الجمال على أى حال ، ويشيد بجمالهن ويشيد بأخلاقهن فهو حسن الظن بهن إلا إذا سمع عنهن ما يشين فى بلد من البلدان ، وأحيانا يتحدث عن ملابسهن وزينتهن وحليهن وبعض العادات التى تعودنها .

يتحدث عن نساء مكة فيتحدث عن جمالهن وعفافهن واهتمامهن بالطيب الفواح فيقول : « ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ، وذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا ، وهن يقصدن الطواف بالبيت فى كل ليلة جمعة فيأتين فى أحسن زى ، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا » ٢) .

وأشاد ابن بطوطة بنساء شيراز وأخلاقهن وسخائهن بالصدقات ، وإقبالهن على سماع الوعظ ، وفى ذلك يقول : « وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساءها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شىء ، ولهن الصدقات والإيثار ، ومن غريب حالهن أنهن يجتمعن فى كل اثنين وخميس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر »(٣) .

وفى حديثه عن نساء الهند حدد مواطن الجمال التى يتفوقن فيها وهى الأنوف والحواجب ، ومن قوله : « خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا

---

(١) الرحلة ص ٤٨٧ (٢) الرحلة ص ١٦٩
(٣) الرحلة ص ٢٢٣

فى الأنوف والحواجب»(١) . وتحدث عن زينة نساء سيلان وإكثارهن من أحجار الياقوت الملون ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضا من الأسورة والخلاخيل ، وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رءوسهن»(٢) .

وفى نهاية الرحلة وعند مروره ببلاد بردامة وهى قبيلة من البربر كشف عن أهم مقياس لجمال النساء عنده ، وذكر أنه البياض والسمن ، يقول : «ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن ، ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السمن»(٣) .

ولم يتهم ابن بطوطة نساء بلد زارها إلا نساء نزوا بعمان ، حيث اتهم النساء بالفساد ، واتهم السلطان بحماية المنحرفات ، ومن قوله : «ونساؤهم يكثرن الفساد ، ولا غيرة عندهم ولا إنكار لذلك ، ويورد حكاية شاهدها بعينيه حيث يقول : «كنت يوما عند السلطان أبى محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه ، فوقفت بين يديه وقالت : يا أبا محمد ، طغى الشيطان فى رأسى ، فقال لها : اذهبى واطردى الشيطان ، فقالت له : لا أستطيع ، وأنا فى جوارك يا أبا محمد ، فقال لها : اذهبى فافعلى ماشئت ، فذكر لى لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل فعلها تكون فى جوار السلطان وتذهب للفساد ، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها ، وإن قتلوها قتلوا بها لأنها فى جوار السلطان»(٤) .

ورأى ابن بطوطة بعض النساء عاريات فى الهند وفى مالى ، وليس هذا مرتبطا بانحراف خلقى ولكنها عادات اجتماعية متوارثة ، وكان ابن بطوطة قاضيا فى الهند ، وحاول تغيير هذه العادة ولكن كل ما استطاع فعله أن يمنع

---

(١) الرحلة ص ٦٢٧ .
(٢) الرحلة ص ٢٧٩
(٣) الرحلة ص ٧٩٨ .
(٤) الرحلة ص ٦٧٩ .

دخول النساء عليه عاريات ، وكسا جواريه ، وفى ذلك يقول فى حديثه عن جزائر ذيبة المهل : « ونساؤها لا يغطين رءوسهن ، ولا سلطانتهم تغطى رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها ، ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك ، فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة فى خصومة إلا مستترة الجسد ، وما عدا ذلك لم تكن لى عليهن قدرة ، وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلى تغطين رءوسهن »(١) .

أما فى مالى فرأى النساء عاريات لا يستر أجسادهن شىء ما ، وكذلك كان يفعل بنات السلطان ، وكان النساء يدخلن إلى السلطان عاريات ، يقول ابن بطوطة : « ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة ، فإن عادة الفرارية أن يفطر وإبدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواروهن عرايا ، ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات ، وتعرى بناته ، ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر »(٢) .

وتحدث ابن بطوطة عن بعض العادات والتقاليد فى بعض البلاد التى زارها ، ومن هذه العادات أن المرأة فى الشام كان يجهزها أبوها ويكون الاهتمام الأكبر بأوانى النحاس ، يقول: « ومن عوائدهم فى تلك البلاد

---

(١) الرحلة ص ٦٥٨ بتصرف . (٢) الرحلة ص ٧٩٠ .

أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس ، وبه يتفاخرون وبه يتبايعون » .

وصور ابن بطوطة حفلات الزفاف ، وأسهب في وصف زفاف بنت الملك علاء الدين طرمشيرين سلطان الهند إلى سيف الدين غدا أمير عرب الشام ، ومن قوله : « ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه ، وقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن ، وانصرفن إلى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص أصحابه ، وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها ، ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم ، ولما كان بعد المغرب أتى إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشه مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر ، وبشاشية مثل ذلك وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر ، والمشور ملآن بالنساء ، ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه ، والتقطتها النساء ، والمغنيات يغنين حينئذ ، والأطفال والأبواق والأنفار تضرب خارج الباب ، ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه ، فركب فرسه وجعلت العروس في محفة ، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره ، والخواتين بين يديها راكبات ، وغيرهن من النساء ماشيات الخ »(١) .

ووصف ابن بطوطة حفل زفاف نجل الملك بجزيرة سومطرة فقال : « وحضرت أعراس ولد السلطان مع بنت أخيه ، وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً وكسوة بثياب الحرير ، وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من

---

(١) الرحلة ص ٥٣٣ بتصرف .

الخواتين يرفعن أذيالها وكلهن باديات الوجوه ، وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ، ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وعن يمينه ويساره مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رءوسهم الشواشى المرصعة ، ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله ، وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجليه وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها ، والخواتين يروحون عليها ، وجاءوا بالفوفل والتنبول فأخذه الزوج بيده وجعل منه فى فمها ، ثم أخذت هى بيدها وجعلت فى فمه ، ثم أخذ الزوج بفمه ورقة فوفل وورقة تنبول وجعلهما فى فمها ، ثم فعلت هى كفعله ، ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا »(١) .

ونلحظ أن العادات المنكرة والشاذة التى تحدث عنها ابن بطوطة كلها خارج حدود العالم العربى ، وبعض المواقف التى تحدث عنها لا تمثل عادة وإنما تمثل موقفا شاذا ، ومن ذلك أن خطيب مدينة هراة وهو ابن عم الملك متزوج بزوجة أبيه(٢) . وهذا غير جائز شرعا .

ومن العادات السيئة التى رآها فى الهند إحراق المرأة نفسها حزنا على زوجها ووفاء له ، ولكن هذه العادة كانت عند غير المسلمات ، وقد تحدث عن مواقف عديدة رأى منها هذا المشهد : « كنت فى تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود ، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان فى إحراقها فيؤذن لهم فيحرقونها ، وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت

---

(١) الرحلة ص ٧٤١ (٢) الرحلة ص ٤٢٧

نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء »(١) .

وكانت الجوارى كثيرات وكن ينلن بالشراء وبالهبـــة ، وكن يعملن مغنيات وراقصات وكان إلى جانبهن بعض المغنيات من الحرائر ، وقد ذكر ابن بطوطة أن سلطان سومطرة « بعث له جاريتين وغلامين »(٢) . وبعض الجوارى كن مغنيات وراقصات ، وذكر ابن بطوطة أن ملك الهند أهدى ملك الصين هدايا منها مائة جارية من كفار الهند كن مغنيات وراقصات .

وفى مدينة دهلى بالهند كانت هناك مغنيات من الحرائر يسكن فى حى معين ويقول ابن بطوطة : إنهن يحافظن على الصلوات ، ومن قوله : « وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض خاص وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ، ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد ، ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة ، وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الأئمة ، وعددهن كبيرة »(٣) .

وذكر ابن بطوطة أن النساء الحرائر فى جزائر ذيبة المهل يعملن خادمات فى البيوت ولا يرين فى ذلك عيبا ، وذكر أنهن يتزوجن من التجار القادمين فى المراكب على صداق نزر ، وذلك من نكاح المتعة لأنهن لا يخرجن من بلادهن أبدا ، ويطلقها الزوج عند سفره ، ومن قوله : « ومن عجيب أفعالهن أنهن يستأجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها ، وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرين ذلك عيبا ، ويفعله أكثر بناتهم ، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن من بلادهن أبدا »(٤) .

---

(١) الرحلة ص ٤٦٩ .
(٢) الرحلة ص ٧٤١
(٣) الرحلة ص ٤٨١
(٤) الرحلة ص ٦٥٩ بتصرف

ويتحدث ابن بطوطة عن الراهبات فى الكنائس ، وبعض الراهبات كن من الأبكار ، وبعضهم من القواعد من النساء كما يقول(١) ، ويتحدث عن المانستار (وهو شبه الزاوية عند المسلمين) . وفى داخل المانستار كنيسة فيها أبكار من بنات الملوك عليهن المسوح ومعهن صبيان يتلون عليهن الإنجيل ، يقول : « وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ، ورءوسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ، ولهن جمال فائق ، وعليهن أثر العبادة ، وقد قعد صبى على منبر يقرأ لهن الإنجيل ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم ، وقال لى الرومى : إن هؤلاء البنات من بنات الملوك وهبن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة »(٢) .

وفى مدينة رينور بسيلان صنم من الذهب موضوع بإحدى الكنائس ، وفى هذه الكنيسة يتجمع البراهمة ، وفيها نحو خمسمائة من بنات الهنود يغنين كل ليلة عند الصنم ، ويرقصن ، وهؤلاء ليسوا راهبات ، ومن كلام ابن بطوطة : « ورحلنا إلى مدينة دينور ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور ، فى كنيسة عظيمة(٣) فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود يغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن ، والمدينة ومجابيها وقف على الصنم ، وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك ، والصنم من ذهب على قدر الآدمى ، وفى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين »(٤) .

---

(١) الرحلة ص ٣٨٩ (٢) الرحلة ص ٣٩٠
(٣) يقول المحقق عن الصنم : حطمه البرتغاليون ١٥٨٧ م :
(٤) الرحلة ص ٦٨٣ .

« بعض المظاهر الاجتماعية »

الملابس

وصف ابن بطوطة بعض الملابس التى تلفت الأنظار ، ومنها ملابس أهل أنطاليا فى آسيا الصغرى ، وكان ابن بطوطة قد ذهب إلى إحدى الزوايا بعد أن دعاه أحد شيوخ الفتيان الإخية ، وقد استرعى نظره لباسهم ، وفى ذلك يقول : « وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية ، وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين فى طول ذراعين وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها فى طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوة ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى حسنة المنظر »(١) .

الأطعمة

وأكثر ابن بطوطة من الحديث عن الأطعمة فى البلاد التى زارها ، ولفت نظرنا حديثه عن التنبول والفوفل ، ويؤكلان ببلاد الهند وظفار ولهما قيمة عظيمة وفيهما يقول فى حديثه عن مدينة ظفار : « وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ، ولا يكونان إلا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند وقربها منه ، والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالى العنب ، ويصنع له معرشات من القصب كما تصنع لدوالى العنب ، أو يغرس فى مجاورة النارجيل فيصعد فيها ، ولا ثمر للتنبول وإنما المقصود منه ورقه ، وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر ، وتجنى أوراقه فى كل يوم ، وأهل الهند

---

(١) الرحلة ص ٣١٥

يعظمون التنبول تعظيما شديداً ، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها ، وإعطاؤه عندهم أعظم شأنا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب ، وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب ويكسر حتى يصير أطرافا صغاراً ويجعله الإنسان فى فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئا من النورة ، وخاصيته أنه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرح أكله ويعين على الجماع ، ويجعله الإنسان عند رأسه ليلا فإذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما فى فمه من رائحة كريهة »(١) .

وفى بلاد الهند والسند كانوا يهتمون بالطعام ويسرفون فى إعداده إسرافا شديداً ، ووصف ابن بطوطة الطعام الذى أعده طباخون من ملتان ببلاد السند فيقول : « وترتيب هذا الطعام أنهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق ، ويقطعون اللحم المشوى قطعاً كبيرة بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستاً ، ويجعلون أمام كل رجل قطعة ، ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك ببلادنا ، ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتى ، ومعناه الآجرى ، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ، ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر فى صحاف صينية ، ثم يجعلون شيئاً يسمونه سموسك وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير موضوع فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربع ، ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ، ثم يجعلون لقيمات القاضى ويسمونها الهاشمى ، ثم يجعلون القاهرية الخ »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٢٨٨

(٢) الرحلة ص ٤٦٢

وتحدث ابن بطوطة عن أطعمة شاذة محرمة وهى أكل لحوم البشر والجيف يأكلها جماعة من السودان قدم عليهم بعد خروجه من مالى ، ولم يكن هذا نتيجة مجاعة حلت بهم ، وإنما هى عادة لهم وأطعمة يستلذونها ، يقول : « قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بنى آدم معهم أميرهم ، وعادتهم أن يجعلوا فى آذانهم أقراطا كبارا ، وتكون فتحة القرط نصف شبر ويلتحفون فى ملاحف الحرير ، فأكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين ، وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك وذكر لى عنهم أنهم يقولون : إن أطيب ما فى لحوم الآدميات الكف والثدى »(١) .

وذكر ابن بطوطة أنهم فى هذه البلاد يأكلون الجيف ، وقد أكلوا جملا بعد موته ، يقول : « وصلت إلى بلدة قرى منسا ، ومات لى بها الجمل الذى كنت أركبه ، فأخبرنى راعيه بذلك ، فخرجت لأنظر إليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم فى أكل الجيف »(٢) .

التداوى

كان الناس يتداوون بطرق مختلفة ، فكانوا يتداوون بالأعشاب وهى أدوية شائعة متوارثة ، وفى بلاد المعبر أصابت ابن بطوطة الحمى فتداوى بالتمر الهندى ، يقول : « ثم أصابتنى الحمى القاتلة هناك فظننت أنها القاضية ، وألهمنى الله إلى التمر الهندى فأخذت نحو رطل وجعلته فى الماء ثم شربته فأسهلنى ثلاثة أيام ، وعافانى الله من مرضى »(٣) .

(١) الرحلة ص ٧٩٣
(٢) الرحلة ص ٧٩٣
(٣) الرحلة ص ٦٩٥ .

وفى مالى كانوا يتداوون بأدوية نباتية ، يقول ابن بطوطة : « وأكلنا عصيدة تصنع من شيء يشبه القلقاس يسمى (القافى) فأصبحنا جميعا مرضى ، وكنا ستة فمات أحدنا ، وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشى على فيها ، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فأتى بشيء يسمى (بيدر) وهو عروق نبات وخلطه بالأنيسون والسكر ولته بالماء ، فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة ، وعافانى الله من الهلاك »(١) .

وكانوا يلجئون إلى الله عند حدوث الأوبئة وفى الشدائد ويتوسلون إليه بالعبادات والدعوات ، ومن قول ابن بطوطة : « وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف (مصحف بخط زيد بن ثابت) وفتحوا باب الكعبة ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه فى مقام إبراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رءوسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف ، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه »(٢) .

وفى دمشق لجئوا إلى العبادة والتضرع عندما حل بها الطاعون ، يقول ابن بطوطة : « إن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ، ويطبخون بالسوق ، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية ، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاء والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها فى الجامع حتى غص بهم ، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بإنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام

---

(١) الرحلة ص ٧٨١

(٢) الرحلة ص ٦٥٩ .

وأقاموا به فى تضرعهم إلى قرب الزوال ، وعادوا إلى البلد وصلوا الجمعة ، وخفف الله تعالى عنهم »(١) .

وكان السذج يقبلون على الأضرحة طلبا للتداوى ، وكان القائمون على هذه الأضرحة يشيعون حكايات عن شفاء المرضى تجد قبولا حسنا لدى بعض العامة من الناس ، وأورد ابن بطوطة حكاية عن اجتماع الناس حول قبر على رضى الله عنه طلبا للشفاء من الأمراض المستعصية ، يقول : « فى ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم ، فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم ، وهم مابين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة ، فإذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه قام الجميع أصحاء من غير سوء وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، علىّ ولى الله »(٢) .

ولا نظن إلا أن القائمين على قبر على رضى الله عنه يأتون بالأصحاء من أصحابهم ليمثلوا دور المقعدين ، ثم يقومون ماشين على أرجلهم ليوهموا الناس بصدق مايزعمونه .

عند لقاء السلاطين

ولبعض البلدان عادات عندما يقابلون السلاطين ، وفى مدينة شيراز ينزع الرجل غطاء رأسه ويمسك أذن نفسه بيده ، يقول ابن بطوطة : « وفى غد ذلك اليوم وصل إليه (إلى القاضى) رسول ملك العراق السلطان أبى سعيد ، فعند وصوله إليه نزع شاشيته عن رأسه ، وقبل رجل القاضى

(١) الرحلة ص ١١٤ .
(٢) الرحلة ص ١٩٩

وقعد بين يديه ممسكا أذن نفسه بيــده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم »(١) وقد فعل رسول الملك فى مجلس القاضى ما يفعله فى مجلس السلطان تعظيما للقاضى .

وفى اليمن يمس الرجل الأرض بسبابته ثم يرفعها إلى رأســه ، يقول ابن بطوطة : « فتوجهنا إلى مدينة تعز حضرة ملك اليمن ، فلما كان يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بى عليه فسلمت عليه ، وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته ثم يرفعها إلى رأسه ويقول : أدام الله عزك ، ففعلت كمثل مافعله القاضى »(٢) .

وشبيه بهذه التقاليد ماكان يجرى فى الهند عند لقاء السلطان ، يقول ابن بطوطة عند دخولهم على السلطان : « فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض ، وخدمتنا لناحية سرير السلطان ، وخدم جميع من معنا ، فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية : بسم الله ، وخرجنا »(٣) .

السحرة

حظيت الهند بنصيب الأسد فى رحلة ابن بطوطة وأطال الحديث عنها ، وقد تحدث فى أكثر من موقف عن السحرة فى الهند وما يأتون به من أعمال مدهشة يقول ابن بطوطة : « ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة ، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب ، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له

---

(١) الرحلة ص٢٢٤ بتصرف . (٢) الرحلة ص ٢٧٤ بتصرف .

(٣) الرحلة ص ٥٧٣

إلا موضع يدخل منه الهواء ويقيم به الشهور ، وبعث إلى السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد . فأمرنى بالجلوس فجلست ، فقال لهما : إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه مالم يره ، فقالا : نعم ، فتربع أحدهما ، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء فوقنا متربعا ، فعجبت منه وأدركنى الوهم فوقعت إلى الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده ، فأفقت وقعدت وهو على حاله ، فتربع فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة (كيس) كانت معه فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا »(١) .

وفى موقف آخر يقول : « وفى تلك الليلة حضر أحد المشعوذة فقال له الأمير : أرنا من عجائبك ، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ، فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير أمر متعلما له فتعلق به فصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه فلم يجبه ثلاثا ، فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ، ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض ، ثم رمى برجله ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بجسده ، ثم برأسه ، هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الأرض بين يدى الأمير ، وأمر له الأمير بشىء ثم إنه أخذ أعضاء الصبى فألصق بعضها ببعض وركض برجله فقام سويا »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٦٢٢ وما بعدها بتصرف .

(٢) الرحلة ص ٧٣٠ بتصرف .

تقديس الهنود للبقر

ومما لفت نظر ابن بطوطة تقديس الهنود للبقر وشرب أبوالها للاستشفاء والتبرك بها، يقول : « ولما ملك خسروخان آثر الهنود وأظهروا أمورا منكرة، منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فإنهم لايجيزون ذبحها، وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط فى جلدها ويحرق ، وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة وللاستشفاء إذا مرضوا ، ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها ، وكان ذلك مما بغض خسرو إلى المسلمين وأمالهم عنه إلى تغلق فلم تطل مدة ولايته »(١) .

فى الجنائز والمقابر

وتحدث ابن بطوطة عن عادات الشعوب فى الجنائز وفى المقابر ، وفى حديثه عن مصر تحدث عن المقابر وبناء القبور وترتيب قراءة القرآن، ومن قوله: «ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها ، وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ، ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء ويقرءون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان »(٢) .

وفى حديثه عن دمشق يتحدث عن عادة الناس فى اتباع الجنازة والصلاة على الميت ومن قوله : « وذلك أنهم يمشون أمام الجنازة والقراء يقرءون القرآن بالأصوات الحسنة، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلد

---

(١) الرحلة ص ٥٠١ (٢) الرحلة ص ٥٥

وأعيانها ويقولون : « بسم الله ، فلان الدين ، فإذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون : افتكروا واعتبروا ، صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنه »(١) .

ولأهل الهند عاداتهم الخاصة فى اليوم الثالث من دفن الميت حيث يفرشون الثياب والورود ويخطبون ويرثون الميت بالأشعار ، ويشربون ماء السكر والورد ، يقول ابن بطوطة : « ولأهل الهند رتبة عجيبة فى الجنائز ، وهى أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسى القبر بالأكسية الفاخرة ، وتوضع حوله الرياحين ، ويجعلون صيوان يظلل الناس ، ويؤتى بالربعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزءا ويقوم قائم ويخطب خطبة يذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر السلطان داعيا له ، ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا ، ثم يؤتى بالتنبول فيأخذ القاضى أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها لولى الميت فيأكلها وينصرفون »(٢) .

وللناس فى آسيا الصغرى عند اتباع الجنازة عادات غريبة ، وقد زار ابن بطوطة مدينة صنوب ، وخرج فى جنازة ، ووصف الموكب ، ومن وصفه : « وبعد أربعة أيام من وصولنا صنوب توفيت أم الأمير إبراهيم بها ، فخرجت فى جنازتها ، وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره ، وكذلك الأمراء والمماليك وثيابهم مقلوبة ، وأما القاضى والخطيب والفقهاء فإنهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رءوسهم وجعلوا عليها مناديل من الصوف الأسود عوضا من العمائم ، وظلوا يطعمون الطعام أربعين يوما وهى مدة العزاء عندهم »(٣) .

(١) الرحلة ص ١٢٠ بتصرف
(٢) الرحلة ص ١٢٠ بتصرف
(٣) الرحلة ص ٣٥٠ .

« الحيـــاة الاقتصادية »

الثراء الفاحش والفقر المدقع

ذكرنا فى حديثنا السابق أن المجتمع الإسلامى كان متفاوت الطبقات ، وكان الحـكام والأمراء يعيشون عيشة بذخ وتبذير ، وكانت طبقة العلماء والتجار تعيش فى رخاء . وكان الفقراء والمتعطلون يعيشون فى فقر وبعضهم يلجأ إلى الزوايا والخوانق حيث يجدون فيها المسكن والمطعم ، وقد أسلفنا الحديث عن الطبقات الاجتماعية فى مستهل هذا الفصل .

ويدل حديث ابن بطوطة على رخص الأسعار ، ولـكن هذا لم يمنع من معاناة الطبقة الـكادحة ، ومن مظاهر رخص الأسعار ما ذكره ابن بطوطة عند ذهابه إلى تركيا ونزوله بمدينة قصطمونية ، ووصفها بأنه « كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار ، فكنا نشترى طابق اللحم الغنمى السمين بدرهمين ، ونشترى خبزا بدرهمين فيـكفينا ليومنا ونحن عشرة ، ونشترى حلواء العسل بدرهمين فتـكفينا أجمعين ، ونشترى جوزا بدرهم ، وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ، ونشترى حمل الحطب بدرهم واحد وذلك أوان البرد الشديد »(١) .

ولم ينج العالم الإسلامى من المجاعات ، وقد حدثنا ابن بطوطة عن مجاعة قاتلة وقعت ببلاد الهند أثناء زيارة ابن بطوطة لها ، حيث يقول : « وفى مدة مغيب السلطان عن حضرته وقع الغلاء واشتد الأمر ، وانتهى المن إلى ستين درهما ثم زاد على ذلك ، وضاقت الأحوال وعظم الخطب ، ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ

---

(١) الرحلة ص ٣٤٦ .

أشهر ويأ كلنه ، وكانت الحلواء تطبخ وتباع فى الأسواق وكان الناس إذا ذبحت البقرة أخذوا دماءها فأ كلوها ، وحدثنى بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهة فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا فى بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمى وهو يشويها فى النار ويأ كل منها والعياذ بالله »(١) .

التجارة

كان التبادل التجارى نشيطا بين بلدان العالم الإسلامى ، وكانت هناك طرق برية وبحرية تسلكها القوافل والمراكب ، وقد تحدث ابن بطوطة عن بعض الموانىء التجارية الهامة ، وعن أهم السلع التى كانوا يتبادلونها ، كما تحدث عن بعض العقبات التى تعترض طرق التجار .

تحدث ابن بطوطة عن ميناء الإسكندرية ووصفه بأنه من أعظم موانىء العالم الذى زاره ومن قوله : « ولها المرسى العظيم الشأن ، ولم أر فى مراسى الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرداق ببلاد الأتراك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصين »(٢) . وتحدث عن منار الإسكندرية ووصفه بأنه بناء ذاهب فى الهواء ، ولكنه رأى أحد جوانبه متهدما »(٣) .

وتحدث حديثا موجزا عن ميناء اللاذقية(٤) كما تحدث عن ميناء عدن ببلاد اليمن يقول : « ثم سافرت إلى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم وهى مرسى أهل الهند تأتى إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانة وكولم وقالقوط وفندرانية والشاليات ومنجروز وفاكنور وهنور

(١) الرحلة ص ٥٧٠
(٢) الرحلة ص ٣٧
(٣) الرحلة ص ٣٧
(٤) الرحلة ص ٩٩

وسندابور وغيرها ، وتجار الهنود ساكنون بها ، وتجار مصر أيضا، وأهل عدن مابين تجار وحمالين وصيادين للسمك ، وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لايشاركه فيه غيره لسعة مابين يديه من الأموال »(١) .

ومن الموانىء الهامة ببلاد البنغال ميناء سدكاوان(٢) . وفى حديثه عن بلاد المليبار يذكر مدينة هيلى وهى واقعة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار(٣) .

ومن أهم الموانىء التى تحدث عنها ميناء مدينة الزيتون بالصين ووصفه بأنه من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها ، يقول : « وكانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون ؛ ومرساها من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مائة جنك كبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة ؛ وهو خور كبير من البحر يدخل فى البحر حتى يختلط بالنهر الأعظم »(٤) .

وكانت هناك عقبتان تواجه التجار هما قطاع الطرق فى البر والبحر ، ثم الظلم الذى يلقاه التجار من بعض الحكام ، وهاتان الظاهرتان كانت شائعتين فى تلك الفترة ، أما قطاع الطرق فقد تحدثنا عنهم فى حديثنا عن الحياة السياسية ؛ ونكتفى بضرب مثال حيث يقول ابن بطوطة : « فأعطى ملك الهند الشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشتريا سلعا بما عندهم من الأموال ؛ فلما وصلا جزيرة سقطرة خرج عليهما لصوص الهند فى مراكب كثيرة فقاتلوهم

(١) الرحلة ص ٢٧٦ .

(٢) الرحلة ص ٦٩٨ ويسمى اليوم شتثاكونك بباكستان .

(٣) الرحلة ص ٦٤١ وقد اندثرت المدينة اليوم .

(٤) الرحلة ص ٧٢٢

قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة ، وكان وشل راميا فقتل منهما جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك ، وأخذوا ما كان عندهم »(١) .

أما عن الظلم الذى وقع على بعض التجار فيذكر ابن بطوطة حادثة وقعت بعد وصوله إلى تونس ، يقول : «وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر ، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها إلى ورثته بتونس ، فانتهى خبره إلى ابن سيد الناس (حاكم تونس) فانتزعها من يده »(٢) .

وأورد مظلمة ثانية أوقعها أمير مكة ، يقول ابن بطوطة : «كان الشيخ سعيد الهندى قصد ملك الهند محمد شاه فأعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الأمير عطيفه وطلبه بأداء المال ، فامتنع ، فعذب بعصر رجليه فأعطى خمسة وعشرين ألف درهم نقرة ، وعاد إلى بلاد الهند »(٣) .

الصناعة

وتحدث ابن بطوطة عن أهم المراكز الصناعية فى البلاد التى زارها ، ودل حديثه على تقدم مصر فى صناعة المنسوجات وأنها كانت مركزا مهما لهذه الصناعة وأنها كانت تصـــدر المنسوجات إلى الخارج ، وفى طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة وصل مدينة أبيار وكانت تصنع ثيابا قيمة وتصدرها إلى خارج البلاد ، يقول ابن بطوطة : «ورحلت إلى مدينة أبيار وهى قديمة البناء أرجة الأرجاء ، ويصنع بأبيار حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها »(٤) .

---

(١) الرحلة ص ١٧٤ بتصرف
(٢) الرحلة ص ٣١
(٣) الرحلة ص ١٧٤
(٤) الرحلة ص ٤٦ بتصرف

ويقول عن مدينة البهنسا بصعيد مصر : « ويصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة »(١) .

ولم تكن صناعة المنسوجات كل ما عرف بمصر فقد تحدث عن صناعات أخر ، ومن قوله عن مدينة ملوى : « وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر »(٢) .

وعن مدينة منفلوط يقول : « ويصنع فى هـــذه المدينة شبه العسل يستخرج من القمح ويسمونه النيدا ، يباع بأسواق مصر »(٣) .

وبعد وصوله إلى الشام تحدث عن كثير من الصناعات ، ففى نابلس يصنع زيت الزيتون ويحمل إلى مصر ودمشق ، وتصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها(٤) . وفى مدينة سرمين يصنع الصابون ويجلب إلى مصر والشام(٥) .

وتحدث ابن بطوطة عن النفط والقار بالعراق ، ولكن النفط لم يكن يستعمل فى الصناعات فى ذلك الوقت(٦) .

وكانت هناك أسواق عامرة تعرض بها المصنوعات المختلفة ، وأطنب ابن بطوطة فى الحديث عن سوق تبريز ومابه من صناعات ، ومن قوله : « وسافرت إلى بلدة تبريز ، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن أسواق بلاد الدنيا ، كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى ، واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر وهى بأيدى مماليك حسان الصور يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم »(٧) .

---

(١) الرحلة ص ٦٤ .

(٢) الرحلة ص ٦٥

(٣) الرحلة ص ٦٦

(٤) الرحلة ص ٨٠

(٥) الرحلة ص ٨٥

(٦) الرحلة ص ٢٥٢

(٧) الرحلة ص ٢٥٢ بتصرف

وبالقسطنطينية أسواق وصناعات عديدة وهى مرسى للسفن ، يقول ابن بطوطة : «وأسواقها وشوارعها مفروشة بالصفاح متسعة ، وأهل كل صناعة على حدة لايشاركهم سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل ، وأكثر الصناع والباعة بها نساء ، ومرساها من أعظم المراسى رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة »(١) .

ويدل حديث ابن بطوطة على أن الهند كانت مركزا مهما لصناعة الثياب وأنها كانت تنتج أنواعا من الثياب الفاخرة ، ومن قوله فى حديثه عن هدية ملك الهند إلى ملك الصين : « ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن ، قيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز وهى التى يكون حرير إحداها مصبوغا بخمسة ألوان ، وأربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ، ومائة ثوب من الشيرين باف ، ومائة ثوب من الشان باف ، وخمسمائة ثوب من المرعز مائة منها ، سود ، ومائة بيض ، ومائة حمر ، ومائة خضر ، ومائة زرق ، ومائة شقة من الكتان الرومى ، ومائة فضلة من الملف ، وسراجة ، وست من القباب ، وأربع حسك من ذهب ، وست حسك من فضة منيلة »(٢) .

واشتهرت الصين بصناعة المراكب ، والكبار منها تسمى الجنوك ، وفيها يقول ابن بطوطة . « ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان(٣) وهى صين الصين ، وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصول بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة أذرع ، فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما فى البحر

---

(١) الرحلة ص ٣٨٨ (٢) الرحلة ص ٦٠٥

(٣) تسمى اليوم كانتون .

وأمواعمله ، وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم وهى كبار كالصوارى يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم »(١) .

ويشير ابن بطوطة إلى أن الصين كانت مشهورة بحرير دودة القز ، وأن دود القز كثير بالصين ، ومن قوله : « والحرير عندهم كثير جدا لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كبير مؤنة ولذلك كثر ، وهو لباس الفقراء والمساكين بها »(٢) .

الزراعة

عرف كثير من بلدان العالم الإسلامى بسعة الأراضى الزراعية وخصبها وتنوع المحاصيل الزراعية ، ويحدثنا ابن بطوطة عن الحاصلات الزراعية المصرية فيقول : « ومدينة ملطين ، وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار ، ثم سافرت فى أرض رملية إلى مدينة دمياط ، وهى مدينة فسيحة الأقطار متنوعة الثمار ، وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره إلى مصر فى المراكب »(٣) .

وفى وصف رحلته من القاهرة إلى أسيوط يقول : « ثم سرت إلى مدينة بوش وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى أفريقيا ، ثم سافرت إلى مدينة البهنسا ، وهى مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة »(٤) .

وعن الشام يقول : « ثم خرجت إلى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ، ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق ، وبها البطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب »(٥)

(١) الرحلة ص ٦٤٦ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٧١٨
(٣) الرحلة ص ٤٨ بتصرف .
(٤) الرحلة ص ٦٣ .
(٥) الرحلة ص ٨٠

ويقول : « وبحماة الفواكه الكثيرة ، وفيها المشمش اللوزى إذا كسرت نواته وجدت فى داخلها لوزة حلوة »(١) ويقول عن حماة أيضا : « وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة ، وشجرات الأعناب منتظمة به والبساتين على شاطىء نهرها »(٢).

ويتحدث عن العراق وخيراته فيقول : « العراق الشهيرة الذكر فى الآفاق ، ذات البساتين الكثيرة والفواكه الأثيرة ، توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت بمجمع البحرين الأجاج والعذب ، وليس فى الدنيا أكثر نخلا منها »(٣) .

ويقول ابن بطوطة عن فواكه أصفهان : « وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذى لانظير له يسمونه بقمر الدين، وهم ييبسونه ويدخرونه ،ونواه يكسر عن لوز حلو ، ومنها السفرجل الذى لامثيل له فى طيب المطعم وعظم الجرم والأعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذى لامثيل له فى الدنيا إلا ماكان من بطيخ بخارى وخوارزم ، وقشره أخضر وداخله أحمر »(٤) .

ومعظم حاصلات الهند - كما يقول ابن بطوطة - حاصلات فريدة، يقول: « وليس هنالك من أشجار بلاد ناشىء ماعدا النبق ، لكنه عندهم عظيم الجرم شديد الحلاوة ، ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شىء ببلادنا ولا بسواها ، فمنها العنبة (شجر المانجا) وهى شجرة تشبه أشجار النارنج إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا، فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ماسقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا ، فإذا نضجت العنبة فى أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح ،وهى حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ، ولها نواة كبيرة ، ومنها الشكى والبركى

(١) الرحلة ص ٨٥
(٢) الرحلة ص ٨٨
(٣) الرحلة ص ١٧٠
(٤) الرحلة ص ٢٢٠

وهى أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز ، وثمرها يخرج من أصل الشجر ، فما اتصل منها بالأرض فهو البركى وحلاوته أشد وطعمه أطيب ، وماكان فوق ذلك فهو الشكى ، وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فإذا أصفر فى أوان الخريف قطعوه وشقوه وهذا الشكى والبركى هو خير فاكهة ببلاد الهند »(١) .

وأراضى الصين من أخصب الأراضى ، يقول ابن بطوطة : « وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع ، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين ، وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى بل يفضله ، وبها البطيخ العجيب ، وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ماهو مثله وأحسن منه ، والقمح بها كثير جدا ولم أر قمحا أطيب منه ، وكذلك العدس والحمص »(٢) .

وتحدث ابن بطوطة عن الحاصلات الزراعية فى مالى ، يقول : « وأشجارها ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها ، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ، ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان ، وفى أشجار هذه الغابة ما يشبه شجرة الإجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها ، وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس ، فإذا طاب انفلق عن شىء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق ، ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها ، وطعمها كطعم الحمص المقلو ، والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان ، يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٤٦٤ بتصرف
(٢) الرحلة ص ٧١٧ بتصرف .
(٣) الرحلة ص ٧٧٨ .

الأموال المحصلة

كانت الحكومات تجبى أموالا تفرضها على البضائع الداخلة إليها، وأشار ابن بطوطة أيضا إلى الزكاة وإلى العشر على الأراضى الزراعية، وكانوا يجرون على الحدود تفتيشا خوفا من الجواسيس، وذكر ابن بطوطة أنهم كانوا لا يسمحون بالدخول إلى مصر من الشام أو الخروج من مصر إلا بإذن من السلطات.

ويقول د. السيد الباز: «وإذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لقى أنواع الحفاوة من السلطان، ولاسيما أيام الناصر محمد بن قلاوون»(١). ويتحدث القلقشندى عن مسامحة التجار الخواجكية فيما يلزمهم من المكوس والمقررات السلطانية نظير ثمن ما يباع من المماليك، يقول: «الخواجكية هم التجار الأجانب وكانوا أكثر ما يتجرون بالرقيق، فكانوا أشبه بالسفراء يؤتمنون على أسرار وأخبار الممالك التى يدخلونها فلا ينقلونها إلى غيرها من الممالك، كما كانوا يؤتمنون على الجوارى والمماليك الذين يحملونهم فى أسفارهم»(٢) وأورد نسخا من التوقيعات بالمسامحات ومنها نسخة بالمسامحة بما يستأدى على الأغنام الداخلة على حلب(٣).

ويذكر ابن بطوطة أن الأموال كانت تجبى بمدينة قطيا وهى قريبة من مدينة الصالحية، يقول: «ومن منازلها قطيا المشهورة، وبها تؤخذ الزكاة

---

(١) المماليك ص ٦٧ - د. السيد الباز العرينى.

(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٩ - والكاف فى الخواجكية فارسية تدخل مع ياء النسبة.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٧.

من التجار ونفيس أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين »(١) .

ويشير ابن بطوطة إلى أن الضرائب كانت تجبى بمدينة عيذاب أيضا ، فهو يتحدث عن اقتسام المدينة بين البجاة والسلطان الناصر ، ويتحدث عن الخلاف بينهم وقيام معركة حالت دون سفر ابن بطوطة ورفاقه .

على أن الضرائب كانت تزاد وتخفف تبعا للظروف والحكام ، وذكر ابن تغرى بردى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أبطل مظالم كثيرة من الضمانات والمكوس »(٢) .

وفى الصين كانوا يتشددون فى أخذ تلك الضرائب ، وكانوا يصادرون الجنك كله إذا كتم صاحبه شيئا من تجارته ، وفى الهند كانوا يغرمون صاحب السلعة أحد عشر مغرما إذا كتمها ، يقول ابن بطوطة : « وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه ، فإذا عاد الجنك إلى الصين صعدوا إليه أيضا وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس ، فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ، ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن ، وذلك نوع من الظلم ما رأيته إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ، أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما ، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٧٠
(٢) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٧٧
(٣) الرحلة ص ٧٢

ويشير ابن بطوطة إلى أن هذه الضرائب أو (المغارم) كما يسميها كانت غير الزكاة ومن قوله : « ثم سافرت إلى مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند، وفى الطريق إليها الوادى المعروف بخسرو أباد لا يجاز إلا بالمراكب، وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتح رحالهم، وكانت عادتهم حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ، ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وأمر ألا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما بايع الخليفة أبا العباس العباسى »(١).

وكان تحصيل الزكاة والجزية مطابقا للقوانين الإسلامية، يقول القلقشندى: « فإنهم يأخذون على كل مائتى درهم خمسة دراهم ، ثم إنه إذا كان بالبلد متجر لأحد من تجار الكارم (الفلفل والقرنفل ونحوها) وحال عليه الحول بالبلد أخذوا عليه الزكاة أيضا »(٢) ثم يقول : « وتؤخذ الجزية من أهل الذمة »(٣) .

العملات

كان الدينار والدرهم هما العملتان السائدتان فى دول العالم الإسلامى مع اختلاف قيمة الدينار والدرهم من بلد لآخر فبلاد المغرب العربى ومصر والشام كانت تتعامل بالدينار الذهبى ، ولا يعنى ذلك أن العملة كانت موحدة بينهم ، فلكل دولة دينارها ، وفى حديث ابن بطوطة عن تونس يقول : « وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب »(٤) .

وبعد خروج ابن بطوطة من الإسكندرية توجه إلى منية بنى مرشد

(١) الرحلة ص ٤٦٠ بتصرف
(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٩
(٣) المرجع نفسه ص ٥٣٠
(٤) الرحلة ص ٣١

للقاء أحد الأولياء ، ويقول : « وأضافني ناظرها زين الدين ابن الواعظ وسألني عن بلدي وعن مجباه فأخبرته أن مجباه نحو أثني عشر ألفا من دينار الذهب ، فعجب وقال لي : رأيت هذه القرية ؟ فإن مجباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهبا وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال(١) .

وفي حديث ابن بطوطة عن الضرائب والزكاة التي تجبى بين مصر والشام ذكر أنهم يتعاملون بالدينار الذهبي ، يقول : « ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب »(٢) .

وعن العراق يقول : « ولقد بعث إلى قاضيها بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فأردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم »(٣) ، ويقول في حديثه عن عدن : ذكر لي أن بعضهم بعث غلاما له ليشترى له كبشا ، وبعث آخر منهم غلاما له برسم ذلك أيضا ، فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد ، فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فأنهى ثمنه إلى أربعمائة دينار »(٤) .

أما في الهند فكانت العملة الرسمية الدرهم وذكر ذلك في مواقف عديدة ومن قوله : « فأعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وبعث معه خمسين ألف درهم ليشترى له الخيل العتاق »(٥) .وقد يذكر الدينار ولكن في موقف المعادلة أي يذكر الدراهم ويذكر ما يعادلها من الدنانير كأن يقول : « وفد على ملك الهند الفقير عبد العزيز الأردويلي وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق فتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم »(٦) .

وفي تركيا كانوا يتعاملون بالدينار والدرهم ، ومن قوله : « وسرنا إلى مدينة

(١) الرحلة ص ٤٤
(٢) الرحلة ص ٧٠
(٣) الرحلة ص ٢٠٧
(٤) الرحلة ص ٢٧٦
(٥) الرحلة ص ١٧٤
(٦) الرحلة ص ٢٣١

(أيا سلوق)(١) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا بأربعين دينارا »(٢) ويقول متحدثا عن مدينة قسطمونية : « فكنا نشترى طابق اللحم الغنمى السمين بدرهمين ، ونشترى خبزا بدرهمين ، ونشترى حلواء العسل بدرهمين ونشترى جوزا بدرهم وقسطلا بمثله »(٣)

وفى بلاد البنغال كانوا يتعاملون بالدينار الفضى وبالدرهم ، والدينار يساوى ثمانية دراهم ، يقول ابن بطوطة : « رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضى ، والدينار الفضى ثمانية دراهم ... وحدثنى محمد المصمودى : كان يشترى الأرز فى قشره بحساب ثمانين رطلا بثمانية دراهم ، ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة ، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد »(٤) .

وفى مدينة أكلك بشرق أوربا كانوا يتعاملون بسبائك الفضة ، يقول ابن بطوطة : « وتوجهنا إلى مدينة أكك وعندهم معادن الفضة ، ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهى سبائك الفضة التى بها يباع ويشترى فى هذه البلاد »(٥) .

وكان لبعض المدن عملات محلية لا تنفق خارجها ، ومن هذه المدن ظفار فقد كانوا يتعاملون بدراهم من النحاس والقصدير لا تنفق خارج المدينة ، يقول ابن بطوطة : « ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها »(٦) .

على أن العملات كانت تختلف قيمتها بحسب جودتها وارتفاع نسبة الذهب والفضة بها ، ثم إن بعض الحكام كانوا يصدرون أوامر برفع قيمة العملة

---

(١) تسمى اليوم سلجوك .
(٢) الرحلة ص ٣٣٣
(٣) الرحلة ص ٣٤٦
(٤) الرحلة ص ٦٩٨ .
(٥) الرحلة ص ٣٨٠
(٦) الرحلة ص ٢٨٥ .

أو خفضها ، وفى ذلك يقول ابن تغرى بردى فى حديثه عن الملك الناصر سلطان مصر فى حوادث سنة ٧٤٠ هـ : « وفى آخر شهر ربيع الآخر نودى على الذهب أن يكون صرف الدينار خمسة وعشرين درهما ، وكان بعشرين درهما »(١) . ويقول القلقشندى : «كانت مصر تتعامل بالدنانير ، ولكن وزن هذه الدنانير كان يختلف ، فكان بعض السلاطين يضربون دنانير فى عهدهم يختلف وزنها عن الدنانير التى كانت تستعمل قبلهم »(٢) .

والعملة فى الصين من الكاغد أى إنها عملة ورقية، وتستبدل هذه العملات بالدينار والدرهم ، وهم يسبكون الذهب والفضة قطعا تجعل على باب الدار ، وتسبك خواتم تلبس فى الأصابع ، يقول ابن بطوطة : « وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا » ويجعل ذلك على باب داره ، ومن كان له خمس قطع جعل فى إصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، وأهل الصين لايتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع مايتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرنا ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها (بالشت) وهو بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ، وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما أراد »(٣) .

وبعض المدن كانت تتعامل بنظام المقايضة ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن بلاد الظلمة بشرق أوربا . « فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١٤٣ .
(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٧ .
(٣) الرحلة ص ٧١٩ .

وعادوا إلى منزلهم المعتاد، فإذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بإزائه من السمور والسنجاب والقاقم، فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه، وإن لم يرضه تركه فيزيدونه، وربما رفعوا متاعهم - أعنى أهل الظلمة - وتركوا متاع التجار، وهكذا بيعهم وشراؤهم»[١].

وفى الطريق إلى مالى مر ابن بطوطة ببلاد يتعامل أهلها بالملح إلى جانب الذهب والفضة، يقول: «فوصلنا إلى تغازى وهى قرية لاخير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد فيه ألواح ضخام ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بإيوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين، وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به، وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة التبر»[٢].

وبعض المدن بالسودان كان أهلها يتعاملون بالودع، يقول: «ثم سرت إلى مدينة كوكو من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، وتعامل أهلها فى البيع والشراء بالودع، وكذلك أهل مالى»[٣]. وذكر ابن بطوطة أن أهل جزائر ذيبة المهل يتعاملون بالودع أيضا، يقول: «وصرف أهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه فى البحر ويضعونه فى حفر هناك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض»[٤].

وبعض الناس كانوا يتبادلون السلع بسلع أخرى مباشرة، يقول عن

---

(١) الرحلة ص ٣٧٥   (٢) الرحلة ص ٧٣٣
(٣) الرحلة ٧٩٦.   (٤) الرحلة ص ٦٥٨.

جزائر ذيبة المهل : « وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست »(١) .

الأوقاف

تحدث ابن بطوطة عن الأوقاف التى كانوا يحبسونها لصالح الفقراء وأبناء السبيل وكانوا ينفقون منها على الزوايا ويعولون من بها من المتصوفة والفقراء وطلاب العلم ، وكانت الأوقاف معروفة فى أنحاء العالم الإسلامى .

كانت الأوقاف بمصر والشام فى يد القضاة ، وكان الفقراء يقصدون القضاة ويطلبون المعونة فيعطونهم ، يقول ابن بطوطة : « إن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضى بها فيعطيه ماقدر له »(٢) . ويقول فى حديثه عن مدينة دمشق : « ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة »(٣) .

وأطنب ابن بطوطة فى الحديث عن أوجه المصارف التى ينفق فيها من الأوقاف فى دمشق وذكر أنها تنفق على تجهيز البنات ورصف الطرق وتعويض من كسرت آنيته ، يقول : « والأوقاف بدمشق لاتحصى أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتى لاقدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها

(١) الرحلة ص ٦٥٧
(٢) الرحلة ص ٦٦
(٣) الرحلة ص ١١٥

رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير ، مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى ، وهم يسمونها الصحن فتكسرت ، واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى ، فجمعها ، وذهب الرجل معه إليـــه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن »(١) .

وعرفت بلاد فارس الأوقاف ، يقول ابن بطوطة بعد وصوله إلى مدينة إيذج وتسمى أيضا (مال الأمـــير) : « وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته فإن عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء ، وجميعها من أوقاف السلطان عليها »(٢).

وفى بلاد المليبار كانوا يبنون الزوايا ويخصصون لها الأوقاف ويجعلون النظر فى هذه الأوقاف لأولادهم ، فإن انقرضوا صار النظر فيها للقضاة ، يقول : « ثم سافرنا إلى مدينة صاغر ، وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة ، ولهـــم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر ، وكل من بنى زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ١١٨ (٢) الرحلة ص ٢١٥ .
(٣) الرحلة ص ٦٢٩ .

الحياة العلمية

القارىء لرحلة ابن بطوطة يخرج بتصور مؤداه أن الأمية كانت منتشرة فى بلاد العالم الإسلامى ، وأن الجهود العلمية كانت مركزة فى التعليم الدينى ، وأن العلماء والقضاة كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة لدى الحكام ولدى عامة الشعب .

أوضحنا فى حديثنا السابق أن ابن بطوطة كانت ثقافته دينية وأنه كان يعد نفسه ليكون قاضيا ، وقد تحقق له ذلك فى أثناء رحلته وبعد رجوعه إلى بلده ، وقد تحدث عن التدريس بجامع الزيتونة ، وتحدث عن جماعة من العلماء فى المغرب العربى(١) . ومما يصور مكانة العلماء لدى عامة الشعب قول ابن بطوطة : « إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ، ولقاء أبى الطيب ابن القاضى أبى عبد الله النفزاوى »(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن النهضة العلمية بمصر ، ولم تكن مقصورة على مدينة القاهرة ففى حديثه عن مدينة الإسكندرية يتحدث عن بعض القضاة والعلماء فى العلوم الشرعية وغيرها(٣) ، ويقول : « وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها »(٤) .

ويورد ابن بطوطة أسماء كبار القضاة فى المذاهب الأربعة المشهورة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ، ويذكر أنهم كانوا يقعدون عن يسار الملك الناصر عند النظر فى المظالم ، ويورد أسماء بعض العلماء فى العلوم غير الشرعية ، ومن قوله . « ومن علماء مصر وأعيانها شمس الدين الأصبهانى إمام

---

(١) الرحلة ص ٣٣ — (٢) الرحلة ص ٣٢

(٣) الرحلة ص ٣٨ — (٤) الرحلة ص ٥٤

الدنيا فى المعقولات ، ومنهم ركن الدين بن القويع التونسى من الأئمة فى المعقولات ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى وهو أعلمهم بالنحو »(١) .

وتحدث ابن بطوطة عن النهضة العلمية بالشام ، وأورد أسماء بعض العلماء والقضاة بالقدس(٢) وبحلب(٣) كما تحدث عن جامع دمشق وحلقات التدريس فيه وأورد أسماء عديد من العلماء والقضاة(٤) . وذكر أنهم يهتمون بتحفيظ القرآن وتجويد الخطوط ، يقول : « وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى وإنما يقرءون القرآن تلقينا ، ومعلم الخط غير معلم القرآن ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره »(٥) .

وتحدث ابن بطوطة عن تعدد المدارس بدمشق(٦) . وذكر أنه سمع بجامع بنى أمية جميع صحيح الإمام البخارى رضى الله عنه(٧) كما تحدث عن بعض العالمات يقول : « والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم ابن سلامة الحرانى ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد ابن عبد الرحيم ابن عبد الواحد بن أحمد المقدسى »(٨) .

وكان بالمدينة المنورة عدد من العلماء من أقطار مختلفة آثروا البقاء بالأراضى المقدسة ، ومن قول ابن بطوطة : « وكان الإمام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وكان

---

(١) الرحلة ص ٦١ بتصرف .
(٢) الرحلة ص ٧٧
(٣) الرحلة ص ٨٨ .
(٤) الرحلة ص ١٠٨ .
(٥) الرحلة ص ١٠٨ .
(٦) الرحلة ص ١١١
(٧) الرحلة ص ١٢١ .
(٨) الرحلة ص ١٢٣

يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى ، يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة»(١).

وفى مكة أيضا وجدت المدارس وكثر العلماء ولكل مذهب إمام بارز ، يقول ابن بطوطة : « وبمقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف ابن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر »(٢) وأورد أسماء عديد من العلماء(٣) .

وبالعراق كثير من المدارس والعلماء يقول ابن بطوطة متحدثا عن النجف : « ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة »(٤) وفى مدينة بغداد مساجد يتلقى الطلبة بها العلم ، يقول : « وبهذه الجهة الشرقية من المساجد ثلاثة : أحدها جامع الخليفة ، لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر ابن على بن عمر القزوينى ، وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله الدارمى »(٥) ويتحدث ابن بطوطة عن تحفيظ القرآن بمدينة واسط(٦) ، ويذكر أن العلماء بإيران معظمون غاية التعظيم حتى إن السلطان يجلس فى حضرة القاضى موفيا إياه غاية الاحترام ، يقول : « قد تكرر لى لقاء القاضى مجد الدين زرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك غاية الأدب عندهم ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك ، وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضى ، وإنما يقولون له . مولانا أعظم »(٧) .

---

(١) الرحلة ص ١٣٩
(٢) الرحلة ص ١٦٠
(٣) الرحلة ص ١٧١ وما بعدها
(٤) الرحلة ص ١٩٨
(٥) الرحلة ص ٢٤٤ .
(٦) الرحلة ص ٢٠٥
(٧) الرحلة ص ٢٢٦

وفى تركيا كان السلاطين يهتمون بالعلم ويقدرون العلماء(١) وكان سلاطين الهند يقدرون العلماء ويسبغون عليهم عطاياهم ، يقول ابن بطوطة : « وكان الفقيه الواعظ (الترمذى ناصر الدين) قدم على السلطان وأقام تحت إحسانه مدة عام ، ثم أحب الرجوع إلى وطنه فأذن له فى ذلك ، ولم يكن سمع كلامه ووعظه ، فأمر أن يهيأ له منبر من الصندل الأبيض ، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب ، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم ، وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة ومرصعة بالجوهر وعمامة مثلها ، وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم ، فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ولما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه واركبه على فيل ، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه ، وكنت فى جملتهم ، وقد كان السلطان أعطاه عند قومه مائة ألف دينار دراهم ، ومائتين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم »(٢) .

وفى حديثه عن بلاد المليبار مايدل على وجود نهضة تعليمية يقبل عليها البنات والبنون ، ويدل حديثه أيضا على قلة المكاتب التى يتعلم فيها البنات ، ونص على ذلك إذ يقول : « ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن الكريم ، ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد ، ولم أر ذلك فى سواها »(٣) .

على أن بعض العلماء لقى شيئا من العنت لرفضه العمل للسلطان ، وقد عاقب سلطان الهند أحد العلماء وأمر بنتف لحيته ، يقول : « وكان الشيخ شهاب الدين من كبار المشايخ العلماء الفضلاء ، فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة ، وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام فأظهر الإباء والامتناع ، فغضب السلطان

---

(١) الرحلة ص ٣٣٠ (٢) الرحلة ص ٥٢٣ بتصرف

(٣) الرحلة ص ٦٣٤ .

من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته ، فأبى ضياء الدين من ذلك وقال : لا أفعل هذا ، فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فنتف ، ونفى ضياء الدين إلى بلاد التلنك ، ونفى شهاب الدين إلى دولة أباد »(١) .

ونلمح فى كلام ابن بطوطة على انخفاض المستوى العلمى للعلماء فيما عدا العلوم الدينية ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة البصرة : « وشهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب إلى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا ، فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضى حجة الدين ، فقال لى : إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو ، وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور ، وهذه البصرة التى إلى أهلها انتهت رياسة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها أمامه الذى لا ينكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة »(٢) .

ويبدو من حديث ابن بطوطة أن المساجد كانت تقوم بدور كبير فى مجال التعليم ، فقد كانت حلقات التدريس تعقد فى المساجد ، ويستند الشيخ إلى سارية أو يستند إلى المحراب ، ويتحلق الطلبة حوله يستمعون إلى درسه ، وإلى جانب المساجد كانت هناك مدارس وكتاتيب لتلقين العلم وتحفيظ القرآن .

ذكر ابن بطوطة عند نزوله بتونس أنه نزل بمدرسة الكتبيين ، وتحدث عن الفقيه أبى على الهوارى فذكر أنه يستند إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل(٣) . وذكر الإمام أبا الحسن عالم مدينة صفاقس ومؤلف كتاب التبصرة فى الفقه .

---

(١) الرحلة ص ٥٤١ بتصرف (٢) الرحلة ص ٢٠٨

(٣) الرحلة ص ٣٣ .

وكانت حلقات التدريس بمصر تعقد بالجامع الأزهر ، كما كانت هناك مدارس كثيرة بمصر ، ويبدو من كلام ابن بطوطة أن مسجد عمرو بن العاص خلا من حلقات التدريس فى أيامه ، وفى بغداد كانت حلقات التدريس تعقد فى المدرسة النظامية .

وذكر ابن بطوطة بعض التفصيلات عن التدريس بجامع بنى أمية بدمشق ، ومن قوله : « ولهذا المسجد حلقات للتدريس فى فنون العلم ، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسى مرتفعة ، وقراءة القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الألواح تنزيها لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرءون القرآن تلقينا »(١) .

وكان التدريس بالمسجد ظاهرة عامة فى كل بلاد العالم الإسلامى ، وفى حديثه عن جامع شيراز يقول : « وبهذا الجامع يصلى القاضى مجد الدين ، وبهذا الجامع سمعت عليه كتاب مسند الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، وسمعت أيضا عن القاضى مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب (مشارق الأنوار) للإمام رضى الله أبى الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى »(٢) .

ودل كتاب ابن بطوطة على أن الطالب كان يمنح إجازة حين يتم دراسته ودل أيضا على وجود عالمات معترف بعلمهن ، يقول ابن بطوطة فى إسناد كتاب الشافعى : « أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا »(٣) وفى حديثه عن جامع شيراز يقول : « ولقد لقيت بهذا المسجد الشيخ الإمام العالم

---

(١) الرحلة ص ١٠٨

(٢) الرحلة ص ٢٣٤ بتصرف

(٣) الرحلة ص ٢٣٤

الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص محمد بن على بن عمر القزوينى ، وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله ابن عبد الرحمن الدرامى ، أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبى الحسن على بن على بن أبى البدر »(١) .

ويتحدث ابن بطوطة عن إجازة العلماء له ، يقول : « وسمعت بجامع بنى أمية جميع صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفى البخارى رضى الله عنه على الشيخ المعمر شهاب الدين أحمد بن أبى طالب ، وبإجازته فى جميع الكتب عن الشيخين أبى الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعى ، وعلى بن أبى بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانسى العطار البغدادى »(٢) .

ويدل حديث ابن بطوطة على أنهم كانوا يكتبون فى سعف النخل إلى جانب الكتابة فى الورق ، وكان الورق قد عرف منذ عهد هارون الرشيد ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن جزائر ذيبة المهل : « وهم يكتبون الأوامر فى سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ، ولا يكتبون فى الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم »(٣) .

الحياة الأدبية

لم يبين ابن بطوطة مدى الاهتمام بالدراسات الأدبية ، فقد كان جل اهتمامه موجها إلى العلوم الدينية ، وقد أشار إشارات سريعة إلى تقديرهم للشعر والشعراء ، فقد ذكر أن قاضى حلب أجاز الشاعر الذى مدحه

---

(١) الرحلة ص ٢٤٤ .
(٢) الرحلة ص ١٢٢ .
(٣) الرحلة ص ٦٦١ .

بقصيدة حين ولى قضاء حلب ، يقول ابن بطوطة : « والقضاة بحلب أربعة المذاهب الأربعة ، فمنهم القاضى كمال الدين بن الزملكانى شافعى المذهب ، ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها ، وكان فيمن قصده الشاعر الشاب شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله بن نباتة القرشى الأموى الميافارقينى فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة أولها :

أسفت لفقدك جلق الفيحاء وتباشرت لقدومك الشهباء
وعلى دمشق وقد رحلت كآبة وعلى ربا حلب سنا وسناء(١)

والفيحاء دمشق ، والشهباء حلب ، ومطلع القصيدة غير ملائم فقد بدأها بالأسف لفقده ، وقد نص ابن بطوطة على ذلك وذكر أن القاضى أجازه عليها ، يقول : « وهى أزيد من خمسين بيتا ، وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت »(٢) .

ويذكر ابن بطوطة أن الشعر التركى كان محل تقدير من سلاطين تركيا ، فهو يذكر سلطان قصطمونية السلطان بادشاه ، ويتحدث عن مجلسه وما يدور فيه من قراءة القرآن والصلاة ، إلى أن يقول : « فإذا فرغ القارىء من قراءته قام المعرف وهو المذكور فيمدح السلطان بشعر تركى ، ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف »(٣) .

وذكر ابن بطوطة أن السلطان محمد تغلق سلطان الهند كافأ أحد الشعراء بما لم يكافىء به خلفاء العباسيين ، فقد أعطى لكل بيت من القصيدة ألف دينار ، يقول : « وكان الفقيه شمس الدين الأندكانى حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسى ، وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين

---

(١) الرحلة ص ٨٨ ، ٨٩ (٢) الصفحة نفسها
(٣) الرحلة ص ٣٤٧

بيتا ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم ، وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على كل بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان »(١) .

وذكر ابن بطوطة أنه مدح سلطان الهند بقصيدة طويلة باللغة العربية وترجمها الترجمان له فكافأه وقضى دينه ، وأورد من القصيدة سبعة أبيات ، وفيها يطلب العطاء من السلطان صراحة ، ومن قوله :

« ولى حاجة من فيض جودك أرتجى
قضاها وقصدى عند مجدك سهلا

أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم — فإن حياكم ذكره كان أجملا

فعجل لمن وافى محلك زائرا — قضا دينه ، إن الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسى ، فجعلها على ركبته وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثانى بيدى ، وكنت إذا أكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى : بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب السلطان ، وهم يحبون الشعر العربى »(٢) .

وفى الصين كانوا يتغنون بالشعر الصينى وبالعربى وبالفارسى ، يقول ابن بطوطة : « فركبنا فى سفينة تشبه الحراقة ، وركب ابن الأمير فى أخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى ، وكانوا يغنون بالصينى وبالعربى وبالفارسى وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسى فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وهو :

تادل بمحنت داديم — در بحر فكر افتاديم

جن در نماز استاديم — قوى بمحراب أندريم

معنى ذلك : منذ أن تركنا أنفسنا للحزن وقعنا فى بحر التفكير ، عندما نقف للصلاة نكون أقوياء عند المحراب »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٢٥٢ — (٢) الرحلة ص ٥٨٨

(٣) الرحلة ص ٧٣٠

وفى مالى ينشد الشعراء أشعارهم فى المناسبات أمام السلطان ، يقول ابن بطوطة : « وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا (السلطان) لعبه جاء الشعراء ويسمون الجلا ، وأحدهم جالى ، وقد دخل كل واحد منهم فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق ، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ، ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم »[١] .

وهكذا كان الشعر يحتل مكانة سامية فى أرجاء العالم الإسلامى آنذاك .

---

(١) الرحلة ص ٧٨٧ .

الفصل الثالث

الحيـــاة الدينية

قوة المشاعر الدينية عند ابن بطوطة

كان الهدف الأول لابن بطوطة من الرحلة زيارة الأراضى المقدسة ، يقول فى صدر حديثه : «كان خروجى من طنجة مسقط رأسى معتمرا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنسى بصحبته ، وراكب أكون فى جملته ، لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم »(١) .

فالهدف الأول من الرحلة كان هدفا دينيا ، ونجد ابن بطوطة تولى الجانب الدينى اهتماما كبيرا ، ويصور الملامح الدينية البارزة فى العالم الإسلامى وأحوال الأراضى المقدسة ، ويتحدث عن الفرق الدينية وعن المتصوفة وعن الزوايا والخوانق ، ويصور الاحتفالات الدينية ، ويتحدث عن أهل الديانات الأخرى فى العالم الإسلامى ، ويتحدث عن كثير من الأحكام الدينية ، وهكذا صور الجانب الدينى فى العالم الإسلامى تصويرا واضحا .

الديانات فى العالم الإسلامى
والعلاقات بين أصحابها

كان العالم الإسلامى يضم إلى جانب المسلمين ديانات مختلفة ، وكان أهل هذه الديانات يعيشون متجاورين فى سلام فى معظم الأحيان وفى معظم الأماكن ، ولكن ابن بطوطة يحدثنا عن نشوب قتال دينى فى بعض الأحيان ويحدثنا عن العزلة بين أهل هذه الديانات فى بعض البلاد .

كان هناك مسيحيون يعيشون بجانب المسلمين فى سلام فى العالم العربى

---

(١) الرحلة ص ٣٠ .

فى معظم الأحيان ، ويحدثنا ابن بطوطة عن خلاف وقع فى الإسكندرية بين المسلمين وتجار النصارى ، وأن والى الإسكندرية إنحاز إلى النصارى وطير الخبر إلى الملك الناصر فبعث الناصر أميرين صادروا الأموال وقتلا ستة وثلاثين رجلا من أهل الإسكندرية(١) .

وبعيدا عن العالم العربى وفى مدينة أنطاليا بآسيا الصغرى كانت الطوائف تعيش فى عزلة وتنافر ، وكل طائفة تسكن فى حى له سور تسد أبوابه ليلا ، يقول ابن بطوطة : « وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ماكثون فيها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة ، والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به ، وعليهم أيضا سور ، واليهود فى آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ، ويفرق بينها وبين ماذكرناه من الفرق ، وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى »(٢) .

وكان المسيحيون فى البلاد الإسلامية يتمتعون بحرية العبادة ، وكانت لهم كنائسهم يقيمون فيها طقوسهم ، ويحدثنا ابن بطوطة عن كنيسة بمدينة دينور فى سيلان ، فيها صنم معروف يتجمع حوله ألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من بنات اليهود ، يقول ابن بطوطة : « ورحلنا إلى مدينة دينور وبها الصنم المعروف فى كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات اليهود ، ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن »(٣) .

وكان بعض النصارى يدفعون الجزية للمسلمين ، وفى حديث ابن بطوطة عن مدينة حبنق التى وصلها وهو فى طريقه إلى بلاد البنغال يقول :

---

(١) الرحلة ص ٤١ .
(٢) الرحلة ص ٣١٣ .
(٣) الرحلة ص ٦٨٣

« وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزرعون ووظائف سوى ذلك »(١) .

ومن المعروف عن اليهود أنهم يعيشون في عزلة ولا يندمجون في المجتمعات ولكنهم أحيانا يتسللون إلى رجالات الدولة ويصيرون من خواصهم ، ويحدثنا ابن بطوطة أن طبيبا يهوديا تسلل إلى سلطان مدينة بركى بآسيا الصغرى وصار من الأثيرين عنده ، يقول : « وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة ، فسلم عليه ، وقام له القاضي والفقيه ، وقعد أمام السلطان فوق المصطبة ، والقراء أسفل منه ، فقلت للفقيه : من هذا الشيخ ؟ . فقال لي : هذا يهودي طبيب وكلنا محتاج إليه ، فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له ، فأخذني ما حدث ، فقلت لليهودي : ياملعون ، يا ابن ملعون ، كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي ؟ . وشتمته ورفعت صوتي ، فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي فأخبره الفقيه به ، وغضب اليهودي فخرج عن المجلس في أسوأ حال ، ولما انصرفنا قال الفقيه : أحسنت ، بارك الله فيك ، إن أحدا سواك لايتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه »(٢) .

وأشد الطوائف عداء للمسلمين كفار الهنود ، وهم يعبدون البقر ويحرقون من يذبحها ويستشفون بأبوالها ويلطخون حيطانهم بأرواثها(٣) . وكان كفار الهنود متعصبين ضد المسلمين حتى إنهم لا يؤاكلونهم ، وإذا أكل طفل من طعام المسلمين أطعموه روث البقر ليطهروا معدته ، يقول ابن بطوطة : « كفار الهنود لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم في آنيتهم ولا يسقونهم فيها ولقد كنا نضطر إلى أن يطبخ لنا بعضهم اللحم فيأتون به في قدورهم

---

(١) الرحلة ص ٧٠٢   (٢) الرحلة ص ٣٣١

(٣) الرحلة ص ٥٠١

ويقعدون على بعدمنا ويأتون بأوراق الموز فيجعلون عليها الأرز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشال وهو الإدام ، ويذهبون فنأكل منه ، وما فضل عليها تأكله الكلاب والطير ، وإن أكل منها الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه ورث البقر »(١) .

وكانت الأمور تتطور أحيانا إلى القتال ، وذكر ابن بطوطة أن الهنود حاصروا بلدة الجلالى وقاتلوا أهلها ، ولكن المسلمين انقضوا عليهم وهزموهم وغنموا ما معهم(٢) . وذكر أن بيوت الأصنام كانت موجودة بالهند(٣) .

وفى حديثه عن بلاد المليبار يقول : « ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن وأكثر أهلها براهمة(٤) . « والبراهمة ينكرون النبوات أصلا ، واستدلوا لرأيهم فقالوا : إن الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين : إما أن يكون معقولا ، وإما ألا يكون معقولا ، فإن كان معقولا فقد كفانا العقل إدراكه ، وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا »(٥) .

وطاف ابن بطوطة بلاد الصين وذهب إلى مدينة الخنسا ، وذكر أن المدينة مقسمة إلى ست مدن ، وفى المدينة الثانية يوجد اليهود والنصارى وعبدة الشمس ، يقول : « وفى اليوم الثانى دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ، ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير »(٦) .

---

(١) الرحلة ص ٢٣٣ . (٢) الرحلة ص ٦١١
(٣) الرحلة ص ٦٥٩ . (٤) الرحلة ص ٦٤٣ .
(٥) الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥١ - محمد ابن عبد الكريم الشهرستانى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى .
(٦) الرحلة ص ٧٢٨

الاهتمام بالعلوم الدينية وتقدير العلماء

كان التعليم موجها فى جملته إلى العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه وكانت المساجد تقوم بدور كبير فى التعليم وتخريج العلماء ، كما كانت هناك مدارس يتعلم فيها الطلبة ، وعندما يصل الطالب إلى درجة تؤهـله للفتوى والتدريس يجيزه أساتذته ويصير واحدا من العلماء ، وأورد ابن بطوطة أسماء مئات من مشاهير العلماء فى وقته وبين تخصصاتهم ، وكان النحو والمنطق من التخصصات التى نالت الاهتمام ، وكانوا أيضا يهتمون بتحفيظ القرآن الكريم .

وكانت هناك مساجد تمثل الجامعات فى عصرنا الحاضر تعقد فيها حلقات التدريس ، ويجلس الشيخ مستندا إلى سارية أو إلى المحراب ويلتف حوله طلابه ويلقى عليهم الدروس فى تخصيصه ، كما كان العلماء يجلسون للفتوى ويجيبون على أسئلة المواطنين ، وقد تحدث ابن بطوطة عن جامع الزيتونة بتونس ، وعن الجامع الأزهر وجامع بغداد وجامع بنى أمية بدمشق وغيرها ومن قوله : « ومنهم الفقيه أبو على عمر بن على بن قداح الهوارى ، وولى أيضا قضاءها وكان من أعلام العلماء ، ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاته إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس فى المسائل »(١) ، وكان صحيح البخارى من أبرز الكتب التى يهتمون بتدريسها للطلاب .

ولقى العلماء والقضاة إحترام الشعب وتقدير السلاطين والحكام فى كل مكان ، ومما يصور إحترام الشعب للعلماء قول ابن بطوطة : « إلى أن وصلنا

---

(١) الرحلة ص ٣٣ .

إلى مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبى عبد الله الزبيدى ، ولقاء أبى الطيب بن القاضى أبى عبد الله النفراوى »(١) .

وكان السلاطين والحكام يولون العلماء كل تقدير واحترام ، ويمنحونهم المكافآت السخية ، ومما يصور ذلك قول ابن بطوطة فى حديثه عن شيراز : « قد تكرر لى لقاء القاضى مجدالدين ثانية ، زرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق قاعدا بين يديه ممسكا بأذن نفسه ، وذلك هو غاية الأدب عندهم ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدى الملك ، وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضى وإنما يقولون له مولانا أعظم »(٢) .

ومما يصور احترام السلاطين للعلماء وسخاءهم فى عطاياهم قول ابن بطوطة متحدثا عن الفقيه الترمذى ناصر الدين حين قدم على سلطان الهند : « وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة ومرصعة بالجواهر ، وعمامة مثلها ، وأخذ الفقهاء والأمراء مجالسهم ، فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ، ولما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل ، وأمر جميع من حضروا أن يمشوا بين يديه ، وكنت فى جملتهم ، وقد كان السلطان أعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومائتين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم »(٣) .

وكانت المذاهب السائدة أربعة هى : الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى وهناك مذاهب أخرى ولكنها غير منتشرة ، وسنشير إلى بعضها فى حديثنا القادم ويرجح أحد المذاهب الأربعة غيره فى بلد من البلدان ، وفى مصر حين زارها ابن بطوطة كان قاضى قضاة الشافعية أعلى القضاة مرتبة ، يقول ابن بطوطة : « ومن قضاة مصر فى عهد دخولى إليها قاضى القضاة الشافعية

---

(١) الرحلة ص ٣٢ .
(٢) الرحلة ص ٢٢٦
(٣) الرحلة ص ٥٢٣ بتصرف .

وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا ، وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم ، وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين بن جماعة ، وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ، ومنهم قاضى قضاة المالكية الإمام الصالح تقى الدين الأخنائى ، ومنهم قاضى قضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريرى ، وكان سديد السطوة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لى أن الملك الناصر قال يوما لجلسائه : إنى لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريرى ، ومنهم قاضى قضاة الحنبلية ، ولا أعرفه الآن ، إلا أنه كان يدعى بعز الدين »(١) .

والإسلام يبيح للعلماء الاجتهاد فى حدود التعاليم الإسلامية المقررة ، وقد اجتهد الصحابة رضوان الله عليهم ، ولكن التنافس بين العلماء بعد ذلك وصل فى بعض الأحيان إلى درجة ممقوتة ، ووصل إلى حديث الدسائس عند الحكام لبعض العلماء ، وقد يكون هذا نابعا من الحقد ، وقد يكون نابعا من ضيق الأفق والتعصب المقيت للرأى ، وفى أيام ابن بطوطة تعصب بعض العلماء ضد ابن تيمية ، واتهموه بالتجسيم وتشبيه الله تعالى بالمخلوقات ، وسجنه الملك الناصر مرتين ، وفى المرة الثانية مات فى سجنه ، وقد أورد ابن بطوطة هذه الحادثة ، وكان هواه ضد ابن تيمية وقال فيه : « وكان بدمشق من كبار فقهاء الحنابلة تقى الدين ابن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون إلا أن فى عقله شيئا »(٢) .

وزعم ابن بطوطة أنه حضر الخطبة التى ألقاها ابن بطوطة بدمشق واعتقل على إثرها ، مع أن ابن بطوطة وصل دمشق بعد اعتقال ابن تيمية بشهر كما نص على تاريخ وصوله فى موضع آخر .

---

(١) الرحلة ص ٦٠ .   (٢) الرحلة ص ١٠٩

وقد حزنت دمشق لوفاة ابن تيمية وخرجت كلها لتوديعه كما يقول الحافظ ابن كثير . « فى ليلة الاثنين العشرين من ذى القعدة توفى الشيخ الإمام العالم تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية بقلعة دمشق التى كان محبوسا بها ، وحضر جمع كثير إلى القلعة ، وقرءوا القرآن ، وتبركوا برؤيته وتقبيله ، ثم حضر جماعة من النساء ، ثم اجتمع الخلق بالقلعة والطريق إلى الجامع ، وامتلأ الجامع أيضا ، وأغلق الناس حوانيتهم ، ولم يتخلف عن الحضور إلا من هو عاجز عن الحضور »(١) .

المذاهب والفرق الإسلامية

تحدث ابن بطوطة عن كثير من المذاهب والفرق الإسلامية ، ومنها ما هو معروف مشهور ، ومنها ما هو مجهول مغمور لا نكاد نسمع عنه ، وبعض هذه الفرق كان له رأى معتمد فى علم الكلام ، وكانت له مواقف مشهودة فى الدفاع عن الإسلام ومناظرة الملحدين ، وبعضها لم يكن له مواقف محمودة ، وتقوم مبادئه على الدعايات التى لا أساس لها ، ونستطيع أن نقول : تقوم مبادئه على الشعوذة والألاعيب .

المعتزلة

تحدث ابن بطوطة عن المعتزلة خلال حديثه عن اليمن ، والمعتزلة إحدى الفرق المهمة فى تاريخ علم الكلام ، وقد ظهر المعتزلة فى أواخر القرن الأول أو فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وظهر هذا المذهب على يد واصل بن عطاء فى مجلس الحسن البصرى ، وقد ولد واصل سنة ٨٠ هـ ومات الحسن البصرى سنة ١١٠ هـ ، « وقد تناظر واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فى مرتكب

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٥ - الحافظ ابن كثير . دار الفكر العربى .

الكبيرة أمام الحسن البصرى »(١) . وتختلف الآراء فى سبب هذه التسمية ، وأرجح الآراء « أن الحسن البصرى سئل عن حكم مرتكب الكبيرة ، فتعجل واصل ــ وكان تلميذا للحسن ــ فقال : أنا أقول : إنه فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفرة ، فقال الحسن : اعتزلنا واصل »(٢) .

وكان واصل محبا للعلم مخلصا فى العبادة ، « قالت أخت واصل ، كان واصل إذا أجنه الليل صف قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان ، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد فى صلاته »(٣) .

وألف واصل كتبا فى الرد على مخالفيه وفى الرد على أصحاب المذاهب الفاسدة ، وسار المعتزلة فى نفس الطريق فى مناظرة الفرق الإسلامية وأصحاب المذاهب الهدامة .

وهكذا نرى أن المعتزلة كان لهم مواقف مشرفة ، وكانت لهم آراء لم يرض عنها جمهور المسلمين ، ومنها أنهم ينكرون القدر ويقولون : إن العبد يخلق أفعاله ، وهذه وغيرها آراء اجتهادية لا تهوى بهم فى مهاوى الضلال .

وابن بطوطة لا يرضى عن مذهب المعتزلة ، وقد تحدث عنهم أثناء حديثه عن اليمن ، ولكنه لم يتحدث عنهم حديثا علميا قائما على المناقشة وإنما أظهر فساد مذهبهم من خــــلال حديثه عن كرامة لأحد الأولياء ، وهو يؤمن بالأولياء والكرامات إيمانا مطلقا ، وهنا يقول : « ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة لزيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات ، فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ، ولم يبرح

---

(١) أمالى المرتضى ج ١ / ١٦٥ ــ مطبعة عيسى الحلبى .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٩٤ أبو منصور البغدادى مطبعة المعارف .

(٣) المنية والأمل ص ١٩ ــ أحمد بن يحيى المرتضى ، دائرة المعارف النظامية .

الشيخ عن موضعه ، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام فى مسألة القدر ، وكانوا يقولون : أن لاقدر وأن المكاف يخلق أفعاله ، فقال لهم الشيخ : فإذا كان الأمر على ماتقولون نقوموا عن مكانكم هذا ، فأرادوا القيام فلم يستطيعوا ، وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية ، وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر وغلبهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم ، فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له : إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيء ، وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا وانصرفوا إلى بلادهم »(١) . وهذا كلام بعيد عن المنهج العلمى .

الروافض

سمى الروافض بذلك لأنهم رفضوا الخلفاء الثلاثة السابقين لعلى ابن أبى طالب وهم من الفرق المتطرفة ، وآراؤهم من الفرق المتطرفة ، وآراؤهم مجافية لروح الإسلام ، وقد تحدث ابن بطوطة عنهم فى مواقف عديدة ، ويبدو ابن بطوطة فى كل المواقف سيء الظن بهم ، وقد تحولوا إلى القتال ضد أهل السنة وصاروا مصدر قلق وفساد وتفكك للدولة الإسلامية .

ذكر ابن بطوطة أن الروافض يخالفون المسلمين فى التوضؤ ، وذكر أنه رأى فى صور رافضيا يبدأ بغسل رجليه ويقول :إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس ، يقول ابن بطوطة: «ثم سافرت إلى مدينة صور وأكثر أهلها أرفاض، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض

(١) الرحلة ص ٢٧٣

ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه فى فعله ، فقال لى : إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس »(١) .

وذكر ابن بطوطة أنهم يخالفون أيضا فى الأذان ، وقد سمع أذانهم فى مدينة القطيف بعد خروجه من البحرين ، يقول : « ثم سافرنا إلى مدينة القطيف تسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة ، ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن عليا ولى الله ، ويزيد بعد الحيعلتين : حى على خير العمل ، ويزيد بعد التكبير الأخير : محمد وعلى خير البشر ، من خالفهما فقد كفر »(٢) .

وكانوا يبغضون العشرة المبشرين بالجنة ماعدا عليا ، ولا يذكرون لفظ العشرة ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة سرمين بالشام : « وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجيب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة ، وينادى سماسرتهم بالأسواق على السلع فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا : وواحد ، وحضر بها بعض الأتراك يوما فسمع سمسارا ينادى : تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال : قل : عشرة »(٣) .

ويذكر ابن بطوطة أن بعض الروافض تحولوا إلى قطاع طرق ، وكانوا يقطنون على جانب نهر الفرات ، يقول ابن بطوطة : « يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب ، خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال »(٤) .

أما فى مدينة أصفهان فقد نشب القتال بين الروافض وأهل السنة حتى خرب أكثرها ، يقول ابن بطوطة : « ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان وهى من كبار المدن وحسانها ، إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التى

---

(١) الرحلة ص ٨١ (٢) الرحلة ص ٣٠٥

(٣) الرحلة ص ٨٦ . (٤) الرحلة ص ٤ ٢

بين أهل السنة والروافض ، وهى متصلة بينهم حتى الآن ، فلا يزالون فى قتال »(١) .

الشيعة

القارىء لرحلة ابن بطوطة يتبين بوضوح حبه لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويتبين أيضا أنه معتدل فى هذا الحب لا يغالى فيه كما يفعل غلاة الشيعة ، وقد أعلن سخطه على غلاة الشيعة إذ يقول فى أهل مدينة النجف : « صحبتهم فى الأسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا فى على رضى الله عنه »(٢) .

وتحدث عن بعض فرق الشيعة الذين رآهم فى رحلته ، ومنهم :

النصيرية

تحدث ابن بطوطة عن طائفة تسمى النصيرية وهم من غـــلاة الشيعة يعتقدون أن على بن أبى طالب إله ، وهؤلاء يسكنون سواحل الشام ، ولا يصلون ولا يصومون ويسخرون من المؤذنين ، ولم يكتفوا بذلك بل لجئوا إلى القتال ، يقول ابن بطوطة : « وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن على بن أبى طالب إله ، وهم لا يصلون ولا يتطهرون لا يصومون ، وربما وصل الغريب فينزل بالمسجد ويؤذن إلى الصلاة فيقولون : (لا تنهق علفك يأتيك) .

ذكر لى أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فوعدهم بتلك البلاد ، وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج إليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم : « استظهروا بها فإنها كالأوامر لكم . ثم إنه أمرهم بالتجهز لقتال

---

(١) الرحلة ص ٢٢٠ (٢) الرحلة ص ١٩٩

المسلمين وأن يبدءوا بمدينة جبلة ، وأمرهم أن يأخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير فى أيديهم سيوفا عند القتال ، فغدروا مدينة جبلة وأهلها فى صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ، وثاب المسلمون من مسجدهم فأخذوا السلاح وقتلوا كيف شاءوا ، وطيرت الحمام إلى طرابلس فأتى أمير الأمراء بعساكرهم وتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفا »(١) .

وتحدث القلقشندى عن فرقة النصيرية فقال : « هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم يدعون ألوهية على رضى الله عنه مغالاة فيه ، قال الشهرستانى : « ولهم جماعة ينصرون مذهبهم ويذبون عن أصحاب مقالاتهم ، وبينهم خلاف فى كيفية إطلاق الألوهية على الأئمة أهل البيت »(٢) .

وأورد القلقشندى مرسوما صادرا من الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر يعلن فيه كفر هذه الطائفة ويأمرهم بإقامة المساجد فى قراهم ، ومما ورد فى هذا المرسوم : « ومنها أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة (طرابلس الشام) قرى سكانها يعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبا ، ولا خالط لهم لبا ، ولا أظهروا له بينهم شعارا ، ولا أقاموا له منارا ، يخالفون ويجهلون جلاله وحرامه » .

ثم أمرهم ونهاهم فقال : « وأما النصيرية فليعمروا فى بلادهم بكل قرية مسجدا ويطلق له من أرض القرية رقعة تقوم به وبمن يكون فيها من القوام بمصالحه على حسب الكفاية ... وكذلك رسمنا بمنع النصيرية من الخطاب ، وألا يمكنوا بعد ورود هذا من الخطاب جملة كافية ، وتؤخذ الشهادة على

---

(١) الرحلة ص ٩٦ بتصرف

(٢) صبح الأعشى ٢٥٣/١٣ - القلقشندى دار الكتب العلمية .

أكابرهم ومشايخ قراهم لئلا يعود إلى أحد منهم التظاهر بالخطاب ، ومن تظاهر به قوبل أشد مقابلة »(١) .

وكان القتال يثور بين طوائف الشيعة أنفسهم ، وذكر ابن بطوطة أن القتال كان يثور بين طوائف الإمامية ؛ وذكر أن معتقداتهم أنهم ينتظرون خروج صاحب الزمان كل ليلة ، يقول ابن بطوطة : « فنزلنا مدينة الحلة ، وأهل هذه المدينة كلها إمامية اثنا عشرية ، وهم طائفتان : إحداهما تعرف بالأكراد . والأخرى تعرف بأهل الجامعين ، والفتن بينهم متصلة والقتال قائم ، وبمقربة من السوق الأعظم مسجد على ، وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أن يخرج فى كل ليلة مائة رجل عليهم السلاح وبأيديهم سيوف مشهورة ، ويضربون الطبول والأنفار والبوقات ، ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله ، يا صاحب الزمان ، باسم الله أخرج . قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بين الحق والباطل »(٢) . وذكر أيضا أن بمدينة كربلاء طائفتين : أولاد رخيك ، وأولاد فائز وبينهما القتال أبدا ، وهم جميعا إمامية »(٣) .

وهناك طائفة يغلب عليها الطابع السياسى وعرفت بالقتل والاغتيال ، وهى طائفة الإسماعيلية الفداوية إحدى طوائف الشيعة ، وفيهم يقول : القلقشندى : « وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيـــل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وهم فرقة من الشيعة معتقدهم أن الإمامة بعد النبى صلى الله عليه وسلم انتقلت بالنص إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم إلى ابنه الحسن ثم إلى الحسين ثم انتقلت فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق ، ثم هم يدعون انتقال الإمامة

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٤ إلى ٣٦ بتصرف

(٢) الرحلة ص ٢٣٩ (٣) الرحلة ص ٢٤٠

من جعفر إلى ابنه إسماعيل ، ثم تنقلت فى بنيه »(١) . وقد استطاع الملك الناصر أن يضمهم إلى صفه وصاروا اليد المنفذة لما يدبر من اغتيالات .

الخوارج

تحدث ابن بطوطة أثناء حديثه عن عمان ، والخوارج فرقة ظهرت أيام خلافة على بن أبى طالب وكانوا أولاد من أنصاره ، ثم خرجوا عليه بعد أن قبل التحكيم ، واعترفوا ببيعة أبى بكر وعمر ، وببيعة عثمان ست سنوات من خلافته ، وحكموا أيضا بصحة بيعة على إلى أن قبل التحكيم ، ومن أبرز مبادئهم أن الخلافة حق للجميع وأن الخليفة من اختارته الأمة ، ولا فرق عندهم بين المعصية والكفر ، فمخالفة جزء كمخالفة القانون كله ، وانقسم الخوارج فرقا عديدة فظهرت الصفرية والبيهسية والإباضية والأزارقة ، ثم انقسمت بعض هذه الفرق كما حدث بين الأزارقة .

ووصل ابن بطوطة إلى عمان وزار مدينة قلهات ضمن المدن التى زارها ، وذكر أن معظم أهلها خوارج ولكنهم لا يعلنون عن مذهبهم ، يقول : « وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمتهن ملك هرمز وهو من أهل السنة »(٢) .

وزار ابن بطوطة أيضا مدينة نزوى وذكر أن أهلها أباضية المذهب ، والإباضية فرقة من الخوارج ، وذكر ابن بطوطة شيئا من مبادئهم المتشددة حيث يقول : « وهم أباضية المذهب ويصلون ظهرا أربعا ، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ، ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبى بكر وعمر ، ويسكت عن عثمان وعلى ، وهم إذا أرادوا ذكر على رضى الله عنه كنوا عنه فقالوا :

---

(١) صبح الأعشى ١/١٥٤ . (٢) الرحلة ص ٢٩٦

(٣) الرحلة ص ٢٩٧

ذكر عن الرجل ، أو قال ، ويرضون عن الشقى اللعين ابن ملجم ، ويقولون فيه : (العبد الصالح قامع الفتنة)(١) .

وذكر ابن بطوطة أن جماعة من السودان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج ، يقول : « وصلنا إلى قرية زاغرى(٢) وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراته ، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج ويسمون صغنغو ، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم تورى »(٣) .

الفرق الصوفية

تحدث ابن بطوطة عن مجموعة من الفرق الصوفية لم يشتهر منها فى عصرنا الحاضر إلا فرقة الرفاعية ، وتتصل هذه الفرق بحبل متين من التصوف فهى تقوم على الحكايات المخترعة التى تنسج الكرامات وتنسبها إلى زعماء المتصوفة ، وأفراد هذه الفرق يأتون بأعمال غير متزنة مثل الخوض فى النار وبعضهم يعيش فى عزلة لايؤاكلون الناس ولا يتزوجون .

الرفاعية

ونبدأ بالحديث عن فرقة الرفاعية فهى الفرقة التى مازالت تتمتع حتى اليوم بشهرة واسعة ، وهى من الفرق الصوفية المعترف بها فى مصر ، وعندما ذهب ابن بطوطة إلى مدينة واسط زار قبر الشيخ أحمد الرفاعى وهو بقرية كانت تعرف بأم عبيدة(٤) وهناك التقى بحفيد الشيخ أحمد الرفاعى وكان قدم لزيارة

---

(١) الرحلة ص ٢٩٧ (٢) يقول المحقق : تسمى اليوم ديورة .

(٣) الرحلة ص ٧٩٧ .

(٤) يقول المحقق : تسمى اليوم الشيخ أحمد الرفاعى .

قبر جـــده ، وتحدث ابن بطوطة عن بعض عادات الرفاعية ، ومن قوله :

« ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثة بخارجها المتاجرة فسنح لى زيارة قبر الولى أبى العباس أحمد الرفاعى وهو بقرية تعرف بأم عبيدة ووصلنا فى ظهر اليوم الثانى إلى الرواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولى الله أبى العباس الرفاعى ، وقدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارة قبر جده ، وإليه انتهت الشياخة بالرواق ، ولما انقضت صـــلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء فى الرقص ، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط فأكل الناس ، ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا فى الذكر ، ثم أخذوا فى السماع وقد أعدوا أحمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا فى وسطها يرقصون ، ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفئوها جميعا ، وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض بأسنانه على رأسها حتى يقطعه »(١) .

الحيدرية

وتحدث ابن بطوطة عن طائفة الحيدرية وليس لتلك الطائفة ذكر فى أيامنا هذه ، وذكر أن هذه الطائفة تنتسب إلى الشيخ قطب حيدر بمدينة زاوة القريبة من مدينة هراة(٢) . ولقى ابن بطوطة جماعة منهم بقرية أم عبيدة عندما توجه إليها لزيارة قبر الشيخ أحمد الرفاعى ، وتحدث ابن بطوطة عن بعض مبادئهم وأفعالهم فقال : « ووصل إلى هنالك جماعة من الفقراء فى أعناقهم أطواق الحديد وفى أيديهم ، وكبيرهم رجل أسود حالك اللون ، وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية ، فباتوا عندنا ليلة ، وطلب منى كبيرهم أن

---

(١) الرحلة ص ٢٠٥ بتصرف .

(٢) الرحلة ص ٤٣٢ وذكر المحقق أنها تسمى اليوم تربة حيدر .

أن آتيه بالحطب ليوقدوه عند رقصهم فكلفت والى تلك الجهة أن يأتى بالحطب . فوجه منه نحو عشرة أحمال ، فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا ، وأخذوا فى السماع ، ثم دخلوا فى تلك النار فمازالوا يرقصون ويتمرغون فيها ، وطلب منى كبيرهم قميصا فأعطيته قميصا فى النهاية من الرقة ، فلبسه وجعل يتمرغ به فى النار ويضربها بأكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت ، وجاء إلى القميص والنار لم تؤثر فيه شيئا ألبتة ، فطال عجبى منه »(١) .

وفى موضع آخر ذكر أنهم يعرفون بالجلالية بأرض الروم ، ويعرفون بالأحمدية بالعراق ، وبالحيدرية بخراسان ، وهنا يلجأ ابن بطوطة إلى الحكايات التى يشيعونها والتى لا تستند إلى أساس علمى أو منطق عقلى ، ويذكر حكاية يزعم أنه السبب فى تحويل شيخهم من فقيه مدرس إلى ولى سائح لا يعرف له أحد مستقرا ، يقول عن الشيخ جلال الدين المعروف بمولانا : « يذكر أنه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع إليه الطلبة بمدرسة بقونية ، فدخل يوما إلى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها ، وهى مقطعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس ، فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ : هات طبقك فأخذ الحلوانى قطعة منه وأعطاها للشيخ ، فأخذها الشيخ بيده وأكلها ، فخرج الحلوانى ولم يطعم أحدا سوى الشيخ ، فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم إياه ، فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقرا »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٢٠٦

(٢) الرحلة ص ٣٢٢ .

السامرة

وتحدث ابن بطوطة عن جماعة يقال لهم : السامرة لا يأكلون مع أحد ولا يعقدون مصاهرة مع أحـــد ، وفيهم يقول . « وسرنا من نهر السند يومين ، ووصلنا إلى مدينة جنانى على نهر السند وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فتحها على يد الحجاج ابن يوسف حسبما أثبت المؤرخون فى فتح السند ، وأخبرنى الشيخ ركن الدين ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ بهاء الدين زكريا القرشى : أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشى وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق ، وأقام بها وتكاثرت ذريته ، وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ولا يصاهر إليهم أحد ، وكان لهم فى هذا العهد أمير يسمى ونار »(١) .

القلندرية

وفرقة القلندرية كانت بمدينة دمياط ، وذكر ابن بطوطة أنهم يحلقون لحاهم وحواجبهم ، وفضلا عن أن حلق الحواجب ليس من السنة وليس من المألوف بين الناس فإن ابن بطوطة يورد حكاية ينسبها إلى شيخ الزاوية ويبدو عليها أنها من نسج الخيال ، ثم يعقبها بحكاية يستحيل عقلا تصديقها ، ولكنه يدخلها فى باب الكرامات التى لا يفتأ يرددها .

يقول ابن بطوطة عن مدينة دمياط القديمة : « وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقلندرية ، وهم الذين يحلقون

---

(١) الرحلة ص ٤٥١ .

لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكروري ، يذكر أن السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوى إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تدعوه لنفسها وهو يمتنع ، فلما أعياها أمره دست إليه عجوزاً تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد وبيدها كتاب مختوم ، فلما مر بها قالت له : ياسيدى ، الكتاب وجه إلى ولدى وأحب أن تقرأه على ، فلما فتح الكتاب قالت له : إن لولدى زوجة وهى بأسطوان الدار ، فلو تفضلت بقراءته بين بابى الدار بحيث تسمعها ، فأجابها لذلك ، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وأخرجت المرأة جواريها فتعلقن به وأدخلنه إلى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه ، فقال لها : إنى حيث تريدين فأريني بيت الخلاء فأرته إياه ، وكانت عنده موسى جديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته وأمرت بإخراجه ، وعصمه الله بذلك ، فبقى على هيئته فيما بعد ، وصار على كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه»(١).

وإلى هنا والأمر لايخرج عن حدود الإمكان وإن كانت الحكاية مكررة ، ولكن ابن بطوطة يضيف موقفا بعيدا عن التصديق ، ويزعم أن أحد القضاة رآه فقال له : «أنت الشيخ المبتدع ؟ ، فقال له : وأنت الشيخ الجاهل تمر بدابتك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتا كحرمته حيا ؟. فقال له القاضى : وأعظم من ذلك حلقك للحيتك ، فقال له : إياى تعنى ؟ وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فإذا هو ذو لحية سوداء عظيمة ، ثم زعق ثانيا فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثا ورفع رأسه فإذا هو بلا لحية كهيئته الأولى ، فقبل القاضى يده وتتلمذ له »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٤٩ (٢) الرحلة ص ٥٠

الصوفيون والكرامات

ازدهر التصوف فى أرجاء العالم الإسلامى وكثر المتصوفة ، وآمن كثير من الناس بما يشاع عن المتصوفين ، وكان للنكبات التى توالت على العالم الإسلامى أثر فى ذلك أضف إلى ذلك ما شاع فى البلاد من ظلم الحكام واستئثارهم بالمال ، فلجأ بعض الناس إلى التواكل والكسل ، ولجأ بعضهم إلى الزهد والالتجاء إلى الله وسمعوا ما يشاع عن المتصوفة والأولياء وتصرفهم فى الكون فلجئوا إليهم وتوسلوا بهم ووجدوا فى هذا الطريق سلوة وعزاء وحصل المتصوفة على مكانة أعلت من قدرهم فألفوا الحكايات التى تمكن لهم فى قلوب الناس ، وصدق الناس وزادوا فيها وصارت مبادىء مسلمة عند عامة الناس .

ورحلة ابن بطوطة مليئة بحكايات عن المتصوفين ، وكان ابن بطوطة يؤمن بهم إيمانا مطلقا لاحد له ، ويبدو من كلامه أنه إندمج فيهم فى بعض البلاد ، ومن قوله فى حديثه عن بيت المقدس : « ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعى ، صحبته ولبست منه خرقة التصوف »(١) وفى طريقه إلى مدينة دهلى يقول : « ولقيت بمدينة أوجة الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى وألبسنى الخرقة »(٢) .

ويبدو من حديث ابن بطوطة أن الفقراء كانوا يجدون فى هذا المجال متسعا من الرزق فى الزوايا والمساجد ، ويجدون عناية من بعض الرؤساء ، وكان الناس ينذرون لهؤلاء المشايخ ويقتات فقراء المتصوفين من هذه النذور ، ومن قول ابن بطوطة : « ومن عادة الركاب فى بحر الصين أنهم إذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لأبى إسحاق نذرا وكتب كل منهم على

(١) الرحلة ص ٨٧   (٢) الرحلة ص ٤٥٩ .

نفسه ماندره ، فإذا وصلوا بر السلامة صعد خدام الزاوية إلى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره ، وما من مركب يأتى من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير ، فيأتى الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ، ومن الفقراء من يأتى طالبا صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة فى قالب من الفضة ، ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى إسحاق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها إلى فقراء الزاوية فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى الزاوية »(١) .

وكانوا ينسبون إلى كبراء الصوفية علم الغيب والإخبار بما سيحدث ، وقد روى ابن بطوطة كثيرا من ذلك فقد زعم أنه لقى بالإسكندرية وليا يدعى برهان الدين الأعرج فقال له : « لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام »(٢) وذكر بعد ذلك أنه تحقق له كل ذلك ، وذكر أن أعمى وقف ببابه وسماه باسمه وأخذ بيده وسأله عن الخاتم وأمره بأن يسترد خاتمه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار(٣) .

وتحدث ابن بطوطة عن أولياء يهبون الملك وينصرفون فى الكون وكأنهم شركاء لله ، وتحدث عن أحد سلاطين الهند ويدعى بلبن ، وذكر أنه كان عبدا ببخارى فقابله رجل وطلب منه أن يشترى له رمانا فاشترى له بلبن الرمان ، فقال الرجل لبلبن : وهبناك ملك الهند ، وأورد حكاية مضمونها أن سلطان الهند اشترى مماليك وفيهم بلبن ، وتطورت الأحداث حتى صار بلبن سلطان للهند(٤) .

---

(١) الرحلة ص ١٣٧ بتصرف (٢) الرحلة ص ٤٠
(٣) الرحلة ص ٢٦٦ (٤) الرحلة ص ٤٨٩

وكان المتصوفة ينسبون إلى مشايخهم القدرة على الإتيان بأعمال خارقة فوق مستوى البشر ومما ذكره ابن بطوطة أن وليا بالإسكندرية ينفق من الكون ويقول عنه وهو من كبار الأولياء المكاشفين يدعى أبا عبد الله المرشدى ، له زاوية وهو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ، ويقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف الناس فى كل يوم فيطعمهم الطعام ، وكل واحد منهم ينوى أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى، فيأتى لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك فى غير إبانة »(١) .

والأعمال التى ينسبها ابن بطوطة إلى المتصوفة والتى تخرج عن بطاق القدرة البشرية كثيرة ، وفى إحدى هذه الحكايات يدخل الباز بطلا من أبطال هذه الحكاية ، فهو يزعم أن الشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أبا مدين شعيب كانا يسلمان على بعضهما صباحا ومساء ويسمعان السلام على بعد المسافة بينهما ، وأن أحد الأولياء أحضر لهما عذق نخلة من واسط إلى مكة وهم جالسون بمكة ، وأخبر أهل الزاوية بواسط أنهم رأوا بازا أشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به فى الهواء »(٢) .

ويزعم ابن بطوطة أنه لقى من هذه الكرامات ، ومنها مازعم أنه حدث له فى طريقه من دلهى إلى سيلان إذ سقط خفه فى البئر فظهر له رجل حياه وأطعمه وسقاه وحمله وسار به ثم ألقاه على الأرض واختفى ، ونورد جزءا مما جرى بينهما ، يقول : « وسألنى عن اسمى فقلت له محمد ، وسألته عن اسمه فقال لى : القلب الفـــارح ، فتفاءلت بذلك ، ثم قال لى : باسم الله ترافقنى ؟ فقلت نعم ، فمشيت معه قليلا ، ثم وجدت فتورا فقعدت ، فقال : اركب فوق عنقى ، فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطيع ذلك ، فقال : يقوينى الله ، فركبت على عنقه ، وغلبتنى عينى فـــلم أفق إلا اسقوطى على

---

(١) الرحلة ص ٤٢ .

(٢) الرحلة ص ١١٢ .

الأرض ، فاستيقظت ولم أر الرجل أثرا ، وإذا أنا فى قرية عامرة ، وحملنى الحاكم إلى بيته فأطعمنى واغتسلت ، وقال لى : عندى ثوب وعمامة أودعهما عندى رجل عربى مصرى من أهل المحلة التى بكول ، فقلت له : هاتهما ألبسهما ، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابى ، كنت قد وهبتهما لذلك العربى لما قدمنا بكول ، فطال تعجبى من ذلك ، وفكرت فى الرجل الذى حملنى على عنقه فذكرت ما أخبرنى به ولى الله تعالى أبو عبد الله المرشدى إذ قال لى : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى دلشاد ويخلصك من شدة تقع فيها ، وذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال : القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد ، فعلمت أنه هو الذى أخبرنى بلقائه »(١) .

ولا نظن إلا أنها حكاية من إختراع ابن بطوطة أو أنه سمعها من الناس فنسبها إلى نفسه ، وإذا تأملنا هذه الحكاية وجدنا عجائب متوالية ، رجل يظهر له فجأة ، ويحمله مع أنه ضعيف ، وينام ابن بطوطة والرجل سائر به ، ثم يسقط على الأرض ، ويختفى الرجل فجأة ، ويقدم الحاكم إلى ابن بطوطة ثيابا أودعها رجل مصرى ويتضح أنها من ثياب ابن بطوطة أهداها إلى ذلك الرجل ، فالرجل يعلم أن ابن بطوطة ستقع له هذه الأحداث ، وسيحضر إلى هذا الحاكم فيودع الثياب عنده ، ثم يتذكر ابن بطوطة أن وليا أخبره بأنه سيقابل وليا ينقذه من شدة ويخبره باسمه ويتضح أنه هو هذا الولى ، وكلها أحداث ملفقة بعيدة من التصديق .

ويحكى ابن بطوطة حكاية يزعم أنها وقعت لأحد الأولياء بشيراز وهو أبو عبد الله خفيف المعروف عندهم بالشيخ ، ويظهر الفيل بطلا من أبطال هذه الحكاية ، وقد وجدت هذه الحكاية فى كتاب (نشوار المحاضرة) لأبى على التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ونسبت هذه الحادثة إلى الخواص

---

(١) الرحلة ص ٦١٥ بتصرف .

الصوفى ، ولا تغيير إلا فى مقدمة القصة حيث يقصد أبو عبد الله خفيف جبل سرنديب ، أما الخواص فيقول : إنه ركب البحر وكسر بهم المركب ، وهذا يثبت أنها حكايات متـــداولة فى كل زمان ومكان ، ونورد بإيجاز ما حكاه ابن بطوطة :

« قصد أبو عبد الله خفيف جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فأصابتهم مجاعة فى طريق الجبل ، وطلبوا من الشيخ أن يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار ، فنهاهم الشيخ عن ذلك، فغلب عليهم الجوع وقبضوا على فيل صغير وزكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ عن أكله ، فلما ناموا اجتمعت الفيلة وأتت إليهم ، فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم ، وشمت الرجل ولم تتعرض له ، وتقدم فيل فلف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتى به الموضع المعمور ، فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه ، ثم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره إلى الأرض(١) .

أما أبو على التنوخى فيقول فى مطلع حكايته : حدثنى الخواص الصوفى قال : « ركبنا فى البحر مع جماعة من الصوفية فلما أوغلنا فيه كسر بنا فوقعنا إلى ساحل لا ندرى أين هو ، فاجتمعنا وقال بعضنا لبعض : تعالوا حتى نجعل لله عز وجل على أنفسنا إن هو خلصنا أن ندع له شيئا ، فقلت : لا آكل لحم فيل أبدا »(٢) ويستمر فيحكى حكاية القبض على فيل صغير وأكله ، وامتناع الشيخ ، ومجىء الفيلة ، وقتل الجميع ما عدا الشيخ ، وحمل الشيخ على ظهر الفيل وإيصاله إلى بلد عامر .

وكان الناس يرون أحيانا ممن يزعمون أنهم مكاشفون أعمالا ينكرها الشرع ويسكتون عن هذه الأعمال ولا يغيرون اعتقادهم فى مرتكبيها ،

---

(١) الرحلة ص ٢٣٢ بتصرف .

(٢) نشوار المحاضرة ١٩٥/٣ - ١٩٧ أبو على التنوخى - بيروت لبنان .

يقول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة بابا سلطوق التى وصلها وهو فى طريقه إلى القسطنطينية « ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشفا ، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع »(١) .

ومن المبادىء المقررة عند الصوفية أنه لا يجوز الاعتراض على الأولياء وإن أتوا بما يخالف الشرع ، بل إن ابن بطوطة ذكر أنهم فى الهند يتبركون بقبر رضية التى كانت سلطانة عليهم وخلعت لاتهامها بالزنا ، وكانت رضية هذه قد وليت السلطنة فى مدينة دهلى بعد مقتل أخيها واستقلت بالملك أربع سنين ، ويقول ابن بطوطة : « ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة ، فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض أقاربها »(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن حادث قتلها ثم يقول : « وبنى عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به » .

وركن الناس إلى هؤلاء الأولياء فى حياتهم يتبركون بهم ، وركنوا أيضا إلى زيارة قبورهم يتمسحون بالقبور ويلتمسون البركة ويدعون الله فى ساحاتهم لتفريج كروبهم ، ويذكر ابن بطوطه أنهم يزورون فى كل يوم قبرا من قبور الصوفية طيلة أيام الأسبوع ، ففى حديثه عن مدينة بغداد يذكر قبر أبى بكر الشبلى ، وقبر سرى السقطى ، وقبر بشر الحافى ، وقبر داود الطائى ، وقبر أبى القاسم الجنيدى ، ويقول : « وأهل بغداد لهم يوم فى كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، وهكذا إلى آخر الأسبوع ، وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضى الله عنهم »(٣) .

ووصل الأمر ببعض الناس إلى حالة تتقزز منها النفوس ، ويذكر ابن بطوطة

---

(١) الرحلة ص ٣٨١ .
(٢) الرحلة ص ٤٨٧
(٣) الرحلة ص ٢٤٥

أن أحد أصحاب الزوايا كان يشرب الماء الذى يغسلون به أيديهم ، يقول : « ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأندر(١) ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهدوى ، ونزلنا عنده وأكرمنا ، وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله »(٢) .

وهكذا نرى أن ظاهرة التصوف والمتصوفين كانت معلما من معالم الحياة الدينية فى ذلك الوقت .

الاحتفالات الدينية

كان العالم الإسلامى يحتفل بمناسبات دينية عديدة ، وقد بقيت بعض هذه الاحتفالات إلى وقتنا الحاضر ، وقد تحدث ابن بطوطة عن كثير من هذه الاحتفالات وأطنب فى وصف بعضها ، وأوجز فى بعضها الآخر .

وأبرز هذه الاحتفالات الاحتفال بالعيدين عيد الفطر وعيد الأضحى ، وقد أدرك ابن بطوطة عيد الفطر وهو بتونس ، ورأى الناس يلبسون ملابس جديدة ويبرزون فى أجمل هيئة ، يقول : « وأظلنى بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا فى أجمل هيئة وأكمل شارة ، ووافى المسجد السلطان أبو يحيى وجميع أقاربه وخواصه وخدم مملكته مشاة على أقدامهم فى ترتيب عجيب »(٣) .

وذكر أنهم فى مكة يقضون ليلة العيد فى عبادة وابتهال ، ثم يبرزون فى الصباح فى أجمل هيئة ، يقول : « وعادتهم فى شوال أن يوقدوا المشاعل ليلة

---

(١) يقول المحقق : تسمى اليوم أندراب .

(٢) الرحلة ص ٤٣٦ (٣) الرحلة ص ٣٣

استهلاله ، يسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم فى ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج فى الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذى بأعلى أبى قبيس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء ، فإذا صلوا صلاة الصبح أخـــذوا فى أهبة العيد ولبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، ثم إذا فرغوا من الصلاة أقبـــل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ، ويقصدون الكعبة الشريفة ويدخلونها أفواجا »(١) .

وفى صدر هذا النص يذكر أنهم يحتفلون احتفالا مماثلا فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وذكر أنهم يحتفـلون فى ليلة السابع والعشرين من رجب(٢) . ويحتفلون فى ليـــلة النصف من شعبان(٣) ويحتفلون بعيد الأضحى(٤) .

وقد تختلف مظاهر الاحتفال من بلد إلى بلد ، ووصف ابن بطوطة مظاهر الاحتفال برؤية هلال رمضان فى مصر وفى مـكة ، وغلب على هذا الاحتفال فى مصر المظاهر الشعبية ، وغلب عليه فى مـكة المظاهر الدينية ، وفى وصف الاحتفال بمصر يقول : « وحضرت مرة يوم الركبة ، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فإذا أتى أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلا : (باسم الله ، سيدنا فلان الدين) . فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ، فإذا تـكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه

---

(١) الرحلة ص ١٨٥ بتصرف

(٢) الرحلة ص ١٨٢

(٣) الرحلة ص ١٨٣

(٤) الرحلة ص ١٨٦

وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم ، فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ثم ينصرفون »(١) .

ويصف احتفال أهل مكة بهلال رمضان فيقول : « وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ، ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة وإشراقا وتتفرق الأئمة وهم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية ، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ، ولاتبقى في الحرم زاوية ولاناحية إلا وفيها قارىء يصلي بجماعة ، وقد نصبت في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان ، فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة وحط القنديلان ، ولديار مكة سطوح . فمن بعدت داره بحيث لايسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر ، حتى إذا لم يبصرهما أقلع عن الأكل »(٢) .

وتحتفل القاهرة ومكة بمناسبة واحدة في فترتين متباعدتين ، تلك هي مناسبة يوم المحمل كما يطلقون عليها في مصر ، ويطلقون عليها في مكة (كسوة الكعبة) .

ذلك أنهم يحتفلون في مصر في شهر رجب بإرسال الكسوة إلى الكعبة الشريفة ، ويسمونه (يوم المحمل) . ويصف ابن بطوطة هذا الاحتفال فيقول : « يوم المحمل هو يوم دوران الجمل يوم مشهود ، وكيفية ترتيبهم فيه

---

(١) الرحلة ص ٤٦ بتصرف (٢) الرحلة ص ١٨٤ بتصرف

أن يركب فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر ، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة ، ومعه عسكره والسقاءون على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ، ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ، والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب »(١) .

وذكر ابن بطوطة أن الكسوة وصلت إلى مكة يوم النحر ، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر احتفلوا بإسبالها على الكعبة الشريفة ، ووصف تلك الكسوة وألوانها وما بها من كتابات قرآنية كريمة(٢) .

تقاليد دينية متوارثة

يحدثنا ابن بطوطة عن تقاليد دينية متوارثة وهى تقاليد حسنة ليس فيها مخالفة لشرائع الإسلام ، ومن ذلك أن الناس فى رمضان يمدون الموائد العامة ويدعو الأغنياء الفقراء لتناول الإفطار ، يقول ابن بطوطة : « ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده ألبتة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا »(٣) .

ومن العادات المتوارثة أن الناس يجتمعون بعد صلاة الصبح وبعد

(١) الرحلة ص ٦٢ (٢) الرحلة ص ١٨٨

(٣) الرحلة ص ١٩٩ .

صلاة العصر لقراءة أجزاء معينة من القرآن الكريم ، يقول ابن بطوطة متحدثا عن مسجد دمشق : « والناس يجتمعون به إثر كل صلاة الصبح فيقرءون سبعا من القرآن ، ويجتمعون بعـــد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرءون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن »(١) .

ويجرى مثل ذلك فى مصر ومن قول ابن بطوطة : « وإذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون ، ثم يقرأ القرآن على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر »(٢) .

وكان الناس يلجئون إلى الله فى الشدائد فيصلون ويصومون ويتضرعون إليه ليخفف عنهم البلاء ، وقد زار ابن بطوطة دمشق أيام ظهور الطاعون بها ورأى الناس والحاكم يجتمعون فى مسجد يدعى مسجد الأقدام نسبة إلى أقدام مصورة فى حجر هناك يقال : إنها أثر قدم موسى عليه السلام ، يقول ابن بطوطة : « شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادى بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس ، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات فى الجامع حتى غص بهم ، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم ، وبأيديهم المصاحف ، والأمراء حفاة ، وخرج جميع أهل البلد رجالا ونساء وجميعهم باكون يتضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه ، وقصدوا مسجد الأقدام وأقاموا به فى تضرعهم إلى قرب الزوال ، وعادوا إلى البلد وصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ١٠٦ . (٢) الرحلة ص ٥٤

(٣) الرحلة ص ١١٤ بتصرف يسير

وكانوا يهرعون إلى الصلاة والتضرع أيضا عند الجفاف فيصلون صلاة الاستسقاء، وذكر ابن بطوطة أن الناس فى مصر كانوا يستسقون إذا نقص ماء النيل(١) .

وكان بعض المماليك يتدرجون فى الوظائف حتى يصلوا إلى السلطنة ، وكان القضاة لا يوافقون على تولية المملوك إلا إذا ثبت عتقه ، وأورد ابن بطوطة ذلك حول تولية شمس الدين للمشى حكم مدينة دهلى ، يقول : « وكان قبل ذلك مملوكا للأمير قطب الدين أيبك ونائبا عنه ، فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه به ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه ، فقرأ القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا »(٢) .

ولم تكن المرأة تتولى السلطنة إلا فى القليل النادر لأن الإسلام لا يجيز أن تكون الولاية العامة للمرأة ، وحدثنا ابن بطوطة عن امرأتين حكمتا فى الهند ، فى مدينة دهلى ثارت أخت السلطان على أخيها لقتله شقيقه فقتلوه واختاروها سلطانة مكانه ، ثم خلعت وولى أخوها الأصغر ومالبث أن ثارت عليه أخته ولكنها هزمت وفرت ، ثم قتلها أحد الفلاحين وسلبها(٣).

وفى جزائر ذيبة المهل خلع السلطان شهاب الدين ونفى وقتل ، ولم يكن بقى من بيت الملك إلا أخواته فقدموا خديجة سلطانة عليهم ، وكانت متزوجة وكانت الأوامر تنفذ باسمها ويذكرها الخطيب يوم الجمعة(٤) . وكانت النساء على وجه العموم محجبات يغطين وجوههن ، ولكن نساء الأتراك كن

(١) الرحلة ص ٥٦

(٢) الرحلة ص ٤٨٦

(٣) الصفحة نفسها .

(٤) الرحلة ص ٦٦١

سافرات كما يقول ابن بطوطة(١) . وفى حديثه عن المرأة التى حكمت مدينة دهلى يذكر أنها كانت تتشبه بالرجال ولا تستر وجهها(٢) .

عادات ذميمة

ومع تمسك النساء بالحجاب على وجه العموم فإن ابن بطوطة رأى بعض النساء فى الهند وفى مالى عاريات ، وهذه عادة متوارثة ، ولم يربط ابن بطوطة بين هذا العرى والانحراف الخلقى ، وقد حاول ابن بطوطة وهو قاض أن يقضى على هذه العادة السيئة ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا نجاحا جزئيا . يقول فى حديثه عن جزائر ذيبة المهل : « ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها ، ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك ، فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة فى خصومة إلا مستترة الجسد ، وماعدا ذلك لم تكن لى عليهن قدرة ، وكان لى جوار كسوتهن لباس أهل دهلى تغطين رءوسهن »(٣) .

وفى مالى رأى النساء عاريات لا يستر أجسادهن شىء ما ، وكذلك كان يفعل بنات السلطان ، فكان النساء يدخلن على السلطان عاريات ، يقول ابن بطوطة : « ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ، ولقد كنت أرى فى رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا ،

(١) الرحلة ص ٢٢٨ (٢) الرحلة ص ٤٨٧

(٣) الرحلة ص ٦٥٨

ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعرى بناته ، ولقد رأيت فى ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما سترة »(١) .

وتحدث ابن بطوطة عن عرى بعض الناس فى الحمامات فى مصر ، ويبدو من حديثه أن هؤلاء العرايا من الرجال ، وقد سعى إلى القاضى ليمنع هذه الظاهرة يقول : « دخلت يوما الحمام فرأيت الناس لايستترون ، فعظم ذلك على وأتيت القاضى فأعلمته بذلك ، فأمرنى ألا أبرح ، وأمر بإحضار المكترين للحمامات وكتب عليهم العقود أنه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فإنهم يؤاخذون على ذلك ، واشتد عليهم أعظم الاشتداد »(٢) .

وكانت الجوارى منتشرات فى مدن العالم ، وكن ينلن بالشراء وبالهبة ، وقد تحدث ابن بطوطة عن جوار اشتراهن وجوار أهدين له ، وكانت بعض الجوارى يعملن مغنيات وراقصات ، وكان زواج المتعة منتشرا فى كثير من البلاد ، وكان هذا الزواج ميسرا كما يقول ابن بطوطة ، ومعظم النساء لم يكن يغادرن بلادهن ، ويطلقهن أزواجهن عند سفرهم ، يقول ابن بطوطة فى حديثه عن جزائر ذيبة المهل : « والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء ، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وذلك نوع من نكاح المتعة ، وهن لايخرجن من بلادهن أبدا »(٣) وواضح أن هذا يؤدى إلى ضياع الأنساب .

---

(١) الرحلة ص ٧٩٠ (٢) الرحلة ص ٦٥
(٣) الرحلة ص ٦٥٩ بتصرف .

إقامة الشرائع

المحافظة على الصلاة وعقوبة تاركها

وكان العلماء والسلاطين يحافظون على أداء الصلوات فى أوقاتها ، ولا تؤخر الصلاة لأى ظرف من الظروف ، وكانوا يتفاوتون فى عقاب تارك الصلاة ، وهذه القوانين تستند إلى أسس من المذاهب الإسلامية المعترف بها ، ومما يصور محافظتهم على أداء الصلوات فى مواعيدها أن إمام المسجد رفض تأخير الصلاة من أجل السلطان طرمشيرين سلطان تخشب ، يقول ابن بطوطة: « ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته أن يصلى وقال للإمام حسام الدين الياغى : إن مولانا يريد أن تنتظر قليلا ريثما يتوضأ، فقام الإمام المذكور وقال : (نماز) ومعناه : الصلاة (براى خدا وبراى طرمشيرين) أى : الصلاة لله أو الطرمشيرين ؟ . ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلى الركعتين الأخريين حيث انتهى به القيام ، وقضى مافاته ، وقام إلى الإمام ليصافحه وهو يضحك »(١) .

وتتفاوت العقوبة على ترك الصلاة فى البلاد الإسلامية ، ففى خوارزم كانت العقوبة الجلد والغرامة ، يقول ابن بطوطة : « ولهم عادة جميلة فى الصلاة وهى أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بحضر الجماعة ، وفى كل جامع درة معلقة برسم ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق فى مصالح الجامع أو تطعم للفقراء والمساكين ، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قدم الزمان »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٤١٣ (٢) الرحلة ص ٤٠٠

وفى الهند كان السلطان جلال الدين يعاقب تارك الصلاة بالقتل ، يقول ابن بطوطة . « وكان السلطان شديدا فى إقامته الصلاة يعاقب على تركها أشد العقاب ، ولقد قتل فى يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا ، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب ، وأمر أن يطلب الناس معلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام ، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب »(١) .

وهذه الأحكام ترتكز على أسس من المذاهب الإسلامية ، ففى مذهب مالك يقتل تارك الصلاة كسلا ، ويقتل حدا ولا يكفر ، وهو المشهور فى مذهب الشافعى ، وقال بعض الشافعية : يكفر ويقتل ، وقال الحنفية : يحبس ويعزر حتى يصلى .

الزكاة

كانت بعض الحكومات تهتم بجباية الزكاة والعشر ، ويدل كلام ابن بطوطة على أن بعض الحكومات كانت تجبى الضرائب ولا تلتفت إلى الزكاة ، وفى حديث ابن بطوطة عن مصر والشام ذكر أنهم كانوا يجبون الزكاة فى مدينة قطيا القريبة من الصالحية ، وكانوا يأخذون الزكاة من الداخلين إلى مصر والخارجين منها ، يقول ابن بطوطة فى مدينة قطيا : « وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، ومجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس »(٢) .

---

(١) الرحلة ص ٥٣٨   (٢) الرحلة ص ٧٠

ويذكر ابن بطوطة أنه زار مدينة أزاق بشرق أوربا بعد خروجه من القرم وأن هـذه البلاد كانت تجبي الضرائب لا الزكاة ، ثم رفع ملك الهند الأمر إلى السلطان فأمر أن تؤخذ الزكاة من تجار المسلمين ، ويؤخذ العشر من تجار الكفار ، ومن قوله فى حديثه عن الخيل بهذه المنطقة : « ويغرقون عليها بأرض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ، ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند ، وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع مايجلبونه ، فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك ، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر »(١) .

عقوبة السارق

لم تكن البلاد الإسلامية متفقة كل الاتفاق فى تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وبعضها يتشدد ويغالى فى العقوبة ، وبعضها يتهاون فى تنفيـــذ الأحكام ، وبعضها يسن قوانين ليس لها أصول فى التشريع الإسلامى، ومن التفاوت الواضح فى العقوبات عقوبة السارق والمغتصب للأموال ، ومن المعلوم أن عقوبة السارق فى الإسلام قطع اليد ، ولكن بعض البلدان فى شرق أوربا كان لها دستورها الخاص ، ويذكر ابن بطوطة أنهم فى مدينة السر المجاورة للقرم كانوا يجبرون السارق على أن يرد المسروق ومعه تسعة أمثاله فإن لم يقدر أخذ أولاده ، فإن لم يكن له أولاد ذبح ، يقول: «وحكمهم أنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله ، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك ، فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة »(٢) .

وكان بعض الحكام يشتدون فى عقاب مغتصب الأموال حتى إنهم

---

(١) الرحلة ص ٣٦٣ (٢) الرحلة ص ٣٥٩

يقطعون وسطه ويقطعون مضيره أو مصرانه ، وحدثنا ابن بطوطة عن ذلك فى مدينة طرابلس وغيرها ، ومن قوله : « وكان سندمور أمير هذه المدينة ، ويذكرون عنه أخبارا كثيرة فى الشدة على أهل الجنايات ، منها أن امرأة شكت إليه بأن أحد مماليكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة فأمر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه ، وقد اتفق مثل هذه الحالة للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب ، واتفق مثله للملك كبك سلطان تركستان »(١) . وأورد ابن بطوطة حادثة مماثلة لذلك فى مدينة نخشب »(٢) .

عقوبة شارب الخمرة

ويبدو أن إقامة الحد على شارب الخمرة كانت سارية فى تلك الفترة ، وقد ذكر ابن بطوطة ذلك فى حديثه عن بلاد الهند ، ولم يذكر أن هذا الحد معطل فى بعض البلاد ، وذكر أنهم فى الهند يقيمون الحد ويزيدون عليه الحبس ثلاثة أشهر ، ومن قوله : « وكذلك هى ببلاد الهند عند المسلمين ، ومن شربها من مسلم حد ثمانين جـــلدة وسجن فى مطمورة(٣) ثلاثة أشهر لاتفتح عليه إلا حين طعامه »(٤) .

وذكر أنه نزل بمدينة أمروها بالهند وأنه تولى بها القضاء ، وقدم إليه شخص متهم بشرب الخمر ، فسأله فاعترف فأمر بجلده ثمانين »(٥) .

وجاء فى النجوم الزاهرة أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يكره

---

(١) الرحلة ص ٨٤ (٢) الرحلة ص ٤١٢

(٣) المطمورة حفرة تحت الأرض .

(٤) الرحلة ص ٦٢٩ (٥) الرحلة ص ٦٠١

الخمر ويعاقب على شربها ، ومن قوله : « وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء عنه »(١) .

ومعلوم أن أبا حنيفة رضى الله عنه أباح شرب النبيذ وهو ما طبخ فذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، ويبدو أن بعض الناس كانوا يتوسعون فى ذلك ويشربون مشروبات مسكرة وكان ابن بطوطة على مذهب مالك رضى الله عنه ورفض شرب البوزة حينما عرضت عليه فى بلاد أوزبك ، وفى ذلك يقول : « وأتيت الزاوية فوجدت الأمير قد وضع بها طعاما كثيرا ، ثم أتوا بماء أبيض فى صحاف صغار فشرب القوم منه ، وكان الشيخ مظفر الدين يلى الأمير فى مجلسه وأنا أليه ، فقلت له : ماهذا ؟ فقال : هـــذا ماء الدهن ، فلم أفهم ما قال ، فذقته فوجدت له حموضة فتركته ، فلما خرجت سألت عنه ، فقال : هو نبيذ يصنعونه من حب الدوق ، وهم حنفية المذهب ، والنبيذ عندهم حلال ، ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوق البوزة ، وإنما قال الشيخ مظفر الدين (ماء الدخن) ولسانه فيه اللكنة الأعجمية ، فظننت أنه يقول : (ماء الدهن)(٢) .

نظام المواريث

كان نظام المواريث كما شرعه الإسلام مطبقا فى كل البلاد الإسلامية ، ولكن ابن بطوطة يخبرنا بأن مدينة إيوالاتن وهى أول عمالة السودان لا تطبق النظام الإسلامى ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته ، ونص على أن هذا نظام غريب لم يره فى أى بلد إسلامى ، يقول : « ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه ، وذلك شىء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون »(٣) .

---

(١) النجوم الزاهرة ١٧٤/٩ - يوسف بن تغرى بردى - المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر .

(٢) الرحلة ص ٣٦١

(٣) الرحلة ص ٧٧٧

أحكام خاطئة

وهناك أحكام خاطئة متوارثة لا تتفق مع الشريعة الإسلامية ، منها التمثيل بالجثث فقد كان بعض الحكام يقتلون ويصلبون وتقطع الأعضاء وترسل إلى البلاد وكانوا أحيانا يسلخون المقتول ويحشون جلده تبنا(١) . وهذا التمثيل يخالف الشرائع السمحة التى سنها الإسلام .

ومن الأحكام الخاطئة التى كانت سارية فى بعض المدن بقاء المطلقة فى دار المطلق حتى تتزوج غيره ، وكان هذا التقليد فى جزائر ذيبة المهل ،وحاول ابن بطوطة بعد توليه القضاء أن يقضى على هذا التشريع يقول : « فأول ماغيرت من عوائد السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين ، وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره ، فحسمت علة ذلك وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالأسواق وأخرجت النساء عنهم »(٢) .

ويتجلى التنطع فى الدين والتشديد على النفس فى مواصلة الصوم أياما متوالية ، أو فى الإفطار على تمرة واحدة ثم مواصلة الصيام ، ومن هؤلاء أحد المشايخ بمدينة دهلى ، وفيه يقول ابن بطوطة : « ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهرانى وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ، ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم ، وزاره السلطان يوما وأتى إليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها ، وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث ، وأنه قيل له فى ذلك فقال : « لا أفطر حتى أضطر فتحل لى الميتة »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ٦٢٦ (٢) الرحلة ص ٦٦٩

(٣) الرحلة ص ٤٨٤

معتقدات خاطئة

وهناك معتقدات متوارثة عن الجاهلية ، فقد كانوا يعتقدون أن الصحراوات تسكنها الشياطين وأن الشياطين يستدرجون الدليل الذى يسير بمفرده حتى يضل طريقه ويهلك فى الصحراء ، يقول ابن بطوطة : « ثم وصلنا إلى تاسرهلا(١) وهى أحساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملئونها بالماء ، ومن هنالك يبعث التكشيف اسم لكل رجـــل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى إيوالاتن بكتب الناس إلى أصحابها بهم ليكتروا لهم الدور ، ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع ، وربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم ، وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك »(٢) .

وأورد ابن بطوطة حكاية عن عفريت يظهر بجزائر ذيبة المهل حتى يأتى من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل ، فيدخلون فتاة بالليل إلى بيت الأصنام فيقتلها العفريت ، وذكر أن أحد المغاربة كان يحفظ القرآن ودخل بيت الأصنام وتلا القرآن فغاص العفريت فى البحر وتخلصوا من شره ، غير أنه يعود كل شهر فيضربون فى أوانى النحاس فينصرف ، والغريب أن ابن بطوطة يزعم أنه رأى العفريت مثل المركب الكبير ، ويدل هـذا على أنه يخترع بعض المشاهد فى بعض الأحيان .

ومن قوله : « حدثنى الثقاة من أهلها أنه كان يظهر لهم عفريت من الجن يأتى من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل ، وكانت عادتهم إذا رأوه

---

(١) مدينة فى الطريق من سبتة إلى إيوالاتن .

(٢) الرحلة ص ٧٧٤ .

أخذوا جارية بكرا فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة وهى بيت الأصنام، وكان مبنيا على ضفة البحر، ويتركونها هناك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتصبة ميتة، ثم إنه قدم عليهم مغربى وكان حافظا للقرآن العظيم فقال: أنا أتوجه عوضا عن البنت بالليـــل، وأدخلوه إلى بدخانة وهو متوضىء، وأقام يتلو القرآن، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة، فلما كان بحيث يسمع التلاوة غاص فى البحر، فمضوا إلى ملكهم وأعلموه بذلك فأسلم، ولم دخلناها لم يكن لى علم بشأنه، فبينا أنا ليلة فى بعض شأنى سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الأولاد وعلى رءوسهم المصاحف، والنساء يضربن فى الطسوت وأوانى النحاس، فعجبت من فعلهم وقلت: ماشأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير وكأنه سرج ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة فى الشهر، فإذا فعلنا مارأيت انصرف عنا ولم يضرنا »(١).

---

(١) الرحلة ص ٦٥٩ بتصرف.

الباب الثالث

أسلوب الرحلة

بين ابن بطوطة وابن جزى

كتب ابن جزى مقدمة في أربع صفحات بدأها بقوله : « قال الشيخ الفقيه العالم الثقة الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضى عنه وكرمه ، آمين » وهذه المقدمة من إنشاء ابن جزى ، وتدل على ان ابن بطوطة أملى هذه الرحلة على ابن جزى ، فابن بطوطة هو صاحب الأسلوب، وسنرى أن ابن جزى أعمل قلمه بالحذف والتغيير .

ثم يتحدث عن وفود ابن بطوطة على سلطان البلاد وإلقائه عصا التسيار بعد أن جول في الأرض واخترق الأقاليم بالطول والعرض .

ثم يتحدث ابن جزى عن كيفية تدوين الرحلة فيقول : « ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بحفظه من نوادر الأخبار ، ويذكر مالقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الأخيار وأوليائها الأبرار فأملى من ذلك مافيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر من كل غريبة أفاد باجتلائها وعجيبة أطرف بانتحائها ، وصدر الأمر العالى لعبد مقامهم الكريم المنقطع إلى بابهم ، المتشرف بخدمة جنابهم محمد بن محمد ابن جزى الكلبي أعانه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكر نعمتهم . أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملا في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا ، متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه ، معتمدا بإيضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الاستمتاع بدرها عند تجريده من الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا ، وشرع في منهله ليكون بمعونة الله عن توفية الغرض منه صادرا ، ونقلت معانى كلام الشيخ

أبى عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدها، موضحة للمناحى التى اعتمدها وربما أوردت لفظة على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار، على أنه سلك فى إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط، وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجميتها على الناس، ويخطىء فى فك معماها معهود القياس».

وهذا نص صريح لابن جزى نستطيع أن نصل بعد تفهمه إلى حقيقة الموقف ونحدد مدى إسهام ابن جزى فى صياغة رحلة ابن بطوطة، ونستطيع أن نحدد المواقف التالية :

١ — كان تدوين الرحلة بإشارة من السلطان أبى عنان فارس بأن يملى ابن بطوطة تفاصيل الرحلة على ابن جزى .

٢ — أملى ابن بطوطة على ابن جزى تفاصيل الرحلة ، ونحن بدورنا نقول : إن هذا الإملاء لا يمنع أن يكون ابن بطوطة قد كتب بعض المذكرات أثناء رحلته ولكنها مذكرات غير شاملة وغير مرتبة بدليل وقوع بعض الأخطاء فى ترتيب أحداث الرحلة والربط بينها ، ونرجح أن يكون ابن بطوطة قد نظر فى هذه المذكرات وأملى على ابن جزى بعد أن سد الثغرات ، أما أن يكون ابن بطوطة لم يدون شيئا واعتمد على ذاكرته اعتمادا كليا فى سرد أحداث وقعت على مدى تسعة وعشرين عاما فهذا مالا نستريح إليه .

٣ — كانت مهمة ابن جزى أن يسمع الحديث ويدونه ويرتبه وينقحه ويوضح ما غمض منه ، وهذا يستدعى أن يحذف ما يرى حذفه ، والتنقيح يستدعى أن يغير بعض الألفاظ والعبارات التى يراها قلقة أو لا تؤدى المعنى

المراد على أكمل وجه،ما عبر عنه (بالصدف) حيث يقول: «أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ من ذلك متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه، معتمدا إيضاحه وتقريبه عند تجريده من الصدف»، وبهذا نقرر أن ابن جزى غير فى بعض المواقف من أسلوب ابن بطوطة فحذف وأضاف واستبدل عبارات من عنده.

٤ — حافظ ابن جزى على تدوين كل المعلومات التى أملاها ابن بطوطة ولم يسقط منها شيئا وكان التغيير مقصورا على الألفاظ حيث اختار الألفاظ التى تؤدى هذه المعانى أداء دقيقا، على أنه لم يغير كل الألفاظ وإنما غير منها ما لم يرض عنه، وأبقى ما رآه دقيقا فى موضعه، يقول ابن بطوطة: «وربما أوردت لفظة على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار».

٥ — لم يتعرض ابن جزى لتحقيق ما أورده ابن بطوطة، وكان ابن جزى واثقا بصحة ما أورده ابن بطوطة على وجه العموم، وكان واثقا بصحة الإسناد، يقول فى ذلك: «ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار».

٦ — عنى ابن بطوطة بالشكل والنقط لكل ما أشكل أو غمض لئلا يلتبس على القارىء، يقول ابن جزى عن ابن بطوطة: «وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع فى التصحيح والضبط».

٧ — كان ابن بطوطة يوضح معانى الكلمات الأعجمية ويبدو أن ابن جزى أسهم فى ذلك حيث يقول: «وشرحت ما أمكننى شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجميتها على الناس، ولكن ابن جزى لا يستطيع أن يستقل بذلك لأنه لم يذهب إلى تلك الأماكن ولم يسمع من أهلها، ولذلك فنحن نرى أن تفسير معانى الأسماء العجمية مصدره ابن بطوطة فى معظم الأحيان.

ولا يبدو من الرحلة أن ابن بطوطة تعلم لغة من اللغات ، وإنما هى ألفاظ التقطها بفضل مخالطته للناس ، وقد وردت جملة واحدة تدل على أنه تعلم اللغة الفارسية حيث يقول : « فلما تعلمت اللسان الفارسى فهمت مراده »(١) ولا نظن إلا أنه تعلم بعض الألفاظ التى يستعملها فى الأحاديث اليومية .

٨ – استبدل ابن جزى فى قليل من المواقف بأحاديث ابن بطوطة أحاديث لابن جبير فى رحلته الشهيرة ، وكان ابن جبير أروع أسلوبا فأراد ابن جزى أن يضيف روعة الأسلوب إلى روعة الوصف ، وقد ثبت هذا بالمقارنة بين الرحلتين ، وسنبين فى حديثنا القادم هذه المواطن .

٩ – أضاف ابن جزى بعض الأحاديث ونص عليها فكان يقول : « قال ابن جزى » وتتراوح هذه الأحاديث بين فقرات نثرية وأبيات شعرية مما راقه وأثار إعجابه ورآه مناسبا للموقف ، ونفصل هذه الإضافات فيما يلى :

إضافات ابن جزى

أورد د. على المنتصر الكتانى إضافات ابن جزى مستقلة فى نهاية الكتاب وجاءت هذه الإضافات فى ست وعشرين صفحة وتشتمل على أربعة وأربعين موقفا حوت عبارات نثرية وأبياتا شعرية، وجاءت العبارات النثرية فى أربعة وعشرين موقفا تمس أحداث الرحلة ولكنها لا تدخل فى صميمها ، فقد ذكر تاريخ ومكان ميلاد ابن بطوطة ، وأورد حكاية عن تأثر أحد العلماء حينما زار الأندلس وحضر صلاة العيد وأقبل الناس بعضهم على بعض بالتهنئة ولم يقبل عليه أحد وقد فطن شيخ من المدينة إلى حاله وأقبل عليه بالسلام والإيناس ، وقد حدث لابن بطوطة موقف مماثل ، وأورد ابن جزى حكاية

(١) الرحلة ص ٣٤١ .

عن صعود أحد الرماة عمود السواري وتجمع الناس حوله وتحقيق هدفه ، كما أورد حديثا عن جبل ثور ، وحديثا عن جبل طارق ، وأورد حديثا عن المقتلة الكبيرة من العلماء في مذبحة التتار ببغداد ، وحدد المعركة التي قتل فيها أويس القرني ، وصحح معلومات عن مشايخ الصوفية وذكر أن معرة النعمان سميت بذلك نسبة إلى النعمان ابن بشير الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : إن النعمان جبل مطل عليها ، وتحدث عن الأشجار المجوفة والصومعة التي تهتز ، كما تحدث عن إحكام التصوير في بلاد الروم ، وعن الأدب في بلاد السودان .

واستغرق صفحات عديدة في الإشادة بأبي عنان سلطان المغرب وخصه بستة أحاديث عن حلمه وشجاعته وعلمه وصدقاته وعدله وجهاده ، وأسلوبه النثري مرسل لا يتكلف التصوير ولا المحسنات البديعية .

وأورد ابن جزي في عشرين موقفا أشعار الشعراء سابقين ومعاصرين ومعظم هذه الأشعار في وصف المدن ، فأورد أبياتا في وصف مدينة صفاقس وتنيس والبرلس والقاهرة وبغداد وحماة ودمشق ، وأورد أبياتا في وصف قلعة حلب .

وبعض هذه الأبيات منسوب إلى قائلها وبعضها غير منسوب ، وفي هذه الأبيات التي اختارها تبدو العناية بالتصوير وبالطباق وبالجناس وحسن التعليل ، وأورد أبياتا في التورية مظهرا إعجابه بهذا اللون البديعي . ومن قوله : « وقد أحسن صفي الدين الحلي في قوله في التورية :

إن البخيري مذ فارقتموه غدا   يحثوا التراب على كانونه الترب
لو شئتم أنه يمسى أبا لهب   جاءت بغالكم حمالة الحطب »(١)

---

(١) الرحلة ص ٨١٨ .

السهولة وعدم التكلف

يشعر القارىء لرحلة ابن بطوطة أن أسلوب الرحلة سهل واضح ينطلق فيه الكاتب على سجيته لا يتكلف ولا يتأنق ولا يحاول التقاط الصور الخيالية ولا يحاول حشو أسلوبه بالمحسنات البديعية التى كانت موضع اهتمام الكتاب فى عصره ، فإذا جاءت الصور أو المحسنات فإنما تأتى عفو الخاطر .

وأسلوب الرحلة بعيد من الابتذال ، وفرق بين السهولة والابتذال، فهو سهل يؤدى المعنى ويوصله إلى القارىء بدون معاناة وبدون بذل الجهد فى فهم التراكيب ، وفى الوقت نفسه لا نرى فيه كلاما سوقيا ولا نرى عبارات مهلهلة ، ولا يمنع هذا وجود قليل من الكلمات العامية الشائعة .

ولنقرأ قوله فى مطالع حديثه متحدثا عن خروجه إلى الرحلة والدوافع الباعثة له ، يقول : «كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفردا عن رفيق آنس بصحبته وراكب أكون فى جملته . لباعث على النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن فى الحيازم ، فجزمت أمرى على هجر الأحباب من الإناث والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والداى بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة»(١) .

ولنلاحظ أن موضوع الرحلة يمس الجوانب العلمية إلى درجة كبيرة فهو لا يتحدث حديثا أدبيا خالصا فلم يكن من الملائم أن ينطلق فى تعبير أدبى خيالى يبعده عن الحقائق التى يعبر عنها ، وقد نجح فى أن يتجنب الأسلوب

---

(١) الرحلة ص ٣٠

العلمى الخالص الذى يخرج به عن المجال الأدبى ويدخله فى غمار الحقائق العلمية المجردة ويحوله إلى كتاب جغرافى ، وهكذا نجح ابن بطوطة فى أن يوصل الحقائق فى أسلوب سهل واضح عليه مسحة أدبية جميلة .

العناية بالفكرة

يعنى ابن بطوطة بالفكرة التى يريد توصيلها فيوضحها ويفصلها ، ومن قوله فى وصف رحلة من تونس إلى الإسكندرية : « وتجاوزنا مسلاته ومسراته وقصور سرت وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من أذايتنا، ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابر إلى قبة سلام ، وأدركنا هنالك الذين تخلفوا بطرابلس »(١) . وهنا يعدد المدن التى مروا بها ، وينص على دخوله الغابة ومروره بالقصر والقبة ، ثم إنه يبرز الأحداث ويتحدث عن محاولة الإيقاع بهم .

ويعنى ابن بطوطة بذكر التفصيلات المحيطة بالموقف والتى تثرى الموقف وتنقلنا إلى أجوائه ، وفى حديثه عن رحلته فى تونس يذكر الجو والموقع والحالة الصحية ويحدد المسافة ، وتترابط الأفكار الجزئية وتتكامل فى رسم الصورة ، ومن قوله : « فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها (أدرك صاحبيه وذلك فى إبان القيظ ، فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشراً ، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضى منهما فاقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثا)(٢) .

وحين يصف منار الإسكندرية يعنى بالفكرة عناية فائقة فيصف المنار وصفا دقيقا مفصلا يبين هيكله وموقعه وأبوابه وطريقة الدخول إليه

---

(١) الرحلة ص ٣٤ . (٢) الرحلة ص ٣١ .

والحجرات المبنية به وعرض الممر وعرض الحائط والمسافة مابينه وبين المدينة وإحاطة البحر به، ومن وصفه: « قصدت المنار فى هـــذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما، وصفته أنه بناء مربع ذاهب فى الهواء، وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه، وصفت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه، وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار. وداخل المنار بيوت كثيرة، وعرض الممر بداخله تسعة أشبار، وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبرا، وهو على تل مرتفع، ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد فى برمستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات إلى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل إلى المنار فى البر إلا من المدينة »(١) وهنا يرسم صورة حسية واضحة للمنار.

وقد يعنى بفكرة يكون مدارها تأكيد نظرية له فيظل يدور حول الفكرة ويسوق الأدلة ويرسم المشاهد التى تؤكد فكرته، ومن أمثلة ذلك أنه أراد أن يثبت لنا أنه لقى وليا بمدينة صين كلان، وابن بطوطة يؤمن بالأولياء وقدرتهم المطلقة على فعل الخوارق، ونراه يلح بالتصوير المحسوس وبإيراد المواقف التى تؤكد ولاية هذا الرجل، فنراه ينص على أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء، وأنه ساكن فى غار يتعبد فيه، وهو هزيل عليه أثر العبادة، ويمسك يد ابن بطوطة ويشمها ويقول للترجمان: هذا من طرف الدنيا، ويدخل الرجل الغار ويدخل ابن بطوطة وراءه فلا يجده وإنما يجد أحد أصحابه ويخبره هذا الصاحب أنه لن يرى الرجل ولو أقام عشر سنين، ويخبره أن الرجل موجود معهم وليس ببعيد، ويخرج ابن بطوطة من الغار ويخبر القاضى بما حدث، ويخبره القاضى أن الذى رآه بالغار هو الولى نفسه فى صورة جديدة، وأن هذا الولى غاب عن البلاد خمسين سنة ثم عاد(٢). وكأنه يشعر أنها فكرة غير معقولة فيلح فى إثباتها.

---

(١) الرحلة ص ٣٧ (٢) الرحلة ص ٧٢٤

مواقف يهتم فيها بجمال الأسلوب

قررنا أن أسلوب ابن بطوطة أسلوب مرسل لا يتكلف السجع ولا تثقله المحسنات البديعية ، وليس معنى ذلك أن الأسلوب يخلو من التصوير الجميل ويخلو من السجع والمحسنات فإن الصور والمحسنات تأتى أحيانا عفو الخاطر ، وقد يظهر عليها أن الكاتب قصد إليها ولكن ذلك لا يكثر ولا يثقل على النفس ، ثم إن الكاتب قصد فى بعض المواقف إلى العناية بالأسلوب وكانت هذه المواقف تستدعى شيئا من العناية فبعضها أوصاف لبلاد أو مواقع جميلة وبعضها إشادة بحاكم يشعر بأياديه البيضاء على شعبه ، وهذه المواقف الجميلة حسيا أو معنويا يلائمها هذا الأسلوب الجميل .

نرى ابن بطوطة يسترسل فى أسلوبه وفى أثناء حديثه يأتى بصورة لا يبدو أنه قصد إليها كما فى قوله : « وأظلنى بتونس عيد الفطر »(١) وهنا استعارة لا نشعر أنه قصد إليها .

وفى موقف آخر نشعر أنه قصد إلى التصوير لينقل مشاعره ، ففى مطلع الرحلة يتحدث عن خروجه ومفارقته لبلده وأهله ويقول : « وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور »(٢) وهو تشبيه يعبر عن حبه الشديد لوطنه .

ويتحول ابن بطوطة فى بعض المواقف عن الأسلوب المرسل الذى ينطلق فيه على سجيته ، إلى الأسلوب المسجوع الذى يحفل بكثير من ألوان المحسنات البديعية ، ويلحظ القارىء هذا الفارق الواضح بين الأسلوبين ، ونرى هذا الأسلوب المتأنق فى وصف ابن بطوطة لمدينة الإسكندرية مثلا ، وفى وصفه لمدينة القاهرة ، وهنا نرى بعض الصور الخيالية ، ونرى السجع والطباق

---

(١) الرحلة ص ٣١ (٢) الرحلة ص ٣٠

والجناس والازدواج ، ونرى أن هذا الأسلوب الجميل ملائم لوصف المدينة الجميلة ، ومن وصفه لمدينة القاهرة :

« ثم وصلت إلى مدينة مصر(١) وهى أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية فى كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ، ومجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها ، شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل الذى أجل خطرها وأغناها عن أن تستمد القطر قطرها »(٢) .

ويعمد ابن بطوطة إلى العناية بأسلوبه حينما يشيد بالسلطان الذى يقدر أياديه ، وكان ابن بطوطة ممن يبالغون فى تعظيم الحاكم وإضفاء كل صفات الامتياز عليه ، ومن قوله فى مطلع الرحلة : « وكان ارتحالى فى أيام أمير المؤمنين وناصر الدين الذى رويت أخبار جوده وصولة الإسناد بالإسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد ، وتحلت الأيام بحلى فضله ، ورتع الأنام فى ظل رفقه وعدله ، الإمام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، الذى فل حد الشرك صدق عزائمه . وأطفأت نار الكفر جداول صارمه ، وفتكت بعباد الصليب كتائبه وكرمت فى إخلاص الجهاد مذاهبه ، الإمام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق ، جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهتانه ، وجزاهم أفضل الجزاء

---

(١) كثيرا ما يسمى القاهرة مصر .

(٢) الرحلة ص ٥٣ .

عن الإسلام والمسلمين ، وأبقى الملك فى عقبهم إلى يوم الدين ».(١)

وواضح أنه يهتم بالسجع والجناس والازدواج ويهتم أيضا بالصور الخيالية.

الاقتباس من ابن جبير

اقتبس ابن جزى فى خمسة مواقف عبارات من كلام ابن جبير فى رحلته الشهيرة . وفى بعض هذه المواقف الخمسة يقتبس فقرة كاملة من كلام ابن جبير وأحيانا يقتبس جملا عديدة يدخلها فى ثنايا كلام ابن بطوطة وهذه لاتدرك إلا بالمقارنة بين النصين .

فى وصف مسجد رسول الله عليـــه السلام بالمدينة المنورة(٢) يورد ابن جزى فى الفقرة الثانية أثنى عشر سطرا من كلام ابن بطوطة ، وأول هذه الفقرة : « المسجد العظيم مستطيل تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ، ووسطه صحن مفروش بالحصا والرمل » وهذه العبارة موجودة بالنص فى وصف ابن جبير(٣) غير أن باقى الأسطر الأثنى عشر ليست واردة فى نص ابن جبير ورودا متسلسلا ، وإنما هى مبثوثة فى عبارة ابن جبير بنصها ،ومن هذه العبارات : « وفى الجهة القبلية منها مسمار فضة قبالة الوجه الكريم، ورأس أبى بكر رضى الله عنه عند قدمى رسول الله ، ورأس عمر عند كتفى أبى بكر رضى الله عنهما ، وفى جوفى الروضة المقدسة حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال : إنه كان بيت فاطمة ، ويقال : هو قبرها ، والله أعلم » .

وفى وصف مدينة حلب اقتبس ابن جزى الفقرة الأولى من ابن جبير

---

(١) الرحلة ص ٣٠ . (٢) الرحلة ص ١٣٣ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٥٠ .

مع تغيير بسيط فى بعض الجمل لم يغـــير المعانى الواردة من تعظيم قدرها وكفاحها وإبائها والإشادة بأمرائها الحمدانيين وشعرائها وخلودها على مر الزمان ، وجعل تأنيث اسمها مقرونا بتحليها بزينة الغوانى ، وتوقع دوام شبابها وعمرانها(١) .

واتخذ ابن جزى هذا الموقف فى وصفه لمدينة دمشق حيث اقتبس الفقرة الأولى من ابن جبير مع تغيير بسيط فى بعض الجمل لم يغـير المعانى الواردة من أنها جنة المشرق ، وقد تشرفت بأن المسيح وأمه أويا إليها ، وأنها ريانة حتى إنها تشتاق إلى الظمأ ، والبساتين تحدق بها إحداق الهالة بالقمر وتمتد غوطتها إمتداد البصر (٢) .

ويتضح لقارىء النص أن ابن جبير يعنى بتجميل أسلوبه .

وفى وصف مدينة بغداد اقتبس ابن جزى الفقرة الأولى من ابن جبير مع تغيير بعض الجمل بحيث لم يتغير المضمون ، وقد تحدث عن ماضيها حين كانت عاصمة الخلافة العباسية وكيف لم يبـــق لها إلا اسمها ، وقد صارت كالطلل الدارس ، واقتبس التشبيهات التى أوردها ابن جبير(٣) .

والموقف الأخير الذى اقتبس فيه ابن جزى من ابن جبير فى وصف جامع دمشق ، والمتأمل فى هذا الوصف يرى ابن جزى قد وضع نصب عينيه وصف ابن جبير ، ولم ينقل فقرات كاملة منه هنا ولكنه نقل جملا وأضاف من عنده جملا ، ثم إنه أخذ المعانى التى أوردها ابن جبير ، ولتوضيح ذلك نورد ما يأتى :

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٨٧ - ورحلة ابن جبير ص ٢٠٢ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ص ١٠٢ - ورحلة ابن جبير ص ٢١٠ .
(٣) ابن بطوطة ص ٢٤٢ - وابن جبير ص ١٧٣ .

١ — يقول ابن بطوطة : « وكان الذى تولى بناءه وإتقانه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية يأمره أن يبعث إليه الصناع فبعث إليه اثنى عشر ألف صانع »(١) . ويقول ابن جبير : « انتدب لبنائه الوليد ابن عبد الملك ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثنى عشر ألفا من الصناع من بلاده فامتثل أمره »(٢) .

٢ — ويقول ابن بطوطة : « وكانوا يزعمون أن الذى يهدمها (الكنيسة) يجن فذكروا ذلك للوليد فقال : « أنا أول من يجن فى سبيل الله ، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه » ووردت العبارة نفسها عند ابن جبير(٣) .

٣ — ويقول ابن بطوطة : « وذرع المسجد فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهى ثلثمائة ذراع ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمسين وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع »(٤) . ويقول ابن جبير : « ذرعه فى الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة وهى الثمانائة ذراع ، وذرعه فى السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهى مائتا ذراع »(٥) .

الأسلوب العلمى المتأدب

أسلوب الرحلة من الأسلوب العلمى المتأدب ، فهو يزخر بالحقائق العلمية المختلفة ولكنه يورد هذه الحقائق فى أسلوب أدبى لا يجافى الحقائق العلمية ، ولا يخرج إلى الأسلوب العلمى الجاف .

(١) ابن بطوطة ص ١٠٣ (٢) ابن جبير ص ٢١١ .
(٣) ابن بطوطة ص ١٠٣ - وابن جبير ص ٢١٢ .
(٤) ابن بطوطة ص ١٠٣ (٥) ابن جبير ص ٢١٢

يعنى ابن بطوطة فى بعض المواقف يذكر التواريخ الدقيقة كما فى قوله : «كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة »(١) كما أنه يذكر أحيانه تواريخ وفاة الشخصيات التى يتحدث عنها كان يقول : « والشيخ الصالح أبو عبدالله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزبيدى نسبة إلى قرية بساحل المهدية ، وهو أحد الفضلاء ، وفاته عام أربعين »(٢) .

ثم يذكر أسماء الشخصيات من السلاطين والحكام والقضاة والعلماء والأولياء ويعرف بهم ويذكر نسبة الرجال إلى بلادهم ويورد تواريخ وفاتهم أحيانا كما قلنا . وفى كل مكان يحله ابن بطوطة يورد أسماء عديد من العلماء والقضاة ورجالات الدولة ، ويعرف بهم ومن قوله من علماء الإسكندرية : «ومن علماء الإسكندرية قاضيها عماد الدين الكندى إمام من أئمة علم اللسان ، ومنهم فخر الدين بن الريغى وهو أيضا من القضاة بالإسكندرية ، فاضل من أهل العلم ، يذكر أن جد القاضى فخر الدين الريغى من أهل ريغة واشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز »(٣) .

وفى حديثه عن مدينة القاهرة يورد أسماء عديد من السلف المدفونين فى القاهرة ويورد أسماء عديد من العلماء والقضاة ، ومنهم بدر الدين بن جماعة قاضى قضاة الشافعية ، وتقى الدين الأخنائى قاضى قضاة المالكية ، وشمس الدين الحريرى قاضى قضاة الحنفية ، وعــز الدين قاضى قضاة الحنبلية »(٤) .

ويورد أسماء كبار أمراء المماليك فى عهد الملك الناصر مثل الأمير

---

(١) الرحلة ص ٣٠

(٢) الرحلة ص ٣١ .

(٣) الرحلة ص ٣٨

(٤) الرحلة ص ٦٠

بكتمور، ونائب الملك الناصر أرغون الدودار، وطشط المعروف بحمص أخضر(١) .

ويورد أحيانا أسماء بعض المؤلفين مثل أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه(٢) . والصاغاني مؤلف كتاب المصابيح وشوارق الأنوار(٣) .

ويقدم ابن بطوطة معلومات هائلة تاريخية وجغرافية ، وبعض هذه المعلومات صحيح ودقيق كما في حديثه عن مدينة الإسكندرية ، وأبوابها ومرساها العظيم وعن المنار وتفصيلات مبانيه ، وعن عمود السواري ، وكما في حديثه عن قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وبناء مسجده بها وتوسعة المسجد بعد ذلك على يد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس ، وكذلك حديثه عن الكعبة الشريفة وموقعها وبنائها في دقة متناهية ووصف كسوة الكعبة .

وإلى جانب ذلك يورد ابن بطوطة معلومات غير مؤكدة سمعها من الناس أو وردت في كتب غير موثوق بها ، وبعضها يتحدث عن الأمم البائدة التي لا نعلم عنها شيئا مؤكدا إلا المعلومات التي وردت في القرآن الكريم وهي معلومات موجزة .

ويعرف ابن بطوطة بالبلاد التي يزورها حتى الصغيرة منها ، ولفتت الأهرام نظره فوصفها وأورد عنها معلومات لا تقوم على أساس علمي ، فهي تزعم أن هرمس الأول هو إدريس عليه السلام وأنه هو الذي بنى الأهرام ، ثم إنه تحدث عن الزوايا والخوانق والمدارس ، وتحدث عن الأطعمة في بلاد العالم الإسلامي ، وتحدث عن الملابس والعادات وعن بعض

(١) الرحلة ص ٥٩ (٢) الرحلة ص ٣٣ .
(٣) الرحلة ص ٢٢٤ .

الفنون ، وتحدث عن الأعياد والمناسبات التى يحتفلون بها وعن المواكب الرسمية والشعبية ، وعرف ببعض الفرق الدينية والسياسية التى كانت موجودة فى أيامه .

ثم إنه أعطى صورة عن الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة ، وتحدث عن الموانىء فى العالم الإسلامى وعن أهم الحاصلات وأهم الصناعات ، وتحدث عن الضرائب وأهم العملات الذهبية والفضية والنحاسية والورقية ، وعن أشكال من المعاملات خاصة ببعض البلدان كالتعامل بالودع وبالملح ، وكانت أحاديثه تتسم بالدقة حيث يورد وزن الدينار والدرهم ويوازن بين العملات فى مختلف البلاد .

ومن المواقف الطريفة التى صورها ابن بطوطة طريقة التحية فى مجالس الملوك فى شيراز والهند ، ففى شيراز يقعد الرجل ممسكا بأذن نفسه وينزع شاشيته عن رأسه ، وفى الهند كانوا يركعون ويوصلون أصابعهم إلى الأرض .

وهناك مواقف يصور فيها مشاعر روحية كما فى تصوير مشاعره تجاه أقدس بقاع الأرض مكة المكرمة . وهنا يصور مشاعره فى أسلوب أدبى فى صدق بعيد عن المبالغة ، ومن قوله : « ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة ، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة ، وجعل حبها متمكنا فى القلوب فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجاميع قلبه ، ولا يفارقها إلا آسفا لفراقها متولها لبعاده عنها ، شديد الحنين إليها ، ناويا لتكرير الوفادة عليها ، فأرضها المباركة نصب الأعين ومحبتها حشو القلوب ، حكمة من الله بالغة ، وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام ، والشوق يحضرها وهى نائية ، ويمثلها وهى غائبة ، ويهون على قاصدها ما يلقى من المشاق ويعانيه من العناء ، وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها ، ويشاهد

التلف فى طريقها ، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا »(١) .

الاقتباس من القرآن والحديث وتضمين الأمثلة والشعر

يقتبس ابن بطوطة من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ، ويضمن كتاباته أبياتا من الشعر وبعض الأمثلة ، غير أنه لم يكثر من الاقتباس من القرآن الكريم واقتبس منه فى ثلاثة مواقف فقط ، وفى الموقف الأول كان ابن بطوطة يقدم معلومة علمية عن نهر النيل حيث يقول : « وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره ، واستدل على أن النيل يسمى بحرا بالآية الكريمة فقال : قال الله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » فسماه يما وهو البحر(٢) .

وفى الموقف الثانى كان يتحدث عن أولياء وصلحاء دهلى ، وتحدث عن أحد المشايخ وذكر أنه قرأ آية فسمعها أحد الفقراء وصاح ووقع ميتا يقول : « ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى ، وهو يعظ الناس فى كل يوم جمعـــة ، شاهدته فى بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارىء بين يديه : (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) . ثم كررها الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، وأعاد الشيخ الآية ، فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا »(٣) .

---

(١) الرحلة ص ١٥٢ (٢) الرحلة ص ٥٦

(٣) الرحلة ص ٤٨٣ .

وفى الموقف الثالث أورد ثلاث آيات فى موقف يدعو إلى الاعتدال فى الإنفاق وهذه الآيات هى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »(١) .

وأورد ابن بطوطة ستة أحاديث ، وأورد الحديث الأول أثناء حديثه عن الإسراء والمعراج حيث يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسرى بى إلى بيت المقدس مر بى جبريل على قبر إبراهيم فقال : إنزل فصل ركعتين فإن هنا قبر إبراهيم ، ثم مر بى على بيت لحم وقال . أنزل فصل ركعتين فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام »(٢) . وأورد حديثا يفيد تعظيم الحجر الأسود يقول : « وكفى قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنه يمين الله فى أرضه »(٣) . وأورد حديثا يتعلق بطواف النبى حول الكعبة سبعا حينما دخل المسجد الحرام(٤) . وحديثا عن العمرة فى رمضان يقول : « عمرة فى رمضان تعدل حجة معى »(٥) . وأورد حديثا يدعو إلى التريث وعدم العجلة يقول : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »(٦) . وأورد حديثا غير صحيح حول ماء زمزم فقال : « وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له ، حسبما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم تسليما »(٧) . وهو حديث غير ثابت يقول : « ماء زمزم لما شرب له » .

وأورد ابن بطوطة مثلا شعبيا واحدا ، وكان ابن بطوطة قد خرج من دمشق قاصدا المدينة المنورة وسار فى صحراء موحشة فقال : « ونزلنا من عقبة الصوان(٨) إلى الصحراء التى يقال فيها : داخلها مفقود وخارجها مولود »(٩)

---

(١) الرحلة ٥٩٦ .

(٢) الرحلة ص ٧٥ .

(٣) الرحلة ص ١٥٧

(٤) الرحلة ص ١٥٨

(٥) الرحلة ص ١٧٢

(٦) الرحلة ص ٦٠٤

(٧) الرحلة ص ١٥٢

(٨) تسمى اليوم العقبة الحجازية

(٩) الرحلة ص ١٢٩

أما الأشعار التي استشهد بها فكثيرة ، وجميعها لشعراء سابقين ماعدا قصيدة واحدة أنشأها ابن بطوطة في مدح سلطان الهند ، واستشهد ابن بطوطة بالشعر ثلاث عشرة مرة ، ومعظم هذه الأشعار يرد في مدح الحكام والقضاة وآل بيت النبي عليه السلام والإشادة بالمدن ، فأورد بيتا في مدح الخصيب حاكم مصر أيام الخليفة المأمون(١) : وأورد قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا للشاعر محمد بن نباتة القرشي يمدح قاضي الشافعية كمال الدين الزملكاني ، وذكر أن الشعراء عابوا على هذا الشاعر مطلع قصيدته حيث افتتحها بالأسف لفقد القاضي ، وكان القاضي قد غادر دمشق إلى حلب وتولى فيها منصب قاضي قضاة الشافعية ، فأعلن الشاعر أسف دمشق لفقده واستبشار حلب بقدومه حيث يقول :

أسفت لفقدك جلق الفيحاء(٢) .

وأورد ابن بطوطة بيتا في مدح قاضي قضاة الحنفية(٣) ، وذكر أنه استدان مالا أنفقه في الطريق وألح عليه الدائنون في طلب حقوقهم فمدح سلطان الهند بقصيدة يقول : إنها طويلة ، وأورد منها سبعة أبيات ، وفيها يقول :

« إليك أمير المؤمنين المبجلا	أتينا نجد السير نحوك في العلا
فجئت محلا من علائك زائرا	ومغناك كهف للزيارة أهلا
ولو أن فوق الشمس للمجد رتبة	لكنت لأعلاها إماما مؤهلا
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي	سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولي حاجة من فضل جودك أرتجي	قضاها وقصدي عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم	فإن حياكم ذكره كان أجملا
فعجل لمن وافى محلك زائرا	قضا دينه إن الغريم تعجلا »(٤)

---

(١) الرحلة ص٦٤
(٢) الرحلة ص ٨٩
(٣) الرحلة ص ٩٠ .
(٤) الرحلة ص ٥٨٧

ونلحظ أن ابن بطوطة ينادى سلطان الهند بأمير المؤمنين ، وكان بعض الملوك والسلاطين يلقبون أنفسهم بهذا اللقب ، ونلحظ ثانيا أنه يطالب العطاء صراحة ويطالب تعجيل العطاء ، ويقتبس ابن بطوطة من الشعراء السابقين ، فقوله :

فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة   لكنت لأعلاها إماما مؤملا

مأخوذ من قول أبي دلامة :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس(١)

وقول ابن بطوطة :

ولى حاجة من فيض جودك أرتجى   قضاها وقصدى عندك سهلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم   فإن حياكم ذكره كان أجملا

مأخوذ من قول الشاعر :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك إن شيمتك الحياء

وأورد ابن بطوطة شعرا مكتوبا على قبر فاطمة بنت الحسين ، ونصه :

« أسكنت من كان فى الأحشاء مسكنه
بالرغم منى بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة   بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر مافيك من دين ومن ورع
ومن عفاف ومن صون ومن خفر »(٢)

وأورد ابن بطوطة بيتا لأبى نواس فى الإشادة بمدينة نصيبين(٣) ،

---

(١) البيت منسوب لأبى دلامة فى الأغانى جـ ١٠ ص ٢٥١ - الدار التونسية للنشر .

(٢) الرحلة ص ٧٦ .   (٣) الرحلة ص ٢٥٧

وأورد بيتين منسوبين إلى الحارث بن مضاض الجرهمى يتحدثان عن إقفار المكان حول الحجون والصفا وذكر ابن بطوطة أن المراد بهذا المكان جبانة مكة خارج باب المعلى(١) .

وأورد بيتا فى الفناء أثناء حديثه عن إقفار قصر سلطان الهند بعد وفاة السلطان(٢) .

وفى حديثه عن مدينة القاهرة تحدث عن الإمام الشافعى رحمه الله ، وذكر أن الجد ساعده فى نفسه وأتباعه وأصحابه فى حياته ومماته ، وأورد بيتا منسوبا إلى الشافعى فى هذا المعنى يقول :

« الجد يدنى كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق »(٣)

وأورد ابن بطوطة بيتـــا فى حب الوطن(٤) . وبيتين فى تفضيل الغرب(٥) .

وكان ابن بطوطة يؤمن بما يقال من أن هاتفا يأتى فى المنام وينشد أشعارا ، وأورد بيتين قالهما هاتف فى المنام لأحد أصدقائه ، يقول ابن بطوطة : « ذكر لى على بن حجر أنه رأى فى النوم قائلا يقول له : اسمع منى واحفظ عنى :

هنيئا لكم يا زائرين ضريحه أمنتم به يوم المعاد من الرجس
وصلتم إلى قبر الحبيب بطيبة فطوبى لمن يضحى بطيبة أو يمسى(٦)

وأخيرا فقد أورد ابن بطوطة بيتين من الشعر الفارسى سمعها بمدينة الخنسا من بلاد الصين ، وكان ابن الأمير حاضرا وكان معجبا بالغناء الفارسى

---

(١) الرحلة ص ١٦٣
(٢) الرحلة ص ٥٣٢
(٣) الرحلة ص ٥٦
(٤) الرحلة ص ٥٤
(٥) الرحلة ص ٧٥٨
(٦) الرحلة ص ١٤٥

فغنوه ببيتين من الشعر الفارسى وكرروهما مرارا حتى حفظهما ابن بطوطة من أفواههم وأورد البيتين وهما :

« تادل بمحنت دادايم — در بحر فكر افتاديم
جن در نماز استاديم — قوى بمحراب أندريم »(١)

ولم يورد ابن بطوطة ترجمة البيتين، وأورد الترجمة محقق الرحلة فى الهامش إذ يقول : معنى ذلك : منذ أن تركنا أنفسنا للحزن وقعنا فى بحر التفكير ، عندما نقف للصلاة نكون أقوياء عند المحراب » .

القص والاستطراد

يلجأ ابن بطوطة إلى القص ويستطرد إلى مواقف جانبية ليست من صميم الموضوع الذى يتحدث عنه وإن كانت تمت إليه بصلة ما ، والحقيقة أن هذا القص وهذا الاستطراد يثرى الحديث ويؤكد الهدف الذى يرمى إليه الكاتب ونحن لا نؤمن أحيانا بصحة الأحداث التى يوردها ، ولكنها أحداث تتفق والجو العام الذى يصوره ابن بطوطة .

إحدى هذه الحكايات تحكى عن التفاؤل ، وكان ابن بطوطة يؤمن بالفأل ويتحدث عن صدق المنجم وحدوث ما تنبأ به ، وفى هذا الموقف يحكى عن جد القاضى فخر الدين الريغى وهو أحد القضاة بالإسكندرية ، وهنا استطرد حيث يخرج ابن بطوطة إلى الحديث عن جد القاضى ليحكى تفاؤله وتحقق ما توقعه ، يقول : « يذكر أن جد القاضى فخر الدين الريغى اشتغل بطلب العلم ثم رحل إلى الحجاز ، فوصل الإسكندرية فى العشى وهو قليل ذات اليد ، فأحب ألا يدخلها حتى يسمع فألا حسنا ، فقعد قريبا من بابها إلى

---

(١) الرحلة ص ٧٣٠ .

أن دخل جميع الناس ولم يبق هناك سواه ، فاغتاظ الموكل بالباب من إبطائه وقال متهكما : ادخل ياقاضى فقال : قاض إن شاء الله ، ودخل إلى بعض المدارس فعظم صيته واتصلت أخباره بملك مصر . واتفق أن توفى قاضى الإسكندرية فبعث إليه السلطان بالتقليد ، فاجتمع الفقهاء إلى رجل منهم كانوا يظنون أن القضاء لايتعداه ، وتفاوضوا فى مراجعة السلطان فى أمره ، وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم : لا تفعلوا ذلك فإنى عدلت طالع ولايته ، فظهر لى أنه يحكم أربعين سنة ، وكان أمره على ماظهر المنجم »(١) ويبدو التلفيق فى هذه الحكاية حيث ينتظر الرجل حتى يسمع فألا ويأتى الفأل بمناداته للقاضى ويموت قاضى الإسكندرية ويتوقع المنجم استمرار ولاية القاضى الجديد ويحددها بأربعين سنة ويتحقق ماتوقعه المنجم تماما .

وبعض هذه القصص يتحدث عن الأولياء وكان ابن بطوطة يؤمن بالأولياء وكراماتهم إيمانا مطلقا ، وهو يستطرد إلى قصص تؤكد الولاية وحدوث الكرامة وفى حديثه عن مدينة دمياط يستطرد إلى الحديث عن المدينة القديمة التى خربها الإفرنج كما يقول ، ويتحدث عن زاوية الشيخ جمال الدين الساوى ويعلل لحلق لحيته وحاجبيه ، ويورد حكاية عن تعلق امرأة به وحلق لحيته وحاجبيه ليكون منظره منفرا ، ويعقبها بحكاية أخرى تثبت قدرة هذا الشيخ على الظهور فى أشكال مختلفة(٢) ، وقد أوردنا الحكايتين فى حديثنا عن الحياة الدينية .

وزار ابن بطوطة مدينة جبلة القريبة من حلب ، وزار قبر إبراهيم بن أدهم وأورد حكاية تؤكد ورعه وورع أبيه ، وكيف أوصله ورعه إلى الزواج من امرأة ثرية أنجبت له الابن الصالح ، وملخص الحكاية : « أن أدهم كان من الفقراء الصالحين وأنه مر ذات يوم ببساتين بخارى وتوضأ من بعض

---

(١) الرحلة ص ٣٩ بتصرف .

(٢) الرحلة ص ٤٩ وما بعدها بتصرف

الأنهار فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر فأكلها، ثم وقع فى خاطره من ذلك وسواس فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية ، فقال : ادعى لى صاحب المنزل ، فقالت : إنه لامرأة ، فقال : استأذنى لى عليها ، ففعلت وأخبر المرأة بخبر التفاحة ، فقالت له : إن هذا البستان نصفه لى ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ ببلخ ، وأحلته المرأة من نصفها ، وذهب إلى بلخ ، وكان للسلطان بنت بارعة الجمال وحببت إليها العبادة ، وهى تحب أن تتزوج من ورع ، فقال له : لا أحلك إلا أن تتزوج بنتى ، فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع ، فتزوج منها ، ووجد ميتا ، وحملت منه فولدت إبراهيم ، ولم يكن لجده ولد فأسند الملك إليه ، وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر »(١) .

وكان ابن بطوطة يؤمن بظهور الجن عيانا للناس ، وأورد حكاية يثبت ذلك ، ونسب الحكاية إلى السماع ثم أراد أن يؤكدها فزعم أنه رأى العفريت فى صورة مركب مملوء بالمشاعل .

وعندما تحدث عن الأهرام استطرد إلى حكاية تتعلق بالأهرام وبنائها وبالثغرة التى فتحت فيها ، ويبدو على هذه الحكاية الاختراع أيضا ، والمرة الثانية يتحدث عن المنجمين وتحقيق نبوءاتهم ، ومن قوله : « ومما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أن يبنى تلك الأهرام لتكون مستودعا للعلوم ولجثث الملوك ، وأنه سأل المنجمين : هل يفتح فيها موضع ؟ فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى وعينوا له الموضع الذى تفتح منه ومبلغ الإنفاق فى فتحه ، فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل ، فلج فى ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة

(١) الرحلة ص ٩٥ بتصرف .

التى بها إلى اليوم ووجدوا بإزاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه لحصر ما أنفق فى النقب فوجدهما سواء »(١) .

ودخل ابن بطوطة مدينة منية ابن الخصيب وهو فى طريقه من القاهرة إلى أسيوط ، واستطرد إلى الحديث عن ماضى هذه المدينة وأورد حكاية تتحدث عن الخصيب وتوليته على مصر وغضب الخليفة عليه وما صبه عليه من عذاب ، وتحدث عن كرمه ومدح الشعراء له ، ثم رضا الخليفة عنه وإعطائه المنية ، ومن قوله :

« ثم سافرت إلى مدينة منية ابن خصيب ، وكانت فى القدم منية عامل مصر الخصيب ، يذكر أن أحد الخلفاء من بنى العباس غضب على أهل مصر فآلى أن يولى عليهم أحقر عبيده ، وكان خصيب أحقرهم ، فخلع عليه وأمره على مصر وظن أنه يسير فيهم سيرة سوء ، فلما استقر خصيب بمصر سار فى أهلها أحسن سيرة ، وافتقد الخليفة بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فأخبره أنه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان جزيلا ، فغضب الخليفة وأمر بسمل عينى خصيب وأخرجه من مصر إلى بغداد ، فلما ورد الأمر بالقبض عليه كانت بيده ياقوتة عظيمة فخبأها عنده وخاطها فى ثوب له ليلا ، وسملت عيناه . فمر به بعض الشعراء فقال : ياخصيب : إنى كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحا لك بقصيدة ، قال : فافعل ، فأنشده :

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فقال له : افتق هذه الخياطة وخذ الياقوتة ، فأخذها وذهب بها إلى سوق الجوهريين ، فرفعوا أمرها إلى الخليفة ، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهم عن شأن الياقوتة فأخبره بخبرها ، فتأسف على ما فعله بخصيب

---

(١) الرحلة ص ٥٨ بتصرف

وأجزل له العطاء وحكمه فيما يريد . فرغب أن يعطيه المنية ، ففعل ذلك ، وسكنها خصيب إلى أن توفى ، وأورثها عقبه »(١) .

ويستطرد ابن بطوطة أحيانا فى إيراد بعض المعلومات العلمية . ففى حديثه عن مدينة القاهرة ونهر النيل يستطرد إلى ذكر أنهار الدنيا الكبرى ، ويذكر مزايا بعض هذه الأنهار ، وأسماء الدول التى تقع الأنهار بها وأهم المدن التى تمر بها(٢) .

معلومات وألفاظ غير دقيقة

قلنا : إن ابن بطوطة دون بعض المعلومات أثناء رحلته بدليل المعلومات الدقيقة والتواريخ المحددة والأسماء العديدة التى أوردها ، كما أنه اعتمد على الذاكرة فى بعض الأحيان ، ونراه أحيانا يقول: « قاض لا أذكر اسمه »(٣) وعلى أى حال فإن ابن بطوطة قوى الذاكرة مرتب الذهن ، ومع ذلك فالإنسان معرض للنسيان ، ويبدو أن ابن بطوطة اعتراه النسيان فى بعض المواقف ثم إنه أخطأ قليلا فى استعمال بعض الألفاظ ، وأخطأ قليلا فى ترتيب الأحداث كما أشار إلى ذلك بعض علماء التاريخ والجغرافيا .

ولن نتعرض الآن للأخطاء التى قصد إلى إيرادها تمشيا مع معتقداته التى يؤمن بها مثل القصص التى تنسب الكرامات للأولياء والتى لا يقبل العقل تصديقها كالرجل الذى يتشكل فى أشكال مختلفة فى لحظة واحدة :

والسماع مصدر معتمد فى أدب الرحلات ، فالرحالة يرى أشياء ويسمع عن أشياء ، ولكن الواجب يحتم عليه أن يحكم عقله فيما يسمع ، ومن الممكن

---

(١) الرحلة ص ٦٤ بتصرف (٢) الرحلة ص ٥٦

(٣) الرحلة ص ٨٤ - ٩٠ .

أن يورد هذه الأشياء على أنها شائعات تتردد على ألسنة الناس وبذلك يبرىء نفسه من أى اتهام .

ولكن ابن بطوطة كان يصدق الشائعات المتوارثة سواء منها ما يمس المعتقدات الدينية ومايمس الحياة العامة ، وقد صدق وجود الرخ فى حجمه الخرافى وزعم أنه رآه فى رحلته أثناء عودته من الصين إلى جاوة وقد صوره كأنه جبل كما اعتقد جميع ركاب المركب ، ثم فوجئوا به يطير فى الهواء .

وفى الرحلة معلومات جغرافية خاطئة ، ونعزو هذا إلى النسيان ، وقد قلنا أن ابن بطوطة اعتمد على ذاكرته فى بعض الأحيان ، ومن هنا جاءت بعض الأخطاء الجغرافية . وقد نبه إليها فى الهامش ، والمؤكد من هذه الأخطاء :

١ — يقول ابن بطوطة فى حديثه عن مدينة حلب : « وهو النهر الذى يجرى بحماة ويسمى العاصى »(١) . والنهر اسمه القويق وهو غير نهر العاصى .

٢ — ويقول فى حديثه عن رحلته من حلب إلى جبلة : « ثم سافرت منها إلى مدينة تيزين ، وهى على طريق قنسرين »(٢) وقنسرين توجد فى الجنوب الشرقى من حلب ، أما تيزين فهى شمال غربى حلب ، فلا يمكن أن تكون على طريق قنسرين

٣ — ويقول فى رحلته من هرمز إلى البحرين : « ثم سافرنا إلى مدينة خنج وبال »(٣) ويقول المحقق : « هما مدينتان : مدينة خنج ، ومدينة بال ، وبال توجد على بعد ستين ميلا غربى خنج ، وهى الآن خراب » .

٤ — ثم يقول : « ثم سافرنا منهـــا إلى مدينة قيس ، وتسمى أيضا بسيراف »(٤) ومدينة قيس غير مدينة سيراف .

---

(١) الرحلة ص ٨٨
(٢) الرحلة ص ٩١ .
(٣) الرحلة ص ٣٠٣
(٤) الرحلة ص ٣٠٤

٥ — ويقول عن جزائر ذيبة المهل : « وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا وهى نحو ألفى جزيرة »(١) ويقول المحقق: « تسمى اليوم جزر مالديف أرخبيل مكونة من ألف وسبع وثمانين جزيرة » . والحقيقة أن ابن بطوطة معذور فى هذا الخطأ ، ولابد أنه بنى هذه المعلومة على السماع ولم يكن بإمكانه أن يتحقق من عدد الجزر .

٦ — وأخطأ ابن بطوطة فى ترتيب مدن عمان حيث يقول : « ثم ركبت البحر فوصلت إلى مسقط، ثم سافرنا إلى مرسى القريات ، ثم سافرنا إلى مرسى شبة ، ثم إلى مرسى كلبة ، ثم إلى قلهات »(٢) وتقع قلهات بالطريق قبل مسقط ، وكلبة قبل القريات .

٧ — وأخطأ ابن بطوطة فى حديثه عن العجم فى بلاد الصين حيث يقول: « وجميع أهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم فتعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل »(٣) ويقول المحقق : « هذا غير صحيح ، لاشك أن الفحم الحجرى اختلط فى ذهن ابن بطوطة بتراب الفخار » .

٨ — وأخطأ ابن بطوطة فى حديثه عن صيد اللؤلؤ إذ يقول : « ويتفاوتون فى الصبر فى الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين ، فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا فى الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها فى مخلاة جلد منوطة بعنقه ، فإذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل فيرفعه إلى القارب ، وتفتح الصدف فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر »(٤) . وقد أخطأ ابن بطوطة حين زعم أن اللؤلؤ يوجد على هيئة قطع لحم تجمد حين تباشر الهواء :

---

(١) الرحلة ص ٦٥٤ (٢) الرحلة ص ٧٤٢
(٣) الرحلة ص ٧١٩ (٤) الرحلة ص ٣٠٤

٩ — وأخطأ ابن بطوطة خطأ تاريخيا حيث يقول فى حديثه عن بغداد : « وبها المستعصم وعليه دخل التتر بغداد بالسيف ، وذبحوه ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة »(١) ومن الثابت أن التتر دخلوا بغداد سنة ست وخمسين وستمائة .

١٠ — وأخطأ ابن بطوطة فى حديثه عن ابن تيمية فقد زعم أنه حضر صلاة الجمعة بدمشق وسمع ابن تيمية ، وفى ذلك يقول : « وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا ، ونزل درجة من درج المنبر »(٢) ويعلق محقق الرحـــلة على إدعاء ابن بطوطة أنه حضر بدمشق صلاة الجمعة وسمع ابن تيمية بأن ابن تيمية اعتقل قبل وصول ابن بطوطة بشهر ويقول : « هذا محض إفتراء وكذب على الشيخ ، فقد اتفق المؤرخون على أنه اعتقل بقلعة دمشق لآخر مرة فى اليوم السادس من شعبان سنة ٧٢٦ هـ . وقد ذكر المؤلف فى الصفحة ١٠٢ من كتابه هذا أنه وصل دمشق فى التاسع من رمضان سنة ٧٢٦ هـ فيكون وصوله إلى دمشق بعد اعتقال الشيخ باثنين وثلاثين يوما ، فكيف يحضره ويسمعه ويراه ؟! .

١١ — وأخطأ ابن بطوطة خطأ يمس الأحكام الدينية إذ يقول : « فإذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعى بين الصفا والمروة »(٣) والمعروف أن السعى بين الصفا والمروة جزء من العمرة وليس خارجا عنها .

(١) الرحلة ص ٢٤٥ (٢) الرحلة ص ١١٠ بتصرف .
(٣) الرحلة ص ١٨٢ .

أخطاء لغوية

أخطأ ابن بطوطة أخطاء لغوية، وأريد أن أنبه إلى أنى لم أهتم كثيراً بالأخطاء التي يحتمل أن تكون أخطاء مطبعية، فقد أحصيت هذه الأخطاء ورجعت إلى طبعة أخرى فوجدت كثيراً من هذه الكلمات مكتوبة كتابة سليمة مما يدل على أن هذه الطبعة المحققة بها بعض الأخطاء المطبعية، ومن ذلك: «وثلث المدينة للملك الناصر، وثلثاه لملك البجاة»(١).

وفي طبعة أخرى (وثلثاها). ومنه قوله: «وصار كل من يسلك طريقه أن يحلق رأسه»(٢) وفي طبعة أخرى: «وصار كل من سلك طريقه يحلق رأسه»، وأيضاً قوله: «ثم بعث عنى ثانية»(٣)، وفي طبعة أخرى: «ثم بحث عنى ثانية»، وجاء قوله «يزوجها أولياؤها بمن يشاءوا»(٤) وفي طبعة أخرى: «بمن شاءوا».

وإنما نهتم هنا بالكلمات التي لا تحتمل الخطأ المطبعي ومن ذلك قوله :

١ — يقول: «ثم وصلنا إلى مدينة مصر»(٥) ويقصد القاهرة، ويقول: «ثم إلى مدينة بوش، ثم إلى مدينة منية القائد ثم إلى مصر»(٦) ويقصد القاهرة وشبيه بذلك قوله عن سراج الدين عمر المصري: «فمات بموضع يقال له: سويس، على مسيرة ثلاث من مصر»(٧) والسويس من مصر، فهي على مسيرة ثلاث من القاهرة.

---

(١) الرحلة ص ٦٩ .
(٢) الرحلة ص ٦٨
(٣) الرحلة ص ٦٠٤
(٤) الرحلة ص ٧٠٩
(٥) الرحلة ص ٥٣
(٦) الرحلة ص ٣٠٨
(٧) الرحلة ص ١٢٩

وإنصافا للحقيقة أقول : إني وجدت في معجم البلدان : « دمياط مدينة قديمة بين تنيس ومصر »(١) . وهي بين تنيس والقاهرة .

٢ — ويقول ابن بطوطة : وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرسون فنون العلم »(٢) . ويقول في مسجد دمشق : « ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم »(٣) فهو يخلط الفن بالعلم ، ويبدو أن بعض المؤلفين كانوا لا يفرقون بين الفن والعلم ، فقد قرأت في البداية والنهاية عن ابن تيمية : « وكان عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية ، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه »(٤) .

ويقول عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : «أمين هذه الأرض»(٥).

والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عنه : « أمين هذه الأمة » . وفرق بين الأمة والأرض .

ويستعمل ابن بطوطة لفظة الفرجة بمعنى المشاهدة الممتعة ، وهي لفظة عامية وليست فصيحة ، ومن قوله : « وهو مكان النزهة والتفرج ، وأهل مصر ذوو طرب وسرور ، شاهدت بها مرة فرجة »(٦) .

ويقول في حديثه عن الجنائز في دمشق : « فيقولون : افتكروا واعتبروا »(٧) ولفظ (افتكروا) عامي وليس فصيحا .

---

(١) معجم البلدان ٤٧٢/٢ - ياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) الرحلة ص ٦٢ . (٣) الرحلة ص ١٠٨

(٤) البداية والنهاية ١٣٧/١٤ - الحافظ بن كثير - دار الفكر العربي .

(٥) الرحلة ص ٨٠ . (٦) الرحلة ص ٥٣ .

(٧) الرحلة ص ١٢١ .

واستعمل ابن بطوطة لفظ (أولاد) بمعنى ذكور ، والصحيح أنه يشمل الذكور والإناث ، يقول ابن بطوطة : « إن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم »(١) .

ويستعمل ابن بطوطة عبارة (قاموا عليه) بمعنى ثاروا عليه ، وهو تعبير عامى ومن قوله : « فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن يأخذوا فيـلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان »(٢). والقاموس المحيط يقول : « قام الرجل وقام عليها مانها وقام بشأنها ، وقام أهله قام بشأنهم » .

ومن التعبيرات غير الفصيحة أيضا قوله : « جاء إلى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع »(٣) ، بمعنى أخذوا ينشدون ويسمعون ، وهو تعبير غير فصيح .

ومن تعبيراته غير المستساغة قوله : « هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الروضة العلية »(٤) .

وفى تحديده لأسماء البلاد يقول : « وسافرت من منية ابن الخطيب إلى مدينة منلوى »(٥) وهى مكتوبة على هذه الصورة فى نسخ أخرى ، والاسم الصحيح ملوى .

ويقول : « سافرت فى أرض رملة إلى مدينة دمياط ، والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال »(٦) . وقد رجعت إلى معجم البلدان فوجدت دمياط بالدال المكسورة فقط ، وربما كان نطقها بالذال المعجمة نطقا عاميا فى ذلك الوقت

---

(١) الرحلة ص ٧٢١ .
(٢) الرحلة ص ٥٥٩ .
(٣) الرحلة ص ٦٠١ .
(٤) الرحلة ص ١٩٨ .
(٥) الرحلة ص ٦٥ .
(٦) الرحلة ص ٤٨ .

ويقول ابن بطوطة : « فمن كان على الباطل بعثناه مثقفا إلى الحضرة »(١) بمعنى مقيدا ، ولا يوجد فى المعاجم هذا اللفظ بهذا المعنى .

ويقول : « وبها فيران ضخام أعظم من القطوط ، والقطوط تهرب منها »(٢) وجمع قط على قطوط خطأ ، وفى لسان العرب جمع قط بمعنى النصيب أو الكتاب ، والقطة والقط السنور ، والجمع قطاط وقططة » .

وفى حديثه عن الفترة التى فر فيها الملك الناصر من مصر إلى حصن الكرك يقول : « وكان الملك فى تلك المدة بيبرس الششنكير ، وهو أمير الطعام »(٣) وكتب التاريخ القديمة والحديثة تسميه (الجاشنكير) وهو أمير الطعام كما يقول ، وجاء فى صبح الأعشى : « الجاشنكير الذى يتصدى لذوقان المأكولات والمشروبات قبل السلطان ، جاشنا معناه الذوق فارسى ، كير المتعاطى »(٤) .

ويقول : « وأما الزوايا فكثيرة ، وهم يسمونها الخوانق ، واحدتها خانقة »(٥) ولا توجد كلمة خانقة بهذا المعنى .

الدقة فى ضبط الكلمات

يهتم ابن بطوطة بضبط الكلمات ، ولا نقصد ضبط آخرها لصحة الإعراب ولكننا نقصد أنه يهتم بضبط حروفها لتنطق الكلمات نطقا سليما ، ويسلك ابن بطوطة فى ذلك مسالك عديدة :

١ - يحدد الحروف المعجمة أو المهملة لأن الإعجام قد يخفى فى الكتابة ،

---

(١) الرحلة ص ٦٠١ (٢) الرحلة ص ٦٢٧

(٣) الرحلة ص ١٢٩ .

(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٣٢ - أحمد بن على القلقشندى - دار الكتب العلمية

(٥) الرحلة ص ٥٤ .

ومن ذلك قوله : « ثم سافرت من مدينة دمياط ، والناس يضبطون اسمها بإعجام الذال . وكذلك ضبطه الإمام أبو محمد عبد الله بن على الرشاطى ، وكان شرف الدين الإمام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى إمام المحدثين يضبطها بإهمال الدال »(١) .

٢ ـ وشبيه بهذا قوله : « ثم سافرنا إلى مدينة خنبج بضم الخاء المعجم ، وقد يعوض منه هاء »(٢) .

٣ ـ وقد يقرن الكلمة بكلمة مشهورة كما تفعل المعاجم ، ومن ذلك قوله « ثم مررت بحصن العليقة ، واسمه على لفظ واحدة العليق »(٣) .

٤ ـ وقد تكون الكلمة متداولة فى العالم العربى فيقرنها بكلمة متداولة وإن لم تكن عربية الأصل ، كقوله : « والمارنستار على مثل لفظ المارستان إلا أن نون متقدمة ، وراءه متأخرة ، وهو عندهم (عند الأتراك) شبه الزاوية عند المسلمين »(٤) .

٥ ـ وقد يوازن بين اسم المدينة واسم مدينة مشهورة ويبين الفرق بينهما كقوله : « وسافرت إلى مدينة أنطاليا ، وأما التى بالشام فهى أنطاكية على وزنها إلا أن الكاف عوض عن اللام »(٥) .

٦ ـ وقد يذكر وزن الكلمة ويذكر مصدرها كقوله : « ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية ، واسمها على مثال فاعلة من الكى »(٦) .

٧ ـ وقد يوضح الكلمة عن طريق النسب كقوله : « ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى ، كأنه منسوب إلى نيل مصر »(٧) .

---

(١) الرحلة ص ٤٨ .
(٢) الرحلة ص ٣٠٣ .
(٣) الرحلة ص ٩٣ .
(٤) الرحلة ص ٣٩٠ .
(٥) الرحلة ص ٣١٣ .
(٦) الرحلة ص ٢٤٠ .
(٧) الرحلة ص ٤٨٣ .

٨ — وقد تكون الكلمة غامضة الضبط ، فيوضحها بالإتيان بلفظ قريب منها ويتصرف فيه بحيث يقرب المراد من الأفهام ، ومن قوله فى حديثه عن جماعة الإخية : « واحد الإخية أخى على لفظ الأخ إذا أضافة المتكلم إلى نفسه »(١).

٩ — وفى حديثه عن مدينة أصفهان أورد طريقتين لنطق هذا الاسم حيث يقول : « مدينة أصفهان واسمها يقال بالفاء الخالصة ، ويقال بالفاء المعقودة المفخمة »(٢).

١٠ — وعرف بمدينة القطيف بالبحرين فذكر أنها مثل الاسم المصغر فقال : « ثم سافرنا إلى مدينة القطيف كأنه تصغير قطف »(٣) ولكن صاحب القاموس المحيط يقول: « وكشريف بلدة بالبحرين » ، وربما عرفها ابن بطوطة كما سمعها من العامة ، وقد تنطق العامة بها على هيئة الاسم المصغر.

التمييز بين المتشابهات والتفسير

يهتم ابن بطوطة بالتمييز بين المتشابهات فيفرق بينها ويوضح كلا منها ، كما أنه يهتم بتفسير الألفاظ التى قد تغمض على القارىء أو التى تحتاج إلى توضيح مدلولها لارتباطها ببيئة معينة أو بجماعة معينة.

ويبدو إهتمام ابن بطوطة بالتمييز بين المتشابهات فى تمييزه بين المراكب البحرية ، وبين العملات فى سائر البلاد ، وحديثه عن المراكب البحرية يورد أسماء عديدة لتلك المراكب ويلقى ضوءا على كثير منها ، وقد أورد أسماء عديدة وهى : العشاريات والصنبوق والحراقة والجلبة والقرقورة

(١) الرحلة ص ٣١٤

(٢) الرحلة ص ٢٢٠

(٣) الرحلة ص ٣٠٥.

والأهورة والعكيري والجنك والزو والككم والكندرة ، ومن قوله : « ثم ركبنا من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير »(١) ويقول : « ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنو بيين »(٢) ويقول : «وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالأهورة وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر ، وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج »(٣) . ويقول : « وبعث معنا ولده في مركب يسمى العكيري وهو شبه الغراب إلا أنه أوسع منه وفيه ستون مجذفا ، ويسقف حين القتال حتى لاينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة »(٤) . ويقول : « وبحر الصين لايسافر فيه إلا بمراكب الصين ، ولنذكر ترتيبها ، ومواكب الصين ثلاثة أصناف ، الكبار منها تسمى الجنوك ، واحدها جنك ، والمتوسطة تسمى الزو والصغار يسمى أحدها الككم، ويكون في المركب الكبير منها أثناعشر قلعا فما دونها إلى ثلاثة ، ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة »(٥) . ويقول : « ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن يخرج إليه الكنادر وهي القوارب الصغار ، واحـــدها كندرة»(٦).

ويفرق ابن بطوطة بين الدارهم والدنانير ويبين المعدن والوزن ، ومن قوله : « وأخبرني الثقاة أن ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم ، وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار »(٧) . ويعرف بالدراهم البغلية بأنها من فضة خالصة فيقول : « وهم رعية للملك الناصر يؤدون إليه مالا ودراهم

(١) الرحلة ص ٢١٠ .
(٢) الرحلة ص ٣١٢
(٣) الرحلة ص ٤٥٦ .
(٤) الرحلة ص ٦٣٢ .
(٥) الرحلة ص ٦٤٥ .
(٦) الرحلة ص ٦٥٧ .
(٧) الرحلة ص ٤٤ .

فضة خالصة تعرف بالبغلية »(١). ويعرف بالتنكة فيقول : « وأعطاه ثلثمائة تنكة من ذهب ، ووزن التنكة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار »(٢) ويقول : « فلما شرع الملك فى السفر بعث إلى الشريف خمسمائة دينار دراهم يصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون دينار »(٣) .

ويعرف بالدينار البربرة بأنه غير جيد ويقول : « وبعثت إلى فأعطتنى ثلثمائة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة ، وليس بالطيب ، وألفى درهم بندقية »(٤) . ويعرف بالكرور واللك فيقول « وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا بسبعة عشر كرورا ، والكرور مائة لك واللك مائة ألف دينار »(٥) وهكذا يذكر العملات ويوازن بينها .

أما إهتمام ابن بطوطة بالتفسير فإنما نعنى هنا إهتمامه بتفسير الكلمات العربية التى قد تخفى على بعض الناس لارتباطها ببيئة معينة أو بجماعة معينة ، أما تفسير الكلمات الأجنبية التى وردت فى الرحلة ، وهى كثيرة . فسنتحدث عنها فى موضع آخر إن شاء الله .

يبين ابن بطوطة سر تسمية بعض الأشخاص وبعض البلدان فيقول : « محمد بن الحسين بن عبد الله القرشى الزبيدى نسبة إلى قرية بساحل المهدية »(٦) ويقول : « ويقال فى مدينة حلب (حلب إبراهيم) لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها ، وكانت له الغنم الكثيرة ، وكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من ألبانها ، فكانوا يجتمعون ويسألون (حلب إبراهيم ؟) فسميت بذلك »(٧) ويفسر لفظا صوفيا يخفى

---

(١) الرحلة ص ٩١
(٢) الرحلة ص ١٤٥
(٣) الرحلة ص ٢٠٢
(٤) الرحلة ص ٣٩٢
(٥) الرحلة ص ٢٢٧
(٦) الرحلة ص ٣١
(٧) الرحلة ص ٨٨

على من لم ينخرط فى جماعة الصوفيين أو يقرأ عنهم فيقول : « وقعد مستندا إلى بعض سوارى المسجد ووضع رأسه على ركبتيه ، وذلك يسمى عند المتصوفة التزبيق »(١) .

ويبين لنا لم سميت عمرة رجب (العمرة الأكمية) ؟ . فيقول : « وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله ، وشاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع ، والمسجد الحرام يتلألأ نورا ، وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضى الله عنها ، والأصل فى هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب . وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها ، فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة »(٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن يوم الركبة بمصر وهو يوم الركوب لرؤية هلال رمضان فيقول : « حضرت مرة يوم الركبة ، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان ، وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى ، فإذا تكاملوا هنالك ركب القاضى وركب من معه ، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم فينزل فيه القاضى ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس »(٣) .

ومن تفسيره لبعض المصطلحات الشعبية تفسيره لاصطلاح (حاصل ماتم).

---

(١) الرحلة ص ٤٠ (٢) الرحلة ص ١٨٢ .

(٣) الرحلة ص ٤٦ بتصرف .

يقول عن مدينة أسيوط : « وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) . وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل ، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ماقدر له ، فكان القاضي إذا أتاه الفقير يقول له : «حاصل ماثم) أى لم يبق من المال الحاصل شىء ، فلقب بذلك ولزمه »(١) . وأعتقد أن المراد بتعبير (حاصل ماثم) نتيجة ماثم بعد بحث حالته .

وفى حديثه عن مكة يتحدث عن خروج الخطيب يوم الجمعة فيقول : « وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة »(٢) والفرقعة لفظة عربية تفيد الصوت العالى ، ولكنها هنا تطلق على مايشبه السوط ، ويفسرها ابن بطوطة فيقول « وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه » .

ألفاظ عامية

ويستعمل ابن بطوطة قليلا من الألفاظ العامية ، وبعضها محرف عن العربية الفصيحة وبعض هذه الكلمات مازال يستعمل فى بلادنا حتى الآن ، ومن هذه الكلمات الدست بمعنى الصحفة التى يؤكل فيها(٣) . وكلمة شكارة بمعنى كيس(٤) .

والفوانيس جمع فانوس(٥) . ودوارق جمع دورق(٦) . وبطة سمن(٧) للقدر الذى فيه السمن .

---

(١) الرحلة ص ٦٦
(٢) الرحلة ص ١٧٩
(٣) الرحلة ص ١٠٠ ، ١٩٠
(٤) الرحلة ص ٦٢٣
(٥) الرحلة ص ٤٦
(٦) الرحلة ص ١٥٩
(٧) الرحلة ص ٢٦٨

ويستعمل كلمات محرفة عن الفصيحة ، أولها صلة قوية بالفصيحة ، ومن ذلك قوله : « وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة »(١) والدبادب آلات تضرب فتصدر أصوتا عالية ، وجاء فى القاموس المحيط : « الدبدبة كل صوت كوقع الحوافر على الأرض الصلبة » . ويقول ابن بطوطة متحدثا عن أحد الأمراء : « فكان من أخذه الفرجيـــة التى أعطانيها ولى الله جلال الدين الشيرازى ماقد ذكرته »(٢) . والفرجية هنا شبه عباءة ، وهى فى الفصيحة فروج ، يقول صاحب لسان العرب : «الفروج بفتح الفاء القباء وقيل : قباء فيه شق من خلفه » .

ويورد لفظة (دبوقة) بمعنى ضفيرة(٣)، وهى كلمة مولدة ، يقول صاحب القاموس المحيط : « الدبوقة الشعر المضفور مولدة » .

ألفاظ عربية محورة معانيها

وفى رحلة ابن بطوطة ألفاظ عربية محورة معانيها فى بيئة معينة ، وهذا التحوير فى معظم الأحوال لا يبعد كثيرا عن معانيها الأصلية ، ومن ذلك إطلاق لفظ (البيت) بمعنى الحجرة كقوله : « وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيه نهارا »(٤) .

ويقول : « ثم رأينا رسم دار فيها بيت »(٥) . ويستعمل ابن بطوطة (أسبوعا) بمعنى سبعة فيقول : « ويطوف بالبيت أسبوعا والمؤذن الزمزمى فوق سطح قبة زمزم رافعا صوته بالثناء عليه »(٦) . وواضح أن المراد : يطوف سبع مرات .

---

(١) الرحلة ص ١٨٤
(٢) الرحلة ص ٧٢٩
(٣) الرحلة ص ٥٣٥ .
(٤) الرحلة ص ١٧٣ .
(٥) الرحلة ص ٤٥٧
(٦) الرحلة ص ١٨٦

ويستعمل لفظ (مصنع) بمعنى صهريج أو حوض ، ومن قوله : «ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع الماء ، وربما جفت فحفر عن الماء »(١) .

ويقول : « ولها حصن خرب بإزائه مصنع هائل ينزل إليه فى درج ، وبه من ماء المطر مايعم الركب »(٢) .

ويستعمل لفظا صوفيا هو (الخرقة) ويستعمل الصوفيون هذا اللفظ لثوب الصوفى يقول : « وصحبته ولبست منه خرقة التصوف »(٣) . ويقول صاحب القاموس المحيط : « الخرقة القطعة من الثوب ، والمعنى الصوفى قريب من هذا .

ويقول عن الصوفيين النازلين فى الخوانق : « يأخذ كل فقـــير جزءا ويختمون القرآن ويذكرون »(٤) والذكر ذكر الله تعالى والمقصود هنا إتيان الصوفية بحركات معينة يتمايلون فيها وينشدون أناشيدهم الدينية .

ويذكر أنهم يطلقون لفظ (الفتحة) على الخاتم ، يقول : « ثم أمسك أصبعى بيده وقال : أين الفتحة ؟ . وهو الخاتم »(٥) وهذا إطلاق غير بعيد المدلول وهو من إطلاق الجزء على الكل .

ووردت لفظة (الحرافيش) وهى اسم لجماعة أهل صلابة ودعارة كما يقول ابن بطوطة(٦) وهى كلمة محرفة حيث يقـــول لسان العرب : « من الأفاعى الحرفش والحرافش ، واحرنفش الديك تهيأ للقتال وأقام ريش عنقه ، وكذلك الرجل إذا تهيأ للقتال والشر » فالموجود فى العربية حرفش وحرامش حرف إلى حرفوش وجمعها حرافيش .

---

(١) الرحلة ص ١٩١
(٢) الرحلة ص ١٩٢
(٣) الرحلة ص ٧٨
(٤) الرحلة ص ٥٤
(٥) الرحلة ص ٦٧
(٦) الرحلة ص ٥٩

ومن الاستعمالات الشائعة الرواق للمبنى الذى يقيم فيه الفقراء والطلبة، يقول ابن بطوطة: «ووصلنا فى ظهر يوم الثانى إلى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء»(١). ويقـــول صاحب القاموس المحيط: «الرواق الشقة التى دون الشقة العليا»، وعلى هذا يكون الاستعمال الشائع غير بعيد.

ألفاظ عربية موهمة

ونريد أن ننبه إلى بعض ألفاظ فصيحة، ولكن القارىء ربما توهم أنها عامية لدورانها على ألسنة العامة. ومنها (التوسيط والمصران)، يقول ابن بطوطة متحدثا عن شدة الأمير سندمور أمير مدينة حلب: «إن امرأة شكت إليه بأن أحد ممالكه الخواص تعدى عليها فى لبن كانت تبيعه فشربه ولم تكن لها بنية فأمر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه»(٢) وجاء فى لسان العرب: «التوسيط أن يجعل الشيء فى الوسط، والتوسيط قطع الشيء نصفين».

وجاء فى لسان العرب أيضا: «المصير المعى، والجمع أمصر ومصران مثل: رغيف ورغفان، ومصارين جمع الجمع عند سيبويه».

ومنها لفظ (عدل دقيق) يقول ابن بطوطة: «أمر الشريف أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيق وهى نصف حمـــل»(٣). وجاء فى لسان العرب: «العدل نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير، أو اسم حمل معدول يحمل أى يسوى به».

ويقول ابن بطوطة: «ومن عوائده أن يستند كل يوم جمعة بعد صلاته

---

(١) الرحلة ص ٢١٤ (٢) الرحلة ص ٨٤.
(٣) الرحلة ص ٢٦٨.

إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة »(١) ويقول صاحب القاموس المحيط :« الأسطوانة السارية والجمع أساطين » .

وفى حديثه عن مكة يورد لفظ (الفرسك) ويقول : « وهو الخوخ »(٢) وهى عربية كما يقول القاموس المحيط .

أما الكاغد فقد اختلفت المعاجم فيه، فالقاموس المحيط يقول : الكاغد القرطاس ، والمعجم الوسيط يقول : « الكاغد القرطاس . معرب » .

---

(١) الرحلة ص ٣٣

(٢) الرحلة ص ١٧٣

الكلمات الأجنبية

ورحلة ابن بطوطة حافلة بالألفاظ الأجنبية التى التقطها من مختلف البلدان التى زارها ، ولابد أنه كان يسجل هذه الألفاظ ويسجل معانيها ، وقد اختلفت فترات إقامته فى تلك البلاد وكان يقابل أشخاصا يعرفون اللغة العربية كما كان هناك مترجمون يترجمون ما يدور بينه وبين الرؤساء ، وكان ابن بطوطة طلعة يسأل عن معانى بعض الكلمات ، ولكننا نقول : إنه من المستبعد أن تعى ذاكرته كل هذه الألفاظ من مختلف اللغات ، ولابد أنه كان يدونها ، أورد ابن بطوطة هذه الألفاظ وأورد معانيها فى معظم الأحوال ، ونادرا ما كان يورد لفظا أجنبيا ولا يذكر معناه ، وبذلك حصلنا على ثروة عظيمة من هذه الألفاظ الأجنبية من مختلف اللغات وعرفنا معانيها .

وسنورد هذه الألفاظ ونورد معانيها ، ورأيت أن أورد اللفظ الأجنبى أولا وأقرن به معناه فى العربية ، ورأيت أن أرتب هذه الألفاظ الأجنبية ترتيبا أبجديا على حروف الأبجدية العربية لأنها مكتوبة باللغة العربية ، وعندما ترد جملة أضعها فى موضعها بحسب الكلمة الأولى ، وسأذكر البلد الذى يستعمل هذه اللفظة وهاهى ذى تلك الألفاظ :

رقم الصفحة في الرحلة	الكلمة ومعناها	اسم البلد
٤٣٨	آب : الماء	آسيا الوسطى
٣٧٨	آطا : الأب	تركيا
٤١٣	آل : أحمر	آسيا الوسطى . نخشب
٥٢٣	آمدى كزو برى بادكرى صـــنم خرى زرنبرى وسرنبى ـ معناه : جئت لتحمل الذهب تأكله مع الصور الحسان فلا تحمل ذهبا ورأسك تخلية هنا	الهند
٥٩٧	الأبدارية : السقاءون	الهند
٢١٥	أتابك : لقب لكل ملك يلي البلاد . وقال القلقشندى : أتابك معناه الوليد الأمير ، وقيل : أبو الأمراء ، وهو المقدم بعد النائب الكامل(١) .	فارس
٣٧١	أرد : المحلة	شرق أوربا
٤٠٣	الأرغجية : كبار أمراء الترك يتحاكون إليهم	تركيا
٧٣١	الأصباهية : الرماة	الصين
٦٧٤	الأطوان : عسل النارجيل	الهند
٣٢٤	أغا : الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك	آسيا الصغرى
٣١٨	أغاج : الخشب	آسيا الصغرى
٤١٤	أغلى : لقب من كان من أبناء الملوك	آسيا الوسطى
٥٤٨	أكرباز آمدى باز : إن كنت تبت فارجع	الهند
٣٦٣	ألقشى : راعى الخيل .	شرق أوربا

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ـ دار الكتب العلمية .

تابع الموضوع

٤٦٦	أنار : الرمان .	الهند
٤٧٩	الأنبارات : مخازن الطعام	الهند
٤٦٥	الأنكور : العنب .	الهند
٤٥٦	الأهورة : سفينة واسعة	الهند
٣٦٩	أولو خاتون : الوزيرة .	شرق أوربا
٥٩٢	أومار : عمى .	الهند
٣٧٢	إيت : الكلب .	شرق أوربا
٣٤٠	إيشان عربى كهناميقوان ومن عربى نو ميدانم المعنى : إيشان هؤلاء ، كهنا قديم ، ميقوان يقولون ، من: أنا ، نو جديد ، ميدانم : تعرف . والمراد . هؤلاء يتكلمون بالعربى القديم وأنا لا أعرف إلا العربى الجديد .	فارسى

٣٧٧	البارك : بيت عظيم يشبه الخيمة	شرق أوربا والهند
٣٧٧	الباروجى : مقطع اللحم .	شرق أوربا
٧١٩	بالشت : خمس وعشرون ورقة من العملة	الصين
٥٩٣	بايل ورارى : ارفع الخلخال ، بايل الخلخال	الهند
٦١٣	باين : متسعة مطوية بالحجارة .	الهند
٧١٥	بتك كاتور : الكاغد	جاوة
٢٢٥	بحق : سكين	تركيا
٧١٥	بخشى : القاضى	جاوة
٣٤٤	بخيرى : مبخرة ، والجمع بخارى .	تركيا
٤٨٠	بدخانة : بيت الأصنام	الهند

(تابع)

٤١٣	براى خداو براى طرمشيرين : الصلاة لله أو لطرمشيرين ؟ .	آسيا الوسطى نخشب
٣٩٢	بربرة : دينار ردىء .	تركيا
٦٧	البربى : مبنى بالحجارة فى داخله نقوش وكتابة للأوائل ، ويبدو أنها فرعونية	مصر
٧٣٤	البرد دارية : حفاظ باب القصر	الصين
٧١٩	بركالة : قطعة من الذهب أو الفضة .	الصين
٦٣٤	البرهمن : الجوكى .	الهند
٥٢٢	بروهمـــين زمان در خزانة ، يك لك تنكة زر بكزى أو بيسن أو بيرى تادل أو خسن شود . معناه : امسن الساعة إلى الخزانة وخذ منها مائة ألف تنكة من الذهب واحملها إليه حتى يبقى خاطره طيبا .	الهند
٥٨٦	برو ويكجا بخصبى وآن حكاية براوبكوى وتفهيم كنى تافردا إن شاءالله ، بيسن من بيابى جواب أوبكرى ، معناه: امسوا الليلة فارقدوا فى موضع واحد ، وفهمه هذه الحكاية ، فإذا كان بالغد إن شاء الله تجىء إلى وتعلمنى بكلامه .	الهند
٤١٦	بريدا . المقطوع	آسيا الوسطى
٦٥٨	بستو : مائة ألف ودعة .	الهند
٦٥٩	البسدرد : قلائد ذهب	الهند
٣٦٦	بش دغ : الجبال الخمسة، بسن خمسة، دغ الجبل.	شرق أوربا
٦٣٤	البشكال : المطر	الهند

(تابع)

٧٢٦	البصوانان : عبيد السلطان من حراس المدينة	الصين
٣٦٥	البغطاق : غطاء للرأس مرصع بالجواهر وفى أعلاه ريش .	شرق أوربا
٧٠٧	البقشة : منديل يوضع على الرأس .	جاوة
٣٧٢	بك : الأمير .	شرق أوربا
٤٣٨	بنج آب : الأودية الخمسة .	آسيا الوسطى
٥٩٦	بنجاه هزار : خمسون ألفا .	الهند
٦٥٧	البندر . المخزن .	الهند
٧١٥	بواقيل : جمع بوقال وهو الكوز ، رومى	جاوه
٧٠٧	بوالشت : مخاد (جمع مخدة) .	جاوه
٥٠٥	بورة : الأسود .	الهند
٣٥٩	بورخانى : كعك يصب عليه اللبن الرائب .	شرق أوربا
٧٣٣	البيادة : الرجالة .	الصين
٣١٥	البياسيس : جمع بيسوس شبه المنارة من النحاس	آسيا الصغرى

٥٠٤	تتو : البرذون	الهند
٣٧٧	التخت : السرير الأعظم .	شرق أوربا
٤٨٩	تركاء : لفظة تعبر عن الاحتقار .	الهند
٣٥٦	الترك : أرواث البهائم .	شرق أوربا
٧٣٤	التغدارية : أصحاب السيوف والتروس .	الصين
٢٥١	تماق : كيس .	فارسى
١٢١	التنبول : شجر له معرشات كالعنب ولا ثمر له ، والمقصود ورقه ، وتجنى أوراقه كل يوم ،	

(تابع)

	ويؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب ،	
	ثم يأخذ الشخص ورقة التنبول فيجعل عليها	الهند
	شيئاً من النورة(١) ويمضغها مع الفوفل ،	واليمن
	وخاصية أنه يطيب النكهة ويهضم الطعام .	
٥٩٧	التنبول دارية : الذين يعطون التنبول .	الهند
٧١٥	تنضري نام : اسم الله .	جاوة
١٤٥	تنكة . عملة ذهبية وزنها دينار ان ونصف دينار من دنانير المغرب .	الهند
٧٧٩	توري : السنيون المالكيون .	السودان
١٢٩	الجاشنكير (ويكتبها ابن بطوطة الششنكير) وهو كما يقول ابن بطوطة : أمير الطعام ، ويقول القلقشندي : هو الذي يتصدى لذوقان المأكول والمشروب قبل السلطان جاشنا معناه الذوق ، كير المتعاطي(٢) .	فارس ومصر والشام
٧٨٧	جالي : الشاعر ، والجمع جلا .	مالي
٥٩٠	جامداد : الذي يشرد الذباب عن الملك .	الهند
٣٧٣	جان : الروح .	شرق أوربا
٥٩٣	جداري درآن طبقها ؟ . حلوا است ؟ : ما معك في تلك الأطباق ؟ . حلواء هي ؟ .	الهند
٣١٥	الجراجي : عامل مخصص لإصلاح الفتيل .	آسيا الصغرى
٤٦٦	جل : الزهر ، ومنه جلنار .	فارس

(١) النورة حصاة تدق وتخلط بالتنبول وتستعمل في أغراض أخرى .

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٣٢ ـ القلقشندي ـ دار الكتب العلمية .

(تابع)

٣١٨	جلبى : سيدى .	رومى
٤٧٠	الجلجلان : السمسم .	الهند
٢٢٧	الجنادرة : رجال الشرطة .	فارس
٦٤٥	الجنك : المركب الكبير .	الصين
٤٧٢	جهان : الدنيا .	الهند
٧١٢	جوزبوا : جوزة الطيب .	جاوه
٥٧٩	جوطرى : لقب كل شيخ من كفار بلاد الهند يتولى إدارة مائة قرية	الهند
٣٣٨	جوق : الصغير	تركيا
٦١٥	جيكس ؟ من أنت ؟	الهند
٧١٥	حسن مسن يخشى مسن ؟ كيف حالك ؟ كيف أنت ؟	تركيا
٢٣٢	الخاتون : زوجة الملك(١)	فارس
٧٠	الخان . الفندق	فى جميع البلاد .
٢٠١	الخان : أعظم الأمراء	الهند والصين وآسيا الصغرى
٧٨	الخانقاه : مبنى كالزاوية يتجمع به الفقراء	فى جميع البلاد
٢٢٤	خداد : عطية الله	فارس
٢٤٦	خذا بنده : عبد الله ، خذا الله ، بنده : غلام أو عبد	فارس

(١) يقول د . حسين مؤنس : « والخاتون هو اللفظ الذى حرف إلى خانوم فى الشام ، وهانم فى مصر » . ابن بطوطة ورحلاته ص ١٢٧ .

(تابع)

(تابع)

٤٤٨	الدواة : ثلث ميل	الهند
٥٩٠	الدوادوية : الذين يحملون المشاعل بالليل ويمشون بين يدى الشخص	الهند
٥٩	الدودار : قال القلقشندى : هو الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ويقدم القصص إليه والمشاور على من يحضر إلى الباب ، ويقدم البريد(١)	مصر
٧٣١	دودكاران : العمال	الصين
٦٩٧	دوزخست بور نعمة . جهنم ملأى بالنعم	البنغال
٥٧٧	ديبول : زهر أبيض	الهند
٥٩٦	ديكر غاند ؟ : هل بقى لك كلام ؟	الهند
٥٩٦	ديكر هست : لاتأخذ الدين لئلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلى	الهند

٥٥٠	رأى : السلطان	الهند والروم
٣٤٣	رغان : السمر	آسيا الصغرى
٦٦٧	رمكة : أنثى الحصان	الهند
٤٧٠	روغن كنجت : زيت الجلجلان وهو السمسم	الهند
٣١٥	الزوردخانى : قماش تصنع منه القلنسوات	آسيا الصغرى
٤٥٣	زرد شوبه : العود الأصفر (الكركم)	الهند
٥٩٨	الزلة : نصف رأس غنم	الهند
٦٤٥	الزو : المركب المتوسط	الصين

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩

(تابع)

٥٧٤	السبك : مرافع من الذهب توضع عليها القلال	الهند
٧١٩	الستى : من يملك خمس عشرة قطعة من الذهب أو الفضة	الصين
٥٩٠	سراجة : خيمة	الهند
٣٨٦	سراكنو : المسلمون	تركيا
٤٤٨	سرتيز : الحاد الرأس، سر الرأس، تيز الحاد	الهند
٥٧٥	سرششتى : لغسل رأسك ، أى هبة	الهند
٢٥١	سريانة : شبه الطبلة	فارس
٤٠٣	السقنقور : دويبة	الهند
٥٩٧	السلاحدارية : الذين يتولون أمر السلاح	الهند وغيرها
٣٦٢	سموسك : لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز	الهند
٢١٦	سن أطا : أنت أبى	تركيا
٤٣٦	سيصد : ثلثمائة	فارس
٥٧٤	السين قلال من الذهب ، جمع قلة	الهند

١١٦	شاذروان : ماسورة	الشام
١٧٤	شاة : ملك	الهند وفارس
٥٢٠	الشربرارية : السقاة	الهند
٥٩٧	الشطردارية : الذين يحملون الشطرنج	الهند
٥٢٢	شنيدم زحمت دارد : سمعت أن به مرضا	الهند
٢٤٦	الشيارة : الحراقة وهى سفينة	فارس
٤٢٢	الشيرج : زيت السمسم	آسيا الوسطى
٤٣٥	شيرسياه : الأسد الأسود	خراسان

(تابع)

٢٩٣	شيرماهى : سمك يقال له : أسد السمك ، شير الأسد ، فاهى السمك	فارس وعمان
٤٣٦	صالة : عام	فارس
٥٧٩	الصدى : مائة قرية	الهند
٧٧٩	صغنغو : الذين يذهبون مذهب الإباضية	السودان
٥٥٦	الصك : الكاتب	الهند
٢١٠	صنبوق : قارب صغير	العراق والجزيرة العربية
٣٧٩	صوم : سبائك الفضة واحدتها صومة	تركيا
٥٣٣	صيوان : خيمة كبيرة	الهند
٣٥١	طارمة : غرفة بالمركب	تركيا
٦٣٥	الطالم : طبق نحاس	الهند
٥١٣	الطبرزين : شبه الفأس	الهند
٨٤	الطبلخانة : طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص(١).	مصر والشام وغيرها
٥٩٧	الطشت دارية : الذين يحملون الطشت للسلطان	الهند
٤١٣	طمغى : العلامة	آسيا الوسطى
٣٩٤	الطون طاش : قصر السلطان، والطون الذهب طاش : حجر	تركيا

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٧

(تابع)

٤١٥	الطوى : يوم الضيافة	آسيا الوسطى
٢١٦	طيفور : طبق	فارس

٥٨٨	عرض داشت : غرض حال	الهند
٦٣٢	العكبرى : مركب	الهند
٥٩٦	عمارة كنبد : عمروها	الهند
٥١٥	الغاشية : ستارة السرج ، وقال القلقشندى : الغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يدى الملك عند الركوب	الهند
٥٩٦	غلة بديه : مائة ألف من المغلة	الهند

٢٩٠	الفازانية : خدام النخل	ظفار
٦٥٨	الفال : سبعمائة ودعة	الهند
٦٦٢	الفاملدارى : صاحب الديوان	الهند
٦٦٢	فتنايك : الحاكم	الهند
٣٢٨	فرشتى : الملك	آسيا الصغرى
٦٦٢	فنديار قالو : القاضى	الهند
١٧٦	الفوفل : شبه جوز الطيب يكسر ويجعله الشخص فى فمه ويعلكه، ثم يأخذ ورق التنبول ويجعل عايه شيئا من النورة ويمضغها مع الفوفل	الجزيرة العربية والهند

(تابع)

٢٤٦	قازغان : القدر	فارس
٧٨٨	قاسا : الملكة	مالى
٣٧٥	القاقم : أحسن أنواع الفراء	شرق أوربا
٧٣٤	القان : اسم لكل من يلى الملك	الصين
٦٢١	القتاورة : حديدة شبه سكة الحرث ، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين ضربتها لا تبقى	الهند
٣١٨	قرا : الأسود	آسيا الصغرى
٣١٢	قرقورة : مركب	الشام
٤٠٢	قطلو : المبارك	تركيا
٤١٢	قطلو يوسن : مبارك قدومك	تركيا
٦٦٦	قل أستان : زهر البستان	الهند
٥٢٦	قلج تحار : جردوا السيوف	الهند
٥٧٧	قل شبه : زهر أصفر	الهند
٣٥٩	القمز : لبن الخل	شرق أوربا
٦٥٨	القنبر : ليف جوز النارجيل	الهند
٥٥٥	قيران : مرتب العساكر	الهند

٣٧١	كبك خاتون : النخالة	تركيا
٢٣١	الكت : السرير	فارس والهند
٦٩٠	الكتكر : سور من خشب	بلاد المعبر
٧٣٤	الكتوال : أمين البوابين	الصين
٦٥٨	البكتى اثنا عشر ألف ودعة	الهند
٣٧٢	كججك : الصغير	شرق أوربا

(تابع)

٣٦٩	كجك خاتون : حاجبة السلطان	شرق أوربا
٥٦٥	كر : الأطرش	الهند
٢٨٦	الكرانى : كاتب المركب	ظفار
٤١٦	كردن : العنق	آسيا الوسطى
٦٥٤	الكردوى : الوالى على إقليم	الهند
٤٧٢	كرك : الذئب	الهند
٥٧٩	كروة : الميل	الهند
٤٧١	كسناى : اسم الله	الهند
٥٠٦	الكشك : القصر	الهند
٥٣٢	كشك لعل : القصر الأحمر	الهند
٦٢٣	كفتار : ساحرة	الهند
٦٤٥	الككم : المركب الصغير	الصين
٢٢٤	الكلا : الشاشية (قلنسوة للرأس)	فارس
٦٣٠	كلاه نور : خياط الشواشى	الهند
٦٦٢	كالكى : الوزير الأكبر النائب عن السلطان	الهند
٢٢٠	الكلو : كبير الصناع	فارس
٥٠٢	الكلوانى : راعى الخيل	الهند
٤٠٣	الكليجا : خبز معجون بالسمن	تركى
٦٥٧	الكندرة : القارب الصغير ، والجمع كنادر	الهند
٥٩٠	الكهارين : الذين يحملون أوانى المطبخ	الهند
٢٤٠	كهنا : قديم	آسيا الصغرى
٣٢٦	كوخك : الصغير	تركيا
٦٧٤	الكودة : الودع	الهند
٢٣٣	الكوشال : الإدام	فارس

(تابع)

٦٣٦	الكوشان : اللبن الرائب	الهند
٧١٧	كوه بوزنه : جبل القرود	الصين
٧٨٤	كى : وحياة ، منسى سليمان كى : وحياة السلطان سليمان	مالى
٥٩٠	الكيوانية : رجال يحملون عمد الخيمة	الهند
٦٠١	اللاشة : الحمير	الهند
٦٦٦	لقشة : منديل كبير يلف فيه	الهند
٣٠٢	اللك : الأقطع	فارس
٤٥٣	اللك : مائة ألف دينار	الهند
٢٢٠	الماس : اللبن	فارس
٦٦٢	مافا كاوا : صاحب الأشغال	الهند
٦٥٦	المالم : بيت فى وسط الدار يجلس الرجل به مع أصحابه	الهند
٦٦٢	مانايك : قائد البحر	الهند
٣٩٠	المانستار : شبه الزاوية عند النصارى	تركيا
٤٩٦	الماه : القمر	الهند
٤٧١	ماواميتراساني أزاطش من ميدانم أواطش است رها كنى مارا : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة	الهند
٥٨٤	مجاشر : مزارع	الهند
٢٩٦	المروارى : الموز	ظفار

(تابع)

٢٩٦	المرواري : الجوهر	فارس
٤٥٣	المشنك : طعام مصنوع من نباتات	الهند
٢٩١	المشور : بهو القصر	ظفار والهند
٧٨١	منسى : السلطان	مالي
٧٨٨	منشاجو : المشرف	مالي
٣٤٠	من عربي نوميدانم : من : أنا ، نو : جديد ، ميدانم : أعرف ، والمعنى : أنا لا أعرف إلا العربي الجديد	تركيا
٢٣١	مورة : متكأ	فارس
٥٣٦	موش خوار : آكل الفيران	الهند
٤١٢	ميسن : أنت	تركيا
٣٤٠	ميقوران : يقولون	آسيا الصغرى

٤٦٦	نار : الرمان	فارس
٢٢٠	نان : خبز	فارس
٣٩٢	النجشي كفالى القاضى	تركيا
٣٨٤	النخ : حلة	تركيا
١٧٤	النقرة : درهم (أن يكون ثلثا الدرهم من فضة وثلثه من نحاس)(١) .	الهند
٤١٣	نماز : الصلاة	آسيا الوسطى
٤٥٧	نم ده يك : نصف العشر	الهند
٣١٢	نوال : أجرة ، ويبدو أنها أصل (ناولون)	

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ .

(تابع)

	ضريبة الشحن	الشام وتركيا
٥١٧	النيزه : الرمح	الهند
٧٣٤	النيزدارية : أصحاب الرماح	الصين
٥١٢	هزار أسطون : ألف سارية	الهند
٢٢٤	هزر مينحى : جبة بيضاء	تركيا
٤٨٠	هفت جوش : سبعة معادن	الهند
٤٣٥	هندوكوش : اسم جبل معناه : قاتل الهنود	خراسان
٦٦٣	هند بجرى : الخطيب	الهند

٧٩٧	وجين : الذئب	السودان
٦٩١	وزن أو وبسر أو : وابنه وزوجته	بلاد المعبر
٣٩٥	الوصو : الماء الكثير	تركيا
٣٧٧	الوطاق : أفراج أى متسع	شرق أوربا
٤٤٨	الولاق : بريد الخيل	الهند
٧٧٩	ونجراته : التجار	السودان

٣٣٦	يخشى : جيد	تركيا
٤١٢	يخش ميسن : جيد أنت	تركيا
٥٠٣	اليراق : تضمير الخيل	الهند
٤١٥	اليساق : كتاب فى القانون ألفه جنكيز خان	الصين
٦٥٨	يسياه : مائة ودعة	الهند
٨٠٠	الىناطبين : الوصفاء	تونس

(تابع)

٤١٣	يوسن : قدومك	تركيا

هذه هى الألفاظ الأجنبية التى وردت فى رحلة ابن بطوطة ، ومعانيها .
واللغات تتطور ، ويمكن الاستفادة بهذه الألفاظ فى دراسة تطور اللغات فى هذه المنطقة .

خاتمـــــة

رحلة ابن بطوطة من أهم الرحلات فى العالم الإسلامى ، وقد استغرقت تسعة وعشرين عاما ، ثم إنها شملت بلاد عديدة ومناطق شاسعة فى إفريقية وآسيا وأوربا ، ولا تقتصر أهمية الرحلة على طول المدة واتساع الرقعة وإنما تمتد إلى مضمون الرحلة واتساع نظرة ابن بطوطة وعمقها إذ صور لنا مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ، وصور مشاعره ومشاعر المجتمعات فى مختلف بلاد العالم الإسلامى .

صور ابن بطوطة الصراعات السياسية بين البلدان المتجاورة والدويلات المتنافسة وكيف أدى هذا التنافس إلى قيام الحروب العديدة وإراقة الدماء فى سبيل تحقيق هذه المطامع .

وكان بعض الحكام يهتمون بالنظر فى المظالم كما رأينا من الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، ولكن هذا لم يمنع الحاكم من الاستبداد برأيه والتسلط على الامة وبث المؤامرات حتى إنه كان يتسلط على الخليفة العباسى فى القاهرة حيث نفاه إلى أقاصى الصعيد حين غضب عليه .

وصورت رحلة ابن بطوطة مكانة مصر فى العالم الإسلامى وامتداد نفوذها فقد كان الملك الناصر يحكم مصر والشام ، وكان نفوذه مبسوطا على الأراضى الحجازية وكانت اليمن والهند وشمال أفريقية تتودد إليه وتطلب صداقته وكان النـــاصر يبسط سلطانه عن طريق السياسة الحكيمة وعن طريق القوة العسكرية تساندها النفقات السخية ، وأحيانا عن طريق الدسائس والمؤامرات .

ومع هزيمة التتار فى معركة عين جالوت ، ودخول كثير منهم فى الإسلام

فقد صورت رحلة ابن بطوطة بقايا مخاطر التتار واستمرار النزاعات والحروب بينهم وبين حكام مصر والشام على وجه الخصوص .

وتحدثت رحلة ابن بطوطة عن قطاع الطرق فى البر والبحر ، وتحدثت عن بعض الجماعات التى كانت تتمتع بشىء من النفوذ السياسى وتلجأ إلى القوة أحيانا وعلى رأس هذه الجماعات طائفة الإسماعيلية الفداوية وكان مقرها فى الشام وكانت تلجأ إلى السلاح وتغتال الزعماء فى سبيل المال ، وفى مصر كان البجاة يتقاسمون السيطرة على ميناء عيذاب مع السلطات المصرية ويتقاسمون الأموال معها ، وكانوا يلجئون إلى السلاح ويحاربون قوات الحكومة فى بعض الأحيان ، وكانت جماعة الحرافيش فى مصر وسورية تتمتع ببعض النفوذ وكانوا يثورون على السلطان أحيانا ويجبرونه على تنفيذ بعض مآربهم .

وكانت هناك صراعات دينية ومذهبية تسببت فى إثارة القلاقل وإسالة الدماء فقد حدثت مصادمات دامية بين المسلمين والمسيحيين ، وبين حكام المسلمين وحكام الروم ، وكانت الحروب قائمة بين العرب والإسبان فى الأندلس ، كما كانت هناك صراعات بين المسلمين وكفار الهنود ، وكان القتال يثور أحيانا بين طوائف المسلمين بسبب الاختلافات المذهبية كالاختلاف بين الشيعة أنفسهم ، والاختلاف بين الروافض وأهل السنة ، وكان الروافض يرمون إلى إقامة خليفة يتبع مذهبهم ولجئوا إلى السلاح ولكنهم لم ينجحوا فى تحقيق هدفهم ، وعلى الرغم من هذه الصراعات فإن الشعوب الإسلامية كانت تحن إلى الترابط وتستطلع أخبار الأقاليم الأخرى ، وتهفو إلى الأماكن المقدسة ، وقد لاقى ابن بطوطة ترحيبا فى مختلف البلاد التى زارها .

وصور ابن بطوطة مظاهر الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى وتحدث عن الطبقات الاجتماعية وتفاوتها ، وكان بعض الموسرين يعطفون على الفقراء

وكانت الزوايا تؤى كثيرين منهم ، وهناك جماعة الإخية يقدمون لزعيمهم ما يربحون وينفق هذا المال على الفقراء والمسافرين النازلين عليهم ، وكانت الأوقاف تقوم بدور بارز فى مساعدة المحتاجين ، واستمرأ بعض الفقراء حياة البطالة ، ورأى ابن بطوطة بعض الفقراء يحملون ذوى اليسار ويحملون أمتعتهم .

وانتشرت فى بلاد العالم الإسلامى جماعات المتصوفين وآمن الناس بهم وبكراماتهم حتى اعتقدوا أن مصائر الأمور بأيديهم ، وألف فقراء المتصوفين حياة الزوايا وحلقات الذكر وادعوا قدرة رؤسائهم على صنع الخوارق .

وصور ابن بطوطة مظاهر الحياة الاقتصادية وتحدث عن أبرز الموانىء فى العالم الإسلامى وأشهر الصناعات والزراعات فى كل بلد ، وتحدث عن المراكز التجارية وعن مختلف العملات ، وهى الدرهم والدينار وإلى جانبهما تعامل الناس بالودع وبالملح وتبادل السلع ، وتحدث عن الأموال المحصلة من الضرائب والزكاة والجزية والخراج .

وصور ابن بطوطة مظاهر الحياة العلمية ، ودل حديثه على انتشار الأمية فى العالم الإسلامى ، ودل حديثه على إحترام الحكام للعلماء والقضاة وتقديرهم ومكافأتهم وإحترام الشعب أيضا لهم ، وكانت المساجد تقوم بدور مهم فى نشر العلم كما كانت هناك مدارس منتشرة فى مختلف البلاد ، وكان الاهتمام الأول بالعلوم الدينية ، وإلى جانبها كانت هناك العلوم الإنسانية والدفاية ، وألفت بعض الكتب الهامة ، وبرزت قلة من النساء العالمات تحدث عنهن ابن بطوطة وأورد أسماءهن ، أما الحياة الأدبية فلم يؤلها ابن بطوطة اهتماما كبيرا وأورد قليلا من الأشعار العربية والتركية والفارسية .

وكان ابن بطوطة يحترم المرأة وأظهر الإعجاب بجمالها وأشاد بأخلاقها فى كل مكان ، ووصف حجابها وملابسها ، ووصف عرى بعض النساء فى

الهند وفى مالى . كما تحدث عن بعض عادات النساء كإحراق المرأة نفسها فى الهند حزنا على زوجها ، وتحدث عن الجوارى وكثرتهن وعمل بعضهن فى الغناء والرقص والخدمة ، وتحدث عن الراهبات فى الكنائس وفى الأديرة ، أما اعتلاء النساء حكم البلاد فكان نادرا وفى ظروف خاصة .

وكان ابن بطوطة متيقظ الحس دقيق الملاحظة مولعا بالوصف فوصف كثيرا من البلدان مثل القاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب ومكة والمدينة المنورة ودهلى ، كما صور كثيرا من المشاهد البارزة كالأهرام ومشهد الإمام على بالنجف والكعبة المشرفة وقبر النبى عليه السلام ، وصور ما كتب على كسوة الكعبة وعلى بعض المشاهد .

ولم يغفل ابن بطوطة وصف ملابس الشعوب ووصف أطعمتها وطرق تداويها ، ووصف عادات الشعوب فى الجنائز وعند زيارة المقابر ، وتحدث عن وسائل النقل ، وهكذا رسم صورة شاملة للحياة الاجتماعية .

وأعطانا ابن بطوطة صورة واضحة للحياة الدينية ، وكان ابن بطوطة رجلا متدينا فصور المشاهد الدينية ووصف مشاعره نحوها ، ووصف مظاهر الاحتفالات بالأعياد الدينية ولجوء الشعوب إلى التضرع إلى الله فى الشدائد والنكبات ، وزار الزوايا ومجالس المتصوفين وحرص على زيارة الأولياء الذين يؤمن بكراماتهم إيمانا راسخا وسمع عما يظهر على أيديهم من الكرامات واعتبرها حقائق مؤكدة فأثبتها على أنها وقائع سمعها من الثقات أو شاهدها بنفسه حيث لم يعد يفرق بين ما رآه وما سمعه لشدة إيمانه بهذه الكرامات

وأعطانا ابن بطوطة صورة لبعض الفرق القائمة فى العالم الإسلامى ، وتحدث عن آرائهم وصور مظهرهم وأفعالهم كالرقص واقتحام النيران وحلق حواجبهم ، ولا نرى ابن بطوطة ينكر على هؤلاء أفعالهم الغريبة فى

حين نراه ينكر على المعتزلة آراءهم التي تخالف آراء أهل السنة ، وكان ابن بطوطة مالكيا وكان فى الوقت نفسه يؤمن بالتصوف ، وفى حديثه عن الشيعة يبدو حبه لعلي بن أبي طالب حبا معتدلا لا يتطرف فى هذا الحب .

ويؤمن ابن بطوطة بظهور الجن ، وقد ورد ذكر الجن فى القرآن الكريم ولكنه فوق ذلك يؤمن بظهور الجن للناس وبقدرتهم على إضلال السائرين فى الصحراء كما كان يعتقد الجاهليون ، وأورد حكاية طويلة عن ظهور الجن للناس فى صورة مركب ملىء بالقناديل ، ويزعم أنه رأى هذا المنظر بنفسه .

وتحدث ابن بطوطة عن حرص الناس على إقامة الصلوات فى أوقاتها ، وشدة الحكام فى عقاب اللصوص ، وإقامة الحد على شاربى الخمر ، وجباية الزكاة والعشر وهكذا رسم صورة واضحة للحياة الدينية .

وصححت رحلة ابن بطوطة مفهوما خاطئا لفت نظرنا إليه د . حسين مؤنس حيث يقول : « ويسترعى نظرنا أن ابن بطوطة يقول : إن نصف المدينة الذى فيه قصر السلطان يسمى (اصطمبول) . فكأن هذا الاسم كان معروفا قبل استيلاء المسلمين على البلد ، وقد كنا نحسب أن الأتراك العثمانيين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على ذلك البلد فسموه (إسلامبول) أى مدينة الإسلام ، ثم حرف الاسم إلى (استامبول) أو (اصطمبول) . ولكن هاهوذا الاسم يستعمل قبل استيلاء الأتراك على القسطنطينية بأكثر من مائة سنة »(١) .

وتعد رحلة ابن بطوطة - إلى حد كبير - ترجمة ذاتية لحياته ، فقد كشفت عن إيمانه العميق حيث فارق أبويه وخرج إلى الرحلة وهدفه الأول أداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد تعرض لكثير من المتاعب والمخاطر ولم تضعف عزيمته ولم يفتر شوقه إلى الأراضى المقدسة

(١) ابن بطوطة ورحلاته ص ١٤٧ - د/ حسين مؤنس .

وكانت ثقافة ابن بطوطة ثقافة دينية قبل كل شيء ، وقد أعد نفسه ليكون قاضيا وتحقق له ذلك .

وتكشف الرحلة عن عزيمة صادقة فقد تحمل كثيرا من المتاعب ولم تضعف عزيمته ، ونستطيع أن نقول : إن ابن بطوطة قد تحول بعض الشيء في أثناء هذه الرحلة ، فقد كان رجلا بسيطا ، ولكنه مال إلى الترف بعد أن كثرت الأموال في يده ، وأكثر ابن بطوطة من الزواج والطلاق وملك كثيرا من الجواري ، واصطحب في بعض الأحيان مغنين يغنون له في الطريق ، وكان سخيا يعطي كثيرا ولكنه أيضا كان يحب أن يأخذ كثيرا ويطلب العطاء بنفسه في بعض الأحيان .

وكان ابن بطوطة يتفاءل ويتشاءم ، بل إنه تحدث عن صدق المنجمين مع أن التنجيم لا يتفق ومبادىء الإسلام ، وكان شجاعا وقد ذكر أنه شارك في بعض المعارك وقاتل الأعداء .

وكان ابن بطوطة شاعرا مقلا وقد أورد قصيدة مدح بها أحد الحاكمين ، وكان ذكيا حيث استطاع أن يجمع كل هذه المعلومات من بلاد مختلفة في اللغات والعادات ، وقد جمع كثيرا من الكلمات غير العربية وأورد معانيها كما علم من الناس ، وإن لم يجد ابن بطوطة لغة غير اللغة العربية .

وقد أوضحت في هذا البحث معالم الحياة السياسية والاجتماعية والدينية كما رسمها ابن بطوطة ، كما أوضحت سمات شخصية كما تكشف عنها الرحلة ، ثم بحثت أسلوب الرحلة وناقشت مدى إسهام ابن بطوطة ومدى إسهام ابن جزي في هذا الأسلوب ، وكشفت عن المواقف التي اقتبس فيها ابن جزي من ابن جبير .

ثم تحدثت عن سمات الأسلوب من حيث السهولة والوضوح مع عدم الابتذال ، ومن حيث الاسترسال وعدم تكلف المحسنات البديعية ، مع العناية بجمال الأسلوب في بعض المواقف التي تتطلب ذلك ، ثم إن أسلوب

الرحلة يعد من الأسلوب العلمى المتأدب لأنه يسرد حقائق علمية عديدة بأسلوب شائق، ويهتم بالتفصيلات المفيدة وبتحديد الأماكن ووصفها ، وما إلى ذلك.

وفى الرحلة اقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتضمين للأمثال والشعر وقد أوضحت ذلك ، ويستطرد ابن بطوطة فى بعض المواقف فيحكى عن الخصيب والى مصر فى عهد المأمون ، ويحكى عن دمياط القديمة وعن التتر ودخولهم بغداد ، ويتحدث عن الأهرام ، ويورد حكايات تخدم أهدافه وتؤكد نظرياته .

وتحدثت عن أخطاء قليلة علمية ولغوية وردت فى الرحلة ، وتحدثت عن كلمات عامية وردت فى الرحلة ، وإنصافا للرجل تحدثت عن دقته فى ضبط بعض الكلمات ، وعن تمييزه بين المتشابهات وتفسيره لما غمض، وكشفت عن ألفاظ عربية حورت قليلا ، وعن ألفاظ عربية فصيحة يحسبها بعض الناس من الألفاظ العامية ، ثم جمعت الكلمات الأجنبية التى وردت فى الرحلة ورتبتها بحسب الحروف الأبجدية ، وأوردت معانيها كما ذكرها ابن بطوطة.

وآمل أن تكون هذه الدراسة لبنة فى صرح أدب الرحلات الذى يكشف عن الماضى ويصور الحياة ويكشف عن عوامل البناء وعوامل الهدم ويسهم فى الدراسات اللغوية والأدبية ، وقد التزمت الصراحة والصدق وأبديت رأيى فى الحقائق وفى الخرافات التى تضمنتها هذه الرحلة الرائعة التى لا يقلل من قيمتها ما كشفت عنه من هفوات .

د . أحمد أمين مصطفى

المراجع

١ ـــ أعلام الجغرافيين العرب ، د . عبد الرازق حميدة ، دار الفكر العربى .
٢ ـ الأغانى جـ ١٠ ، أبو الفرج الأصفهانى ، الدار التونسية للنشر .
٣ ـ أمالى المرتضى جـ ١ ، الشريف المرتضى ، عيسى البابى الحلبى .
٤ ـــ البداية والنهاية جـ ١٤ ، الحافظ بن كثير ، دار الفكر العربى .
٥ ـــ ابن بطوطة ورحلاته ، د . حسين مؤنس ، دار المعارف بالقاهرة .
٦ ـــ تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، د . السيد عبد العزيز سالم ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر .
٧ ـــ تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، محمد بن عبد الله الطنجى ، مؤسسة الرسالة بيروت وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة) :
٨ ـ الدرر الكامنة جـ ٤ ، أحمـــد بن على العسقلانى ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
٩ ـــ دولة بنى قلاوون فى مصر ، د . محمد جمال الدين سرور ، دار الفكر العربى .
١٠ ـــ رحلة ابن جبير ، محمد بن أحمد بن جبير ، دار ومكتبة الهلال بيروت
١١ ـــ الرحلة المغربية (رحلة العبدرى) محمد بن على العبدرى .
١٢ ـــ صبح الأعشى جـ ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١٣ ، أحمد بن على القلقشندى ، دار الكتب العلمية
١٣ ـــ الفرق بين الفرق ، أبو منصور البغدادى ، مطبعة المعارف .
١٤ ـــ القاموس المحيط ، الفيروزابادى .
١٥ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، أحمد بن على المقريزى ، دار الحكمة للطباعة والنشر .

١٦ — لسان العرب ، جمال الدين بن منظور .
١٧ — معجم البلدان ج ٢ ، ياقوت الحموى ، دار إحياء التراث العربى بيروت .
١٨ — مقدمة ابن خلدون ، المجلد الأول عبد الرحمن بن خلدون ، دار نهضة مصر ط ٣ .
١٩ — الملل والنحل ج ٢ ، محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى .
٢٠ — المماليك ، د . السيد الباز ، دار النهضة العربية بيروت .
٢١ — المنية والأمل ، أحمد بن يحيى المرتضى ، دائرة المعارف النظامية .
٢٢ — النجوم الزاهرة ج ٩ ، يوسف بن تغرى بردى . المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة .
٢٣ — نشوار المحاضرة ج ٣ ، أبو على التنوخى ، بيروت .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الثانى الحياة الاجتماعية	٨٩
الطبقات الاجتماعية	٩١
الزوايا والمدارس والرباطات — الطرق الصوفية	٩٧ —١٠٢
الأعياد والمواكب	١٠٤
وصف البلدان والمشاهد	١١٠
المــرأة	١١٧
بعض المظاهر الاجتماعية (الملابس ـ الأطعمة ـ التداوى)	١٠٧—١٢٩
عند لقاء السلاطين	١٣١
السحرة ـ تقديس الهنود للبقر	١٣٢—١٣٤
فى الجنائز والمقابر	١٣٤
الحياة الاقتصادية : الثراء الفاحش والفقر المدقع	١٣٦
التجارة ـ الصناعة ـ الزراعة	١٣٧
الأموال المحصلة ـ العملات ـ الأوقاف	١٤٥—١٥٢
الحياة العلمية	١٥٤
الحياة الأدبية	١٦٠
الفصل الثالث: الحياة الدينية	١٦٥
قوة المشاعر الدينية عند ابن بطوطة	١٦٧
الديانات فى العالم الإسلامى والعلاقات بين أصحابها	١٦٧
الاهتمام بالعلوم الدينية وتقدير العلماء	١٧١
المذاهب والفرق الإسلامية : المعتزلة ـ الروافض الشيعة ـ النصيرية ـ الإمامية ـ الإسماعيلية الفداوية الخــوارج	١٧٤—١٨١
الفرق الصوفية : الحيدرية ـ السامرة ـ القلندرية	١٨٢—١٨٥
الصوفيون والكرامات	١٨٧
الاحتفالات الدينية	١٩٣

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـــة

رقم الإيداع الدولى ١٩٩٢/٥٩١٥

٩٧٧ - ٠٠ - ٣٦١٨ - ٦